كهف العرّافين

عاصم علاء

عصير الكتب

كهف العرّافين

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- الطبعة الأولى: يونيو / 2021م
- رقم الإيداع: 2021/09240م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-164-8
- المؤلف: عاصم علاء
- تدقيق لغوي: منى عبد الهادي الشريف
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن
فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

[سورة الجن : 10]

إهداء

إلى أبي ـ رحمه الله ـ الحاضر فينا بأثره دائمًا..

وأمي التي تجعل من الحياة ربيعًا لا تغيب عنه الشمس..

إلى كل من ترك يومًا أثرًا في السراديب؛ لينبثق منه النور..

أُهدي هذه الرواية

هذا العمل مسطور بقلم الخيال، أحداثه غير مستوحاة من أي خبر من أخبار الأمم السابقة؛
وهذا قد يعني أنها ليست حقيقية.
لكنه لا ينفي عنها أبدًا أنها قد تكون الحقيقة عينُها..

استهلال
الدخيل

بين ظلال الليل، وفي طرقات المدينة الخاوية بعد أن أفضى الجميع فيها إلى دورهم، كان يتقدم..

وحيدًا بين برودة الطرقات في جسد تضاءل بفعل السن حتى أصبح منكباه يافعين كساقية، له ذراعان كأنهما ثعابين باردة لا تقوى على الزحف، وشعر كثيف طويل شديد البياض كالثلج يتهاوى في تخاذل على جلد بارد منكمش كالليل، علت رأسه قلنسوة زيتونية اللون خمرت رأسه ورقبته، تخفي مما تخفي عينه اليمنى، في يده عصا قديمة ضخمة وصل بها أبواب العاصمة للتو.

تقدم في خطوات، أخذت على بُعد منها كلاب الطريق الضالة تعيث في أرضها حركة مضطربة بين الهلع والارتعاد. استيقظ من كان منهم قد غفا، واقترب من كان منهم بعيدًا، وبدأ أحدهم بالنباح عاليًا بينما تطالع أعين الآخرين في فزع.

تجمع عدد هائل منهم يصطفون في نصف حلقة على بعد من الدخيل وأخذوا جميعًا في النباح بأنفاس متفاوتة.

أنفاس راحت تحتد بينما صوت نباحهم يعلو وصفوفهم تزداد تقهقرًا.

حتى دبَّ الدخيل الأرض من تحت قدميه بعصاه دبةً أخرس بها كل شيء!

السطور القديمة تكشف عن خبايا الصفحات المغلقة، والأخبار الماضية، والسِّيَر الضائعة، تخفي كل ما بعدها.

موطن الأسرار يقطن في صفحات التاريخ، والمفاتيح تكمن بين دفات السير.

الفصل الأول

السيرة

البوح الأول

عهود وخطايا

المكان: مدرسة المازني – العاصمة.

الزمان: مائتا عام بعد الحريق العظيم.

كتاب عتيق صُنعت دفتاه من جلد سميك بني اللون، وُضِع مفتوحة أوراقه على طاولة خشبية حالكة مستطيلة الشكل بين عدد هائل من الطاولات المشابهة، تراصت في صفوف أفقية تتخلَّلها أبنية عملاقة من أرفف متهالكة مليئة بالعديد من الكتب، مؤلفات عربية ومترجمة، تاريخ هنا وتطبيب هناك، وكتب متعددة في العلوم من فقه وأصول وكلام عن الفلك والكيمياء والطبيعيات وأعداد هائلة من المخطوطات والرسائل والبرقيات يمتد تاريخها لقرون من الزمان جمعت في هذه المدرسة حين أنشأت قبل عقود من قبل المسماة نسبة إليه، الخليفة أيوب المازني، أحد الخلفاء الرماديين.

وهنالك أيضا ذلك الركن البعيد الذي لا يدخله إلا فئة قليلة من المرتادين – الذين هم قلة في الأصل – ذوي الذائقة المختلفة والميول المريبة، ركن خاص بكل ما هو أسود وغريب ومظلم، كل ما هو متعلق بالسحر والترويض والعوالم الخفية وأسرار الديانات القديمة وأشياء ليست بمحور حديثنا الآن.

في هدوء الليل كان المكان فسيحًا خاويًا عدا من شاب هادئ هزيل ذو ثوب راق، له من الوقار ما له من البساطة، انهمك يقرأ في الكتاب سالف الذكر في اندماج شديد على ضوء شمعة بدينة ساهمت مع المشاعل المجاورة في توفير ضوء -وإن كان لا يزال خافتًا- مناسبٍ للمكان.

يقرأ فيما يقرأ أسطرًا مديدة، جاء فيها..

«دولة رمادية تأسست على يد أسلم الأول أو كما لقبه شعبه أسلم الرمادي وإليه ينسب اسمها، ويرجع تلقيبه بذلك إلى حادثة توليه الخلافة حين تولى الحكم على حفنة من الرماد!

عانى المسلمون الكثير على يد الخليفة الذابح الذي أرهق رعيته بالضرائب التي فرضها وحاشيته جورًا وطغيانًا حتى كان يذبح كل من كان يتأخر أو يتراخى عن أدائها في قلب السوق برغم ما كان من استقامته في أول عهده وحبه لأخيار الناس من رعاياه الذين لقبوه بالخليفة الذاكر، لكن شيئًا ما قد تغير فجأة دون سابقة علامة أو لاحقة إخبار عقب حادث مؤسف لا يتحدث في أمره الكثير من الناس، لكنهم يرددون فيما بينهم أن ذلك الحادث كان هو الزمام الذي قاده إلى ما كان عليه من الجنون.

ليقع له في كل يوم ذبائح أكثر من الذي يعقبه حتى رأى البعض أن البلاد تسير نحو حالة من الفوضى التي يقودها جنون الذابح نحو هاوية لا مفر منها.

حتى بدأت الأحاديث في بيوت الرعية وبعض الحاشية تهمس كثيرًا باسم كادت الآذان أن تنساه.. اسمه هو أسلم الأول.

أخوه الذي كان معروفًا في إمارته البعيدة بالحكمة والورع وسعة الدهاء، والتي بدأت تهاجر إليها الأحاديث، وتجاهر بِحثِّ أسلم على اعتلاء كرسي الخلافة بديلًا عن الذابح وجنونه.

أحاديث استقبلها أسلم بشيء من التردد في بادئ الأمر. لكنه سرعان ما رضخ لها في النهاية. وأشعل فتيل التمرد بين أرجاء البلاد، تمردًا يريد العصف بالذابح وحكمه ومن والاه من الحاشية الأعيان، انقسم على إثره الرعية إلى مناصرين للتمرد، واعتلاء أسلم كرسي الخلافة، وموالين للذابح وحكمه. وبرجحان كفة الأول بموالاة بعض الأعيان والحاشية والجند سرًا؛ باتت حركة التمرد تهدد عرش الخليفة.

آمن المتمردون بأسلم وبأنه خلاصهم من يد الذابح الباطشة يطالبون بتوليه كرسي الخلافة، وأطلقوا على أنفسهم اسم (الأسلميين) وشاع بينهم قول «أسلم، أسلم»، وبوجود فئة لا تزال تناصر الذابح وحكمه؛ باتت الأمور أكثر تعقيدًا ونشبت حرب ضارية بين المناصرين لأسلم والموالين لحكم الذابح سالت فيها دماء الأبرياء أنهارًا جرت تحت أقدام كلا الفريقين.

حتى تدخل شيوخ الدولة وعلماؤها صارخين في وجه ما يجري من استباحة دماء المسلمين، ومطالبين بتفاوض سلمي يحقن الدم ويحفظ الوحدة.

تفاوض كلا الفريقين وقررا عقد مجلس لمناقشته في بلاط الخليفة يجمع بين رؤوس الطرفين وبحضور الشيوخ والعلماء. واتُخذ من يوم الجمعة الحادي عشر من ذي القعدة عقيب الصلاة موعدٌ له.

ولكن رفض الأعيان المناصرون لأسلم الرضوخ لرغبتهم والتفاوض مع الخليفة والذي اعتبروه استسلامًا وانهاءً لحركة التمرد وخططها برغم موافقة الجميع على ذلك.

حاول أسلم والمناصرون من العوام إقناعهم بقبول التفاوض، لكنهم رفضوا ذلك رفضًا قاطعًا مهددين بالانسحاب من صفه في حال قبل بذلك، ليبقى أسلم أمام مُعضلة عليه حسمها حتى قرر بمشاركة الأعيان وحدهم، وبقي اقتراحهم قرارًا سريًّا مخفيًّا عن الجميع حتى فوات الأوان.. قرارٌ غير مجرى الأمور.

كان اليوم الموعود عقيب انتهاء شعائر صلاة الجمعة حين فوجئ الشيوخ والعلماء وقد جمعتهم صلاتهم بمحاصرة عدد من المرتزقة الجامع، وإيصاد أبوابه يحملون الأسياف ويروعون الناس ويمنعونهم من الخروج والذهاب إلى مجلس التفاوض الذي كان قد عُقد بالفعل، وجمع الموالين لحكم الخليفة. وبغياب جميع المناصرين لأسلم الأول بين توتر الحضور وتساؤلهم عن سر ذلك الغياب.

وما إن وصلت أخبار محاصرة الشيوخ إلى المجلس على الفور حتى جنَّ جنون الخليفة وأمر بخروج الجيش والقضاء على أسلم والمناصرين كافة ليتلقى ضربة مقتله باكتساب أسلم ولاء الحامية العسكرية وجنود الجيش الذي امتنع عن تنفيذ أية أوامر ورفض الخروج.

وكما حاصر المرتزقة المسجد، حاصر الجنود القصر!

نشب القلق يضرب أرجاء العاصمة في ساعات من الرعب، ترقب فيها الجميع حتى ظهر أسلم فجأة بصحبة مناصريه والمرتزقة والجنود يأمر الذابح بالنزول على الرغبة والاستسلام الكامل والرحيل.

وهو ما رفضه الذابح بالوعيد والسباب. انطلقت همسات في صفوف أسلم من الأعيان خرج بعدها مشدوهًا يأمر بحرق بلاط الخليفة عن بكرة أبيه بمن فيه من الذابح وزوجاته وأطفاله وحاشيته الموالين ومن معه من الأعيان وجميع أحياء ومواطن قبائل الرعية الموالية.

لينشب حريق هائل في قلب المدينة أحرق العاصمة عن بكرة أبيها، في حادثة عرفت فيما بعد باسم (الحريق العظيم).

أوقف الشاب قراءته على الفور حين اقتحم عقله فجأة ذلك الصوت.

- بُنيَّ!

هبَّ عن شباك الكتاب وقام عن انغماسه بين الدفتين يلتفت إلى اتجاه الصوت قبل أن يتساءل مجلجلًا:

- الحكيم شمس الدين؟

بينما تتعلق أنظاره بشمس الدين اليمامي الذي بلغ أراذل العمر في الإشراف على أمور المدرسة ومرتادِيها وحماية مقتنياتها منذ زمن بعيد.

قال بينما يجلس على الطاولة ببطء بصوت يليق برجل تخطا الثمانين من العمر: هاه، أما زلت تقرأ حتى الساعة؟ لا بد وأن عظيمًا قد أبقاك يقظًا.

أجابه وقد نظر إلى الكتاب بين يديه:

- أسلم الأول.

ليجيبه شمس الدين وقد ارتفع حاجباه الخاويان على أجفانه كأنها شمس تطلع من جوف مشرقها: الرمادي!

أومأ الشاب في إيجاب بينما أردف الشيخ في أسف: حارق العاصمة.. كتاب سير الرماديين.

الشاب: أجل، سيرةٌ لا أَمَلُّ قراءتها، هي..

لم يكد الشاب يتم جملته حتى قاطعه شمس الدين قائلًا: كان حلمًا لم يكتمل!

سكت لبرهة كأنما يطالع قوله أمام عينيه:

- قيل إن الحريق كان ضاريًا، أكل الأخضر واليابس، سِيَرُ الرماديين لا تذكر منه إلا ما يمكنها البوح به، بطش الذابح والتمرد، ثم اعتلاء العرش، لكن الحكاية لم تنتهِ هنا، ولم تقترب حتى من النهاية، إنما تتوقف الكتب دائمًا عند ذلك الحد، برغم أن ما حدث بعدها كان أجدر بالذكر، حياة الرماديين يا بني مليئة بما يستحق أن يُذكر، وأن يسمعه أهل كل زمان ومكان، لكن من دَوَّن تاريخ الرماديين؟ كان الرماديون أنفسهم، وكان نتاج ذلك أن حُرِّف الكثير وطُمس الأكثر، العديد من عهود الرماديين وخطاياهم ذهبت حتى لم يبقَ لها أثر سوى في حديث من عاصروها من العامة وكتبت لهم النجاة منها حتى حدَّثوا بها أولادهم وذراريهم.

سأل الشاب في اهتمام: وما الذي حدث بعد ذلك يا شمس الدين؟

شمس الدين كأنما يختنق بثقل كلماته في حلقه: تولى الرمادي الحكم وخلف ما فعل في نفسه ونفوس من أيدوه مسبقًا من الرعية أثرًا لا يمحى جراء ما فعله بأخيه، وعاش ما تبقى من حياته يعاني تبعات ذلك القرار؛ إذ كرهه الناس واعتزله أكثر مناصريه وهجروا البلاد بعيدًا إلى ما وراء النهر، حيث قيل إنهم يجتمعون سنويًّا في الأرض التي استقروا بها في الليلة التي أحرقت فيها العاصمة، ويمكثون طيلة ليلهم يبكون ويضربون صدورهم حتى بزوغ الشمس في طقس عرفوه باسم (بكاء الفجر) آملين أن يكفر ذلك عن ذنبهم فيما فعلوا، وعُرِفوا فيما بعد باسم جماعة البكَّائين، وبقي أسلم وحيدًا مع من ناصروه من الأعيان الذين عادوا يحكمون من فوق عرش الخلافة من جديد، ثم كان أن أدرك أنهم من كانوا وراء سخط أخيه على الناس وسخط الناس عليه وأطاحوا بالذابح، ليأتوا بأسلم بناءً على رغبتهم الراغمة في هذا. قُهر أسلم حتى فقد زمام الأمور تاركًا الحكم الفعلي لمن كان لهم منذ البداية. وبات الرعية يعانون حكمًا أسوأ وأكثر جورًا من حكم الذابح نفسه.

وعاش أسلم قدر ما عاش داخل قصره معتزلًا الناس حتى مات وكان آخر ما وصَّى به أن يُكتب على قبره قول عَليًّا كرم الله وجهه: «ليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فناله»، لتبدأ بوفاته حقبة من حكم الرماديين الذي لا يزال مستمرًا حتى اليوم، وطال الزمن ما طال وكان في انتظار الأعيان قصاصهم العادل ومصيرهم الأشد سوادًا والذي يعرفه الجميع!

– والبكاؤون؟

ليجيبه: بعد رحيلهم انقطعت الأخبار عن أرضهم البعيدة حتى لم يعد يعلم أحد عنهم شيئًا بعد ذلك.

شرد الشاب للحظات تأمل فيها كلمات اليمامي الذي أمسك قليلًا ثم عاجل قائلًا: لقد تأخر الوقت، وآن لنا الذهاب، التاريخ حكاياته لا تنتهي، وأيامه لا تنقضي، لكن أيامنا تفعل.

ثم أردف مازحًا: أم أنك تتهرب من إيصال هذا الشيخ العجوز إلى دياره؟

ابتسم الشاب ابتسامة سرعان ما تلاشت، وتلاشت معها صفحات الكتاب وقد أُغلق بين يديه.

***

انطلقا على طريق الليل يشقون الخطا بين القوارع والأزقة والدكاكين.

الطريق من حولهم خاوٍ إلى بعيدٍ يمتد بينما فرضت القوارض والقطط الضالة سطوتها في كل مكان.

وفي أحد تلك الأزقة بين المنازل الحجرية كاد اليمامي أن يتعثر في هرٍّ كان يعبر الطريق في سرعة خاطفة، عثرة أطلق بعدها ضحكة مكتومة، ثم قال: هذه الهررة المسكينة، لا يفتؤون يضلون طريقهم دومًا. أهل هذه الأرض لا يملكون ما يطعمون به أنفسهم، كي يتركوه لهم طوعًا في دُجى الليل على الطريق.

همهم في تنهيد ثم أردف: أتدري أنها ما شبعت يومًا؟

– الهررة؟

– بل الأرض.

قالها ثم أعرض نادمًا يرمق الشاب قائلًا: شيخ ثرثار أليس كذلك؟

رسم الشاب على وجهه ابتسامة عريضة صامتة أجابها شمس الدين قائلًا: أوافقك الرأي.

ليطلق الشاب ضحكته الهادئة التي يألفها اليمامي إلى العنان.

اليمامي منهمكٌ في مسيره: ألن يوبخك الخليفة الرشيد إن تأخرت عن مجلسه غدًا؟

ليجيبه الشاب في اقتضاب مازحًا: ومتى انقطع عن ذلك؟

اليمامي: لا عليك، هم كذلك أصحاب العهود، اعلم أن من لطيف قدرك أن تكون كاتبًا لخليفة كالرشيد، أدهى رمادي عرفته البلاد. فوالله لو اجتمعت عقول المسلمين كافة ما ضاهت في دهائه من شيء، هو هكذا عهدناه منذ صغره، ما نشأ الرشيد كما نشأ غيره قط.

صمت لبرهة ثم تابع بنبرة متوترة: وإن كان قد تغير كثيرًا عما سلف، منذ أن عاد من الموت وهو على غير ما كان عليه. (هاه)، من كان يصدق أن رشيدًا بن يزيد الحاكم، سوف يكون أفضل خليفة رمادي عرفه المسلمون؟

الشاب معقبًا: إن لم يكن الموت يغيرنا فمن ذا يفعل؟

- أجل، لقد عاد، لكنه لم يعد وحده، إنما عاد ومعه تلك النبوءة.

- الموت القادم إلى الجميع.

- ذلك الذي احتار في أمره الناس كافة. بحث الجميع عنه لسنوات ولم ينجح أحد في كشفه، حتى النبوءة وأصحابها العرافون أنفسهم. مصير خافير الذي أرعب الناس منذ القدم حتى لم يترك فيها حيًا واحدًا يخبرنا بماهية ما حدث هناك.

أخذ اليمامي هدنة صغيرة يرتاح فيها من عناء الحديث ثم أردف: مرت سنوات منذ خروج النبوءة وإني لعلى يقين بأن أجلها قريب، قديمًا قال بعض العرافين إنها تحدث في حياة الرشيد.

- لهذا هم يدعون له دائمًا بطول الأجل؟!

- لا ليس ذاك، إنما لأنه أفضل خليفة رمادي عرفه المسلمون يومًا، بعض الناس يقولون: ربما نسأل في ذلك بطون الرعية، فنحن لا نصدق أمر هذه النبوءة، وما يحدث ليس إلا هزلًا واتباعًا لخرافات عرافين، الأجل نبوءة لا نتيقن أحقًّا هي أم باطلًا يجوع الناس، والأرض فيها من الخير ما فيها؟! لكن.. هو الرشيد، يدخر منه حسبة لذلك الليل الذي حذر منه العرافون، فما إن عاد وصار الخليفة حتى أمر ببناء سبعة من القلاع، إليها يذهب نصف نتاج الأرض السنوي من الحبوب والغلال حتى أخذ البعض يتحدث عنه بالسوء. لكنها (المنجاة)، لا نعلم سبيلًا للنجاة دونها، وما أُمرنا إلا بالنجاة، لا نعلم ماذا قد يخبئ لنا ذلك الليل الموعود؟ وما الذي ينتظرنا خلف ذلك الغروب للشمس؟ وآخر ما قد يسرك رؤيته أن يفتك الجوع الحقيقي برعيتك، ذلك الجوع الذي ما أصاب قومًا حتى غادرهم وبينهم من الدماء ما تثقل به ثيابهم وأياديهم ويأكل اللهيب كهلهم وفتيَّهم، ويورث بينهم البغض وذراريه. وويل لذراري البغض!

– لكن البعض يقولون عنها أنها مجرد نبوءة خرجت من أفواه منجمين، وكذب المنجمون ولو صدقوا. ويتعجبون ما بال الرشيد يظنها قرآنًا قد أنزل.

اليمامي في ترقب: البعض دومًا يقولون، المهم ما قولك أنت؟

ليجيبه الشاب في حيرة: إنها ساعة، وما علمها إلا عند الله الذي يعلم الغيب ويسوق إليه.

اليمامي: تلك النبوءة حقيقية، على الجميع أن يوقن بهذا، النبوءة التي تخرج من مشارق الأرض ومغاربها في ليلة واحدة، النبوءة الأولى التي يهلع منها العرافون ويفزعون، لا بد أن تكون حقيقية.

سكت قليلًا ثم تابع قائلًا: هذه أرض عُهد لها بالنبوءات.

بدا وكأن حديثه قد كثر وأصابه في نفسه بعظيم، مع جهده البالغ في المسير والحركة بينما يردف: مرَّ على هذه الأرض زمان آمن فيه الناس بالعرافين، وكثر فيه عددهم وعظمت كلمتهم، حتى بلغ ذلك أن كانت نبوءة واحدة تُصلح من شأن أمة أو تبيدها، ثمة ما تذكره الأخبار الماضية عن شيء آمن به من ذكر عنه التاريخ أنه قد نجا، شيء يقود إلى أرض مباركة خفيَّة. هؤلاء العرافون كانوا قومًا صالحين، ثمة نبوءات عدة، وثمة نبوءة أخيرة، وكانت تلك النبوءة بعد عودة الرشيد هي النبوءة الأخيرة، اختفى بعدها العرافون وهجروا العاصمة نحو جبال عاليات، وقيل إنهم سكنوا كهفًا خفيًّا في صحراء الخيزران يدعى كهف العرافين. وكعادة كل من خرج من هذه الأرض تنقطع عنه كل الأخبار ولم نعد نسمع عنه شيئًا قط.

– فقط لم لا يذهب أحدهم إلى خافير ويعر..

لينطلق اليمامي مقاطعًا: ما عاد أحد من هناك، إلا واحد نعلمه، لقد كفَّ الناس حتى عن محاولة ذلك منذ زمن بعيد، منذ ولدت هذه النبوءة واعتكف الكثيرون بحثًا عن السرِّ لفترة طويلة دون أن ينجح أحدهم في كشف ولو عن جزء يسير من هذا السر حتى وافت المنية معظمهم، بينما كَلَّ البعض واستسلم وتسلل إليه من اليأس ما تسلل إلى الناس كافة حتى كَفُّوا. كَفُّوا عن البحث والتنقيب وحتى السؤال والحديث، تلك النبوءة حقيقية يا بني، لا محال عنها ولا سبيل للفرار منها.

صمت يسيرًا ثم تابع خاتمًا حديثه: لسنوات، اختلف الناس في أمر تلك النبوءة بين مصدق ومكذب، لكن الناس فطروا على اختلاف القول، وليس الشأن شأن من يصدق بأمرها ومن يكذب، إنما الشأن.. أن الجميع يعلم.

***

في الساعة ذاتها كانت تتقدم أقدام جواد تتقافز على أرض فناء قصر الخلافة المرصعة بالصخور مُحدثةً صوتًا مميزًا كلما هوت عليها حوافر ذلك الجواد صاحب البنية الضخمة والقوية ما يصنع منه مرشحًا قويًّا لأن ينتمي إلى أحد النبلاء. كذلك حركة الخيل الانسيابية والمتمكنة تشير إلى أن فارسًا قويًّا على ظهر ذلك الجواد.

قصر الخلافة شاهق البنيان، غابت عن ساحته البساتين التي تعهدها قصور المترفين دومًا، لتغلب عليها الصخور والممرات في كل جانب، هو مختلف عن أي قصور أخرى سكنتها أو تسكنها عائلة حاكمة في أي مكان، قصر ذو طبيعة خاصة، من أبرز معالم تلك الطبيعة أن غلب عليه الطابع الحاد والريح القاسية؛ ذلك أنه قصر لا إناث فيه، الرماديون لا ينجبون الإناث أبدًا، الجميع يؤمن بهذا إيمانهم بأنهم يطؤون الأرض التي هبط إليها آدم وزوجه حواء، أما الزوجات والأمهات ومن يحكم عليها القدر أن تولد لرمادي من أهل القصر فإنهم لا يعيشون طويلًا، إنها لعنة من الكثير من اللعنات أصابت هذا القصر سالفًا.

انطلق بريق في عيني الفارس على الجواد.. الأمير سليم الابن الثاني للخليفة الرشيد.

أحكم قبضته على اللجام جاذبًا إياه الى منكبه الأيسر في حركة بارعة أتقنها الأمير الشاب في مهارة، ثم ترجل عن ركوبه هابطًا الأرض في توتر. راح يمسح رقبة جواده في عجالة من أمره قبل أن يتدخل على الفور أحد الحاشية ليعطيه سليم اللجام ثم يلتفت إلى رجل أربعيني وقف أمام مدخل القصر يراقب حركات سليم في إعجاب قديم بمهارته في الركوب.

تقدم مهرولًا نحو الباب قائلًا: ما الذي يريده مروان في هذه الساعة يا يعقوب؟ ألا يسعه الانتظار إلى أن أعود أو حتى الصباح؟

همهم المُحَدَّث في إنصات مضطرب يليق ببيعقوب السقري. رجل في مستهل عقده السادس، له رأس كبير وبطن أكبر، اكتفى بطنه من تراكم الدهون فيها حتى لم تجد موضعًا إلا أن تتراكم على عقله. هو رئيس التجار، لأنه من أمهرهم فيها وأشدهم حنكة ودهاءً وعلمًا بأمورها وأسرارها حتى بات من أثرى الناس وأوسعهم ملكًا، برغم ما هو عليه من التخمة، تكرهه الرعية وتبغضه حتى إنه لا يسعه أن يسير في الطرقات العامة دون حراسته، وكيف لا وهو بهذا البطن الكبير بينما يتضور الناس جوعًا، هو يوقن دومًا أن نَحْبَه سوف يكون بسبب ذلك البطن يومًا ما، إما معتلًا بأمراض لن يسع الحكماء تشخيصها إذ سوف تحجبها عنهم ذلك البطن الكبير، وإما إنه سوف يختنق في لحظة ما بينما يعلق في حلقه لحم خروف سمين عاش مقطوع الأرجل، أو الاحتمالات المفزعة المتبقية، أن يأكل الناس بطنه من شدة الجوع.

يعقوب بكلمات خاضت العديد من المعارك حتى خرجت من فِيه المترهل المزدحم متصببًا عرقًا:

– نعتذر لقطع معسكر صيدكم على حين غرة يا مولاي، لكنها أوامر الأمير مروان، أن يجتمع بكم قبل بزوغ الفجر في أمر عاجل لا يحتمل التراخي، الأمراء مهاجر وشاهد قد وصلا من إماراتهم كذلك وهم مجتمعون كلهم في الأعلى في غرفة الأمير مروان في انتظار وصولكم يا مولاي الأمير.

ليجيبه سليم حانقًا: ويحٌ لهرائك دون إجابة!

يعقوب متداركًا: في الحقيقة، لا عِلم لي يا مولاي عن السبب.. الأمير مروان أمر باستقبالكم فور وصولكم.

أنهى سليم كلماته ثم أسرع في خطواته غير آبهٍ بكلام يعقوب الذي تباطأ أكثر متخلفًا عنه، كمن تلقى أوامر بعدم الحضور.

وقف أسفل سماء الليل المعتمة يرقب سليم في صمت ثم شَخَصَ ببصره إلى أعلى محدقًا إلى نافذة غرفة مروان ممسكًا بالحزام حول بطنه الكبير متسائلًا عن سبب طلب الأمير مروان الابن الأكبر للخليفة الرشيد ودعائه إخوته على حين غرة حتى قطع لهذا معسكر الأمير سليم للصيد.

ولم العجالة في هذه الساعة بالتحديد؟ لم يطالع كتبه التي أرسلها إلى إماراتهم لكنه يعلم بما فيها، لا شيء عدا دعوة إلى حضور سريع وعاجل.

شرد لحظات ثم قطب حاجبيه فجأة وقال بصوت لا يسمعه غيره: لا أستيقظ في تلك الساعة من الليل إلا إذا شعرت بالجوع!

ثم سائلًا نفسه: ما الذي دون الجوع لا ينتظر حتى الصباح يا ترى؟

***

غرفة شديدة الاتساع، يغلب عليها ومقتنياتها اللون الذهبي، احتوت في أحد أركانها على أريكة خشبية عريضة مزركشة فاخرة جلس عليها شاب في العشرين من العمر. في الحقيقة كان هذا الجالس هو الأمير مهاجر أكثر الأمراء الأربعة وسامة وأقلهم حكمة. جلس في صمت شَابَهُ بعض التوتر يحدق بعينيه أرضًا في ثبات من على أريكته، التي وقف إلى جوارها مستندًا إلى الحائط أخوه شاهدٌ شاردًا مثله دون حديث.

هذا الشاهد، هو الابن الأخير للخليفة الرشيد، يكبر مهاجر ببضعة ساعات فقط وإن كان يبدو أكبر مما هو عليه، كلاهما يصغران سليم بثلاثة أعوام، كانا ليكونا توأمين لولا أن أمهما ليست واحدة.

هو أقربهم إلى مهاجر عمرًا وقلبًا، منفرد الأم عن الثلاث البقية، تزوج الرشيد بأمه أولًا، لكنها لم تنجب حتى تزوج بعدها بأم إخوته التي أنجبت له أول أبنائه مروان ثم سليم بعد سبع سنوات، وأخيرًا مَخِضَتِ أمه في نفس اليوم الذي وُلد فيه مهاجر لأم مروان، ثم لم تعش كلتاهما كثيرًا بعد ذلك كعادة أهل هذا القصر من النساء.

بدا شاهدٌ قلقًا متوترًا مثل مهاجر، وإن زاد عنه أنه بدا منهمكًا في تفكير عميق ملَّ منه؛ فأدار رأسه ببطء ناظرًا إلى سليم الذي جلس في مثل حالهما في أحد الأركان البعيدة، ليبادله سليم ذات النظرة الغريبة الصامتة ثم يُحول بصره تجاه مروان الذي وقف مديرًا للثلاثة ظهره ناظرًا من خلال النافذة إلى ساحة القصر التي عمَّها بدورها هدوء شديد فاق هدوء الغرفة.

مروان كبيرهم حاد الطباع والخصال، غليظ اللسان وإن كان هادئًا، ورث بعضًا من دهاء والده، لكنه اختلط بحماقة وغرور والدته المتعجرفة حتى تحلَّى بمزيج سيئ منهما وأصبح يملك دهاءً مشوهًا لا يَعرف مواطن قوته من ضعفه، لذلك هو يعيث بما يملك دون اهتداء. يسلك دائمًا السلوك الصحيح ولكن في الطريق الخطأ دائمًا، مع هذا هو أكثر الأمراء الأربعة وعيًا بأهدافه ومساعيه، إذ يعرف جيدًا ما يريد، وكيف يحصل عليه، لكنه لا يحسن توقع العوائق دائمًا، فلا تجد لها مكانًا في خطته أبدًا، كذلك هو أكثرهم دراية بشؤون البلاد، ولعل سبب ذلك هو أبوه الخليفة الرشيد الذي دائمًا حرص على ذلك؛ كونه وليده الأول كما يبدو.

تجمعه بإخوته علاقة مضطربة حتى الجذور، مكتظة بالفجوات حتى أنها تكاد تكون منعدمة، أقربهم إليه فيها بعيد للغاية، كونه الوحيد الذي مكث في القصر إعانة لأبيهم واستعدادًا لتولي شؤون الخلافة بعد عهد.

جميعهم لم تجمعهم غرفة واحدة منذ وقت طويل، لذلك كان من الصعب اجتماعهم هذا، وعلى قدر ذلك كانت غرابة دعاء مروان لهم بالاجتماع والعود من نواديهم المتفرقة وأراضيهم البعيدة.

صمت قاتل ساد المكان عدا من صوت مشاعل النور على الجدران التي زينت أرجاء الغرفة وأضاءتها إلى جانب الشموع على الطاولة الجافة جانبًا، كأنها ليست طاولة قصور الأغنياء التي يقال عنها الأقاويل، ليس في قصر الرشيد على الأقل. الكثير من الأشياء الموجودة خارج هذا القصر ليست فيه إلا محض خرافة وهراء أساطير، كل شيء هنا يخالف التوقعات حتى النخاع.

قطع مهاجر أخيرًا ذلك الصمت الطويل قائلًا: لم أنتم صامتون هكذا؟ هلم فليتكلم أحدكم!

لم يبدُ أن أحدهم قد اكترث لحديثه البتة عجزًا ربما عن الإجابة عن السؤال المطروح..

انفعل وكأن صمته الطويل قد ألهب عروقه: هلا يخبرني أحدكم ماذا لو فشل ذلك؟

هذه المرة بدا صمتهم فزَعًا من الإجابة، وليس الجهل بها.

حتى نطق بها سليم في ارتعاد: لن يبقى أي منا على قيد الحياة..

نظر إلى الباقين ثم أردف: وذلك في أفضل الأحوال!

اشتد بشاهدٍ الوجس كمن أدرك مقتله ليتدخل سائر بينهم بالنظر يموج: لن يرحمنا..

ثم تابع موجهًا كلماته إلى مروان: ألا ترى إنه من الأفضل لو تريثنا وكان هذا بعيدًا عن القصر؟ فيكون بذلك أسلم لنا من الأذى وأقل للشبهات.

مهاجر مؤيدًا: أصبت، أنا أرى ذلك أيضًا، كيف تريد الإقدام على ذلك هنا في قلب البلاط؟!

تأخر مروان قليلًا حتى أجاب: لا يوجد خيار آخر، إنه لا يبرح القصر إلا للصلاة في مسجده الذي لا يبعد إلا خطوات معدودات عن القلعة.. سوف نعد العدة، ونأمر الجميع بالرحيل؛ حتى لا يبقى سوانا.

مهاجر: ولم الغد والعجلة؟ ألا ترى إنه من الأفضل لو تمهلنا قليلًا بعد؟

مروان وقد بدأ صبره ينفد: الوقت ليس من جنودنا، إما غدًا وإما سيفوت الأوان.

ثم في بعض الارتباك: هكذا قال..

ثم سليم متحاملًا: ذلك الشيخ؟ بربك، من أين نعرفه حتى؟!

مروان وقد طفح به الكيل: أظننا قد تناقشنا في هذا الأمر بما يكفي، عرضت عليكم الخطة كاملة، وأظنكم قد وافقتم قبل قليل.. أم أن منكم من يقول قولًا مغايرًا؟

خيَّم صمت جديد تلبسه القلق على المكان..

أعاد بنبرة أكثر حدة: أمنكم من لم يحسم قوله بعد؟

تبادل ثلاثتهم الأنظار في قلق. أومأ سليم برأسه نافيًا، وكذلك مهاجر ثم أخيرًا شاهد الذي تحرك مبتعدًا في حنق عاد به إلى الجدار.

***

مرت دقائق أخرى لم يتفوه فيها أحد بكلمة واحدة، بقي فيها مروان مطلًا من النافذة دون حراك.

حتى لمح أحدهم من خلال النافذة ذا ملابس فروسية يتحرك بخفة في الساحة الصخرية متجهًا نحو أروقة القصر.

أخذ نفسًا عميقًا ثم استدار إلى البقية ليصبحوا كمن دبت فيهم الروح فجأة، كأنهم كانوا بانتظار شيء ما، شيء قد وصل لتوّه.

تعالى بعدها صوت دقات الباب ليدلف منه من كشفت عن وصوله النافذة.

قائد الجنود والحامية، حراء الجلاد، قسوة طباعه تجلت على ملامحه كالغيث، تعابيره وحتى حركته، قسوة لا مثيل لها.

أدرك جمعهم ليقول ناظرًا إلى موضع قدميه: الجند جاهزون يا مولاي الأمير!

انتبه الجميع من شروده واقترب شاهد من الباقين بينما أومأ مروان في رضًا ثم انتقل ببصره من قائد الحرس إلى إخوته الذين بدا عليهم التوتر بالغًا ذروته.

إنهم مقدمون على أمر لا شك، يبدو أنه أمر خطير كذلك، كما يبدو إنه قد بدأ للتو.

ولكن أيًّا كان ما يقدمون على فعله فيظهر أنه من تدبير مروان، وهذا لا يبشر بخير أبدًا.

وبين صمتهم جميعًا كان شاهد هو الأكثر قلقًا وتوترًا منذ البداية والآن.

فالآن.. ما عاد من سبيل للتراجع.

***

تقي الدين الخازندار، كان هذا اسم الشاب ذا الثماني والعشرين عامًا، وقد صدق من سماه بهذا الاسم.

تقي شاب عفيف النفس طاهر القلب، طليق العقل وواسع المعرفة والاطلاع، شديد الإيمان، وأي إيمان؟ هو ذلك الإيمان اليقيني الذي يتغلب على كل المخاوف والتحديات مهما بلغت، الذي يتملك من القلب فلا يدع فيه مكانًا للضغينة أو الكره أو القلق، الذي يسكن به الفؤاد ويرتاح له البال كل إقبال فجر وإعراض قمر، إيمان صافٍ صادق واعٍ بأن الله حاضر وموجود دائمًا، وإن بدا خلاف ذلك.

ولا يعني به ذلك الوجود المادي الذي ينشأ عليه أغلب الصبية بأن الله موجود في مكان ما في السماء، إنما إيمان قلبي صادق بأنه موجود في كل موضع في عليين السماء، وفي كل بقعة من بقاع الأرض وفي حياة كل حي يسير عليها، يُسيِّرها ويقدر لها أقدارها الملائمة لها، يضع الابتلاءات والعثرات والهبات، يقدر النجاحات والاخفاقات، ويسوق الرفاق بعضهم إلى بعض، هو موجود دائمًا وأبدًا لا يغفو ولا ينسى ولا يغيب ولا ينام، لا ينقطع علمه بما يجري ولا يجير فيه، إنما يجعل اليسر والعسر صنوان لا يفترقان تتابع عليهما الأقدار، فلا يُذهب العسر بمسرَّة يُسر ولا يُنسي يُسرًا بشقاءٍ بعده.

إيمانٌ صادق يكاد لا تشوبه شائبة أو يعاتبه عيب، لعله هو السبب وراء هدوئه الدائم الرهيب، أو هي الوحدة التي نشأ عليها، كأنه وحيد حتى اعتاد لسانه الصمت.

تربَّى تقي لأبوين ميسوري الحال، طيبي الخلق، عهدا به إلى مسجد الخليفة الرشيد ومدرسة المازني حرصًا على تلقيه العلم في صغره، حتى لما تُوفي والداه لم يبقَ له إلا هما، فنشأ راشدًا بين ربوع المسجد والمدرسة وأصبح شغوفًا بقراءة الأدب والتاريخ والسير.

كان يحظى منذ صغره باهتمام بالغ وعناية زائدة من الخليفة الرشيد، حتى بلغ سن الخامسة والعشرين قبل ثلاث سنوات عيَّنه الرشيد كاتبًا خاصًّا للبلاط، وبات يثق به ويوكل إليه الكثير من المهام.

برغم أن الرشيد لم يكن بطبعه أهلًا لهذا النوع من الثقة قط، هو غامض لا يتخلى عن غموضه بسهولة، هادئ هدوء الموتى، يخفي أكثر مما يبدي، منذ مولده كما يقول شمس الدين.

بلغ تقي باليمامي داره ثم سلك طريقه إلى داره وحيدًا بين البيوت الخامدة.

ومنذ فارقه، بات الطريق أكثر هدوءًا وبرودة ووحشة كذلك.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرحل فيها عن المدرسة في مثل هذه الساعة، لكنها كانت المرة الأولى التي يساوره فيها هذا الشعور الغريب، الشعور بأن شيئًا ما يحدث في مكان ما، شيء ليس على ما يرام.

شعور راح يسير به يتأمل كل شيء من حوله بحثًا عنه، البيوت والطرقات والأحجار على الطريق والهررة، كل شيء كأنه يناديه بالشك.

حتى كان قد اقترب من داره حين سمع صوت حوافر جياد جامحة تشق طريقًا مجاورًا، توقف موضعه ثم نظر إلى اليمين حيث الطريق الموازي عبر زقاق يقطع كلا الطريقين ليلمح عددًا من الفرسان يتراوح عددهم بين الأربعة أو الستة -لم يميز ذلك جيدًا إثر السرعة والظلام- يمتطون جيادًا ويلبسون ثيابًا يألفها جيدًا، إنهم جنود من القلعة، عبروا في لحظات سريعة كانت كافية لتقي ليتساءل عن سبب خروجهم.

لكنه لم يكن ليهتم كثيرًا بالبحث عن إجابة، ولم يكن ليتبعهم لولا أنه حين خرج وتأمل طريقهم المشقوق من خلفهم اكتشف أن وجهتهم كانت نفس وجهته..

ولم يكن ليصاب بالصدمة لولا أنهم توقفوا عند باب داره!

***

اختلس من خلف حافة أحد الأزقة القريبة النظر إلى الفرسان الأربعة وقد توقفوا عند داره.

دارٌ كبيرةٌ متسعةٌ، من طابق واحد يتقدمها باب خشبي موصد، من أمامه مساحة خضراء صغيرة مزروعة، ثم سور حجريٌّ قصير يحيط بها، يتخللها باب حديدي مزخرف في نفس طول السور.

ترجلوا عن دوابهم وربطوها عند السور، ليندلع وابل من الأسئلة والحيرة لدى تقي تحول إلى قلق شديد ما أن أشهر أحد الفرسان سيوفه، وشرع يكسر الباب مقتحمًا الدار.

كان ليخرج إليهم ويصيح غضبًا مهددًا بالشكوى إلى الخليفة، لولا أن التمعت تلك الأسياف في أياديهم بين الظلمة.

دخل اثنان من الحراس الدار بعد أن تهشمت الأوصاد ووقعت متهاوية على الأرض بينما بقي اثنان آخران في الانتظار خارجًا.

وبصعوبة بالغة راح تقي يخفي جسده خلف الحائط مسترقًا النظر بين الحين والأخرى، عاجزًا عن إيجاد تفسير مطمئن لما يحدث، مهما فكر لا يجد إلا التفسيرات المفزعة فحسب.

مرت بضع دقائق أخرى حتى رأى الحارسان يخرجان من داخل الدار على وجوههم حيرة بالغة، ليقلع عن النظر؛ خشية أن يراه أحدهم بينما يخرجان.

مكثوا واقفين يتجادلون فيما بينهم بحديث لم يسمعه جيدًا حتى أخذ أحد الثلاثة في الغضب ودبَّ الأرض في حنق..

مهلًا.. لم هم ثلاثة فقط؟ أين ذهب الرابع؟

تفجرت الدماء من رأسه ودبت الأنفاس تصارع صدره فور أن وجد أحد الحراس يتحرك من خلفه ليفقد السيطرة على قدميه اللتين انطلقتا تركضان به نحو أول وجهة تراءت له بعيدة.

انطلق الحارس خلفه وصاح منبهًا البقية ليبدأ الأربعة في ملاحقته.

راح يركض بكل ما أوتي من قوة شاقًا طرقات المدينة حريصًا على أن ينتقل من زقاق إلى آخر في كل فرصة تسمح له بذلك بينما يتحرك في إثره الأربعة.

ظل على حاله يركض ويتنقل بين الأزقة والطرقات حتى فقد إدراكه بمكانه الحقيقي مستمرًا في الانعطاف إلى أي طريق آخر، يغير وجهته ويضلل ملاحقيه متى وجد.

لكن الحراس أذكياء وذوي مهارة عالية، وهو أكثر من يعرف ذلك جيدًا، لذا لازم فراره خيبة أمل كبيرة لم تخفِ، لكنه الاضطراب، ذلك الرفيق الذي لا يدع مجالًا للتفكير في شيء سوى الفرار، وفقط الفرار. غريزة البقاء عظيمة التأثير، التي تجعل فريستها قادرة على التهام الهواء ركضًا، وفعل كل ما تعجز عن تخيله حتى، تمامًا كما تجعلها ترتكب أخطاءً تعجز عن تخيلها كذلك. كأن لا يرى ذلك الهر العابر في الطريق..

فور أن تهاوى تقي بجسده على الأرض شعر كأن أطنانًا من الخوف هبطت على قلبه حتى لم يعد يشعر بألم في قدمه إثر تعثره بالقط على الاطلاق وإن كان بالكاد يستطيع الوقوف ومواصلة الحركة، هو فقط يشعر بالخوف الشديد.

صارت سرعته الآن أبطأ من الجنود وقوانين الطبيعة لن ترحمه، حتى راحت تخطُّ حتفه في سطور متلاحقة!

راح يستند على جدار أحد الأزقة في حركته لاهثًا يائسًا مرهقًا وخائفًا، عقله تتلاعب به الشياطين كما تتلاعب الغلمان بالحجر، حتى فجأة لم يعد يشعر به من حوله.

هدوء شديد ساد المكان كأن أحدًا لم يكن في مطاردته قبل لحظات، لا أثر ولا صوت لأي منهم كأن كل ما حدث لم يكن إلا محض خيالات.

ترى هل فقدوا الأمل في اللحاق به فشقوا طريقهم عائدين؟ أم أنه نجح في تضليلهم وتاهوا بين طرقات المدينة؟

لكنه كان هدوءًا يعقبه شر ما قد يعقب الهدوء. عاصفة بشرية مدججة بالسيوف هبطت على رأسه من أعلى البيوت لتتسع حدقتا عينيه بين الأزقة، وقد أحاط به الأربعة كفريسة مصابة وقعت في فخ عرين تعجز فيه عن الحراك!

***

سطعت شمس جديدة تنير سماء العاصمة، تشرق المنازل والأسواق ودكاكينه المزدحمة وطرقاته المتكدسة التي تكاد تختنق من المارة والباعة، وبين الجموع المارة تقدم تقي يمتطى دابته شاقًا طريقه نحو القلعة يتفحص الناس بعينين مرتعدتين وبال شارد.

في حقيبته أوراقه التي لا تفارقها ودواته ذات الحبر.

اقتطعت طريقه فجأة عجوز فقيرة تشبثت بعباءته ونادت في توسل صائحة: صدقة أسياد قوم لعجوز تسأل حاجتها.

ثم تكررها مرارًا: صدقة أسياد قوم لعجوز تسأل حاجتها.

دفع تقي بيدها عن عباءته في لين يقول: رفع الله عنا وعنك.

ثم راح يكمل مسيره المضطرب.

لكن العجوز ما يئست وألحت مكررة دعاءها: صدقة أسياد قوم لعجوز تسأل حاجتها، تالله لقد أنهك بطنها الجوع حتى أشرفت على الهلاك!

دفع تقي إليها بدرهمين وقال: طيب الله محياك.

ثم شق طريقه تاركًا من ورائه العجوز تنادي: ألا شفا الله مريضكم وهدى عاصيكم، ورزقكم من حيث لا تحتسبون.

ليجيبها تقي دون أن يلتفت: دعي عنك يا امرأة، فوالله لا يقبل دعاء بِيع بزهيد المال.

تجمدت تعابير العجوز في رهبة بينما شردت تراقب رحيل تقي، عبرت نسمات هواء تطايرت معها نثرات من خصلات تدلت من أسفل حجابها ثم همست بكلمات ارتجف معها صوتها وطال فيها نفسها كأنما تخشى ترديدها: خافير؟

ثم أردفت في توجس: حفظك الله أيها التقي، حفظك الله!

ثم راحت تراقبه في شرود بينما يتابع مسيره في غفلة عنها تترنح معها ملابسه وتذهب أدراج الرياح.

***

على أبواب إحدى الغرف داخل بلاط الخليفة، وقف تقي إلى جوار ثلاثة من الحراس في انتظار خروج حارس أخير من داخل الغرفة.

في بلاط الخليفة يحرس كل غرفة من غرف الأمراء والنزلاء حارسان، بينما غرفة الخليفة ذات الثلاثة الأبواب فيحرسها أربعة عند كل باب، ناهيك بالحراس المنتشرين في الأروقة والساحات وغرف المجالس وأبواب القلعة الرئيسة والخلفية التي يبلغ مجموعها تسعة أبواب عدا إحداهن، تخلو من الحراس تمامًا حيث أغلقت قبل سنوات مديدة في عهد الخليفة الحاكم بعد حادثة مهيبة لم ينفض الناس عن الحديث عنها حتى يومنا هذا. حادثة أطلق لها العامة على البوابة اسم (البوابة الحمراء). هي بوابة تؤدي إلى ممر صخري يحده سور شاهق الارتفاع على كلا الجانبين ليؤدي منها إلى خارج القلعة حيث المدينة.

تلك الحادثة..

- تفضل بالدخول يا سيدي، مولاي الخليفة في انتظارك.

قالها الحارس الرابع موجهًا كلماته إلى تقي الذي بهت لحظات ثم تحرك دالفًا في رهبة غير معتادة، كأنها المرة الأولى التي يجتمع فيها بالخليفة، أو أن أمرًا جديدًا طرأ على لقائه هذه المرة.

ومن خلفه أوصد الحراس باب الغرفة جيدًا يتأكد من إيصاده عشرات المرات أمام مسمع من تقي الذي طالع الباب وجسًا للحظات.. إنه يوصده كأنه تلقى أوامر بعدم دخول أحد لسنوات.

انتهى ليعم المكان هدوء رهيب.

تصبب تقي عرقًا ملتفتًا لمواجهة الخليفة الذي عادته أن يكون بانتظاره على عجل ليكتب إليه رسائل استطلاعية جديدة إلى أولياء بعض الإمارات لكنه هذا المرة ودون كل المرات كان يجلس على كرسيه الضخم أمام إحدى النوافذ في صمت تام وهدوء رهيب.

تقدم تقي قائلًا في توتر يقرؤه السلام.

لينتبه إليه الخليفة متداركًا ما حوله كأنه كان غائبًا في شرود طويل لا يليق بأحد قد أذن بالدخول للتو.

الرشيد بن يزيد الحاكم، الخليفة ذو الثلاثة وخمسين عامًا، وإن كانت هيئته الجسدية لا توحي بذلك العمر، جسد فتيٌّ قوي عريض وجذع منتصب، شعر قصير تلون أغلبه بالسواد وإن تخلله بعض المشيب، ذراعان قويان وملامح صلبة، كلها صفات لا تفصح عن عمره الحقيقي، لكنها عيناه، عيناه الحادتين كرمح عتيق صقلت شفرته حديثًا تفصح عن عمر مديد وأيام كثيرة، لا يضاهيها كثرة إلا قدر ما تخفي، عينان كأنهما تنظران منذ الأزل.

وصوت خذول منكسر، ذو نبرة مميزة ووقع عجيب، كأنه ساحر يلقي بعزائمه أو كاهن مسن يتلو أشد تراتيله حزنًا.

قال به: وعليك السلام والرحمة.

ودون أدنى كلمة أخرى جلس تقي مكانه متربعًا أرضًا كعادته، نصب حامل الكتب أمامه ثم أخرج كتابًا فرغت صفحاته الصفراء الباردة عن أية كتابات.

اعتدل في جلسته ثم أراق قلمه بحبر الدواة ووضعه على رأس الصفحة، ارتبك للحظات ثم رفع عينيه في ترقب الخليفة الذي لا يزال ساكنًا كالوثن.

وثن لم يلبث أن خرجت كلماته كأنه لا ينطق بها...

– ما سأخبرك به الآن لا يعلم به أحد على قيد الحياة.

تنبهت مسامع تقي جيدًا. بينما استمر ذلك الصوت يخترق أكوانه مردفًا: ما أنت بصدده الآن حكاية طويلة، أطول من أن تروى بحذافيرها، لذا اكتب ما أملي عليك ولا تبخس منه شيئًا، فإن غادر السر الجسد كان ما كتبت أمرًا يخص العامة فأطلعهم عليه، سيدهم وخادمهم، رجالهم ونسائهم، غنيهم وفقيرهم، دون زيادة أو نقصان، فإن فعلت فقد أديت ما عليك من أمانة ونلت ما لك من أجر. فهلا عاهدتني؟

تقي في حزم: أعاهدك يا مولاي!

ليشخص الخليفة ببصره إلى أعلى قائلًا: اللهم فاشهد.

مرت لحظة عابرة من الصمت، كانت فيما هو مقبل أولى لحظاته فحسب، تبعها تقي سائلًا في هدوء: أي الأسماء تريد لكتابك هذا يا مولاي؟

صمت الرشيد مفكرًا للحظات ثم قال:

أَسمِهِ .. سِرٌّ عظيم.

******

البوح الثاني

مأساة في قصر الحاكم

راح الصمت يلوح في الأرجاء، على الأرائك والطاولات وفي الأركان وفوق العمامات.

حتى أطاح به صوت الرشيد يسرد بلسانه ما دوَّنه تقي بكتابه في أولى الصفحات.

كان الخليفة يزيد الحاكم مولعًا بالصيد، خرج ذات مرة في رحلة طويلة عاد منها متزوجًا من امرأة غريبة كانت تُدعى صِدِّيقة، جعل منها زوجة ثانية له بعد زيجته الأولى من أم مروان. كانت شابة يافعة صغيرة السن فاتنة الجمال أسكنها حين عادا في إحدى أكبر غرف القصر، وأقام وليمة عرس خاصة بعد وصوله بأيام حضرها أعيان البلاد وأمراؤها وشيوخ منابرها، كما حضرها الفقراء والعامة. عرس مهيب وليلة خلَّدت ذكراها لأعوام طويلة كإحدى أشد ليالي هذه الأرض لعنة وظلامًا!

كانت ليلة قارصة البرودة تزدحم فيها السماء بالغيوم، إحدى تلك الليالي التي يقولون عنها: ليلة لم يخرج فيها القمر. فبينما كان الجميع يأكلون ويمرحون خرج الجراد من كل موضع داخل القصر ومن كل أخضر في ساحته، وتفجرت أحجار القلعة بديدان سوداء ساخنة كست أجساد الحضور، واهتزت الأرض من تحت أرجاء القلعة حتى زُلزلت، وظن الناس أنها الساعة، وعجَّت القلعة وما حولها بالصراخ والضجيج حتى الصباح.

وما إن انقضت تلك الليلة حتى انتهى كل شيء كأنه لم يكن، لكن أحدًا كان بوسعه نسيان ما حدث. وشاع بين الناس أن زوجة الحاكم ملعونة أصابت بلعناتها بركات الأرض، وما كَثُر القيل والقال قط مثلما كَثُر في هذا الشأن، لكن الخليفة كان يرى أن ما حدث كان محض مصادفة ليس إلا، وأن حديثهم خرافات ساذجة يتخبطون بها في وديان الضلال، وجعل لا يقول أحد بمثل ذاك إلا وعزَّره، ومع هذا استمرت الأقاويل تروح وتغدو سرًا في كل أنحاء البلاد والتآويل بين الناس يعيبها دومًا اختلاط الحق منها بالباطل، والناس في هذا إما مصدق للأمر برمته وإما تارك مكذب له برمته.

حزنت العروس حزنًا شديدًا حتى أعلنت عزلتها واعتكافها غرفتها، وألا يدخلنَّ عليها أحد إلا زوجها ويستأذنها في ذلك قبلها، فوافق الخليفة وقبل قولها وظل الأمر على هذه الحال حتى مرت سنة وضعت فيها الشابة وليدها الأول والابن الثاني للخليفة والذي أسماه (رشيد).

وُلد الفتى مريضًا، كأنه جاء إلى الحياة ليصارع الموت، ولم يمر الكثير حتى بدأت الأقاويل تموج من جديد بين الناس بعد وفاة مولدتيها دون سبب واضح!

وبين هذا وذاك، تربى الفتى في القصر إلى جوار أخيه مروان الذي يكبره بثلاث سنوات وقد تولَّت حضانته أعجمية كانت تدعى (آية الله) وكانت أم مروان وزوجة الحاكم الأولى تعتبره ابنًا ثانيًا لها حتى بلغ الغلام الثالثة من العمر، وبدأ يشعر بأمور غريبة تحدث داخل القصر. أخذ الجميع في الابتعاد عنه

حتى مروان الذي كانت حاضنته تأخذه بعيدًا على الفور ما إن تجده بالقرب منه، حتى حاضنته آية الله، بقي الغلام وحيدًا دون رعاية يخشاه الجميع حين غادرت القصر. لم يكن الصغير ليفهم سبب ذلك، ولم يكن ليطلعه عليه أحد.

ولاحقًا أدرك الصغير السبب الذي اتضح بإفصاح خادمة عن رؤيتها لامرأة عجوز هرمة داخل غرفة والدة الطفل حين كانت غائبة عنها، بينما يفترض أنها تعتكف وحيدة فيها، امرأة لم يرها أحد من قبل تدخل القصر أو تخرج منه ولم يسمع بأمرها أحد في كل القلعة، وبعد ذلك بستة أيام عثر الجنود على جثة الخادمة ترقد فوق بركة من الدماء في أحد أروقة القصر دون حراك ودون أي أثر لطعنة أو علامة لإصابة.

كل هذا رفض الخليفة تصديقه أو حتى الاستماع إليه حتى اختار الجميع الابتعاد والارتعاد في صمت طال الفتى أكثر مما طال غيره.

إلى أن استيقظ ذات يوم على أمر عظيم جلل قد حدث في البلاط اجتمعت له الأعيان وكل خدم ونساء القصر، بعد عثور عدد من الخادمات أخوات الأولى الراحلة على أدوات للسحر داخل الغرفة بعد أن خططوا لاقتحامها ليلًا، من بينها تمائم وعزائم كُتبت عليها أسماء الخادمة، والمرأتان اللتان ولدتاها، وآخرهم كان اسم الخليفة نفسه!

وما كان من الخليفة إلا أن سخط عليهن وأمر بقتلهن مما أثار غضب وتساؤل من كان من الحضور من الأعيان حتى أخذوا ناكرين عليه أمره، ووقوعه في شباك تلك الساحرة بعد أن مارست عليه ألاعيبها وتعاويذها التي جلبت الشرور إلى الأرض، وأمروا بإحضارها ماثلة تحاكم أمام الجميع.

أنكرت المرأة في الحال في بكاء مرير أخذ يبكي له الغلام خوفًا، حتى أمر الخليفة بأخذه خارجًا وإبعاده عن المحاكمة.

ولم يكن قد ابتعد كثيرًا بعد، حتى سمع صراخ الكثيرات يخرج من الداخل، وجميعهن يركضن في كل مكان بعد أن انقَضَّت إحدى الخادمات على زوج الخليفة، وأخذت تنزع عنها خمارها وستارها بينما استمرت الأخيرة بالصراخ والعويل وسط صدمة الجميع الذين أخذوا في إبعادها عنها، إلا إنها كانت قد وصلت إلى غايتها ونزعت عنها قلادة عُلِّقت على صدرها لتتحول تلك الشابة فاتنة الجمال إلى عجوز قبيحة الشكل مُنتنة الرائحة تصرخ بذعر في وجوه الجميع!

ومنذ ذلك الحين لم يسمع الغلام شيئًا عن أمه بعد ذلك حتى كبر وحكى له والده القصة، وأنهم أحرقوها في غرفتها بقلادتها وتمائمها وعزائمها حتى حالت الغرفة بأكملها كأنها قطعة من الجحيم ولم يبق من أثرها شيء إلا تميمة واحدة أُخفيت بذكاء داخل الغرفة، لم تطلها النار ولم تصل إليها الخادمات، تميمة حملت اسمًا لم يخطر ببال أحد أن تحمله تميمة لها، هو مروان بن يزيد الحاكم!

***

تعلقت أنظار تقي بالرشيد الذي فاضت عيناه الغائرتان بالألم، بينما يردف: بقي الحاكم يعاني آثار ما حدث ما بقي له من حياته خيفة وريبة، تبدل حاله حتى لم يعد الخليفة الحاكم الذي عرفه الجميع،

إنما بات شخصًا آخر، شخص في قلق وخيفة دائمين، حتى قيل إن الساحرة قد ذهبت بعقله قبل أن تموت، وإنه سيبقى على هذه الحال حتى أن يلحق بها.

أما الغلام فبقي دون حضانة -وإن كان أبيه قد أسند ولاية أموره إلى زوجته الأولى أم مروان صوريًا- يعاني الكثير من كراهية الناس ورهبتهم، كان يسمعهم بأذنيه ينعتوه بابن الشياطين، دعوه فلا يؤذيكم، إنه ابن الساحرة العجوز التي أظلمت الأرض بقدومها ليلة كاملة وهو روح منها وجزء من شرها ولعنتها. حتى أم مروان كذلك، لم تكن امرأة سوء لكنها أُمٌّ تخشى على ابنها وأهلها من كل سوء قريب محتمل، فقط كان مروان يشاركه اللهو والعطف بين الحين والحين، وإن كان يلاقي جراء ذلك من أمه ما يلاقي.

وذات ليلة أصابت الفتى حمى شديدة أرقدته الفراش، كان بحاجة ماسة إلى الرعاية أكثر مما كان دومًا، لكن حزنه ومرضه كانا جليسيه الوحيدين. أهمل الجميع أمره تاركينه وحيدًا يصارع مرضه، حتى أخوه مروان وصديقه الوحيد حبسته أمه في تلك الليلة صارخة في وجهه إن أخاه قد مات. بدت ليلة بلا نهاية أيقن فيها الجميع أنها آخر ليالي هذا الفتى، مكث وحيدًا بين جدران غرفته يصارع حمى قاسية حتى أشرف على الهلاك وحيدًا على فراشه البارد.

وفي آخر تلك الليلة الطويلة أتاه أبوه استياءً من حالته ظنًا منه أنه وقت وداعه، وقضى معه ما بقي من الليلة يحادثه ويشاركه حزنه وخوفه لأول مرة في حياته. كان حديثه مؤنس وجميل لكن وداعه الطاغي عليه كان في غاية القسوة حتى حين كان يتحجج بانشغاله الدائم عنه وأعباء الخلافة كانت كلماته ثقيلة موحشة كأنها تُعجِّلُ من أجل الفتى.

حكى له كل شيء، عن أرضه وأهلها وأمه ومصيرها، كما حكى له عن أمور الخلافة وكيف هي أعباؤها وأثقالها، عن أخبار الخلفاء السابقين، آبائه وآباء آبائه، والرماديين السابقين من قبلهم، عن دولتهم كيف قامت وكيف تُحكم، عن الحريق وعن أسلم وعن الأعيان الطغاة الذين يحكمون الأرض بين قبضة أيديهم، يهددونه بالتمرد، ومصير الذابح ما لم ينصاع لأمرهم ويحكم بلسانهم ويتَّبع هواهم.

ليلتها أقسم الطفل إنه إن عاش فسيكتب بيديه نهاية كل هذا العناء وسيجعل من نفسه نهاية كل سوء.

مضت تلك الليلة الطويلة واستيقظ الخليفة على فراش الصبي ليجده أمامه جالسًا في ذعر، معافى قد شُفيَ كأنما ولد من جديد!

نجاة لم يتوقعها أحد، بقي الناس يتناقلون خبرها لأيام.

بعدها بسنوات وضعت أم مروان أخًا جديدًا وابنًا ثالثًا للخليفة أسموه (نافع)، لكن ولادته كانت عصيبة، أبقت أمه طريحة الفراش لأسابيع حتى وافتها المنية، ومرت سنوات كبر فيها الأبناء الثلاثة. نافع عديم النفع الذي نشأ على تبديد الأموال ومعاقرة الخمر والصبوة إلى النساء ولا يعرف شيئًا غير ذلك، ومروان الذي بوفاة أمه زال المانع الذي يمنعه عني وأكملنا ما بقي من نشأتنا معًا، لكنه كان الأقرب إلى والدي دومًا.

كان التفات الرشيد إلى أسلوب المتكلم جديرًا بنظرة خاطفة من تقي إليه ألقاها سريعة ليراه شاردًا قد بلغ شروده أن فقد ترتيب الكلمات في رأسه وبدأ أخيرًا يتحدث على سجيته.

غمس القلم في الدواة مجددًا حبَّره على عجل ثم أسرع يرسم كلماته: كان والدي يستشيره في كل شيء وإن كان يستمع لرأيي في بعض الأحيان ولكن دون اكتراث أو اهتمام كما كان الحال مع مروان، لكن على كلٍ لم يكن ليشكل هذا فارقًا، ففي الأغلب كان قرار الأعيان ما ينفذ في النهاية، وإن تعارض مع قول الخليفة وقول مروان وقول الناس كافة.

وعلى مدار تلك السنوات نجحت في التقرب من الناس حتى اكتسبت بعضًا من مودتهم بصعوبة بالغة.

لم أكن أبغضهم لكني لم أكن أحبهم كذلك، هكذا كان حالي مع الجميع، عداهم مروان، كان أخي وجليسي الوحيد، لا أزال بعد كل تلك السنوات أذكر وجهه بحذافيره، عيناه لا تُنسى أبدًا، حادتان كأنما تغرب فيهما الشمس، خصلات شعره الأسود الثقيلة كالسيف تتدلى على وجهه كأنها لطخ الحبر، كان أكثر الصمت هادئًا، ذلك الهدوء الغريب للروح اليابسة، كان الأقرب لي دائمًا، حتى حدث ما حدث!

كنت في الخامسة والعشرين من عمري ولم أتزوج أو إخوتي بعد، كان الحاكم من شدة خوفه على نفسه يخشى علينا الزواج ظنًا منه أن وراءه مكيدة تحاك حياله دومًا، وفي إحدى الليالي اجتمع والدي بالأعيان دوننا بناءً على أمر منهم، وبعد انقضاء مجلسهم ورحيلهم عن القلعة، دعانا أبي ثلاثتنا في جوف الليل لملاقاة عاجلة في مجلسه، وحين وصلت وكنت أولهم وصولًا وجدته يجلس على كرسي الخلافة ويداه ترتجفان من فرط القلق وسيل من الغضب يفيض من عينيه.

***

وصل نافع ومروان وبدأ الحديث أخيرًا، والعرق يتسمَّر على جبين الخليفة ووجنتيه وقد تحول غضبه العارم إلى خوف ووجس.

- ما أخركما؟

قالها والخوف قد أكل من كلماته.

ليقبل عليه مروان في قلق: ما هنالك يا أبت؟

ليجيبه بينما يروح ويغدو في توتر بالغ: الأعيان! لقد بدت البغضاء في أفواههم. يهددون بعزلي وبَنيَّ من الخلافة، أولئك الأوغاد، إنهم لا يحفظون عهد ولا ينفذون وعد.

ثم أردف متحدثًا في عجلة وتخبط يقبض على يده ورسغيه وكأن جنونًا قد أصابه: إنهم لا يمررون حكمًا لي أو قرارًا إلا بعد أن يوافقوا عليه أولًا، وارتأوا فيه مصلحة لهم أو دفعًا لمضار قد يصيبهم، يزاحمونني في حكمي حتى فاض كيلي بهذا، والآن يريدون للحكم أن يكون في بيت معاوية من أبناء عمومتكم وذلك والله مسعاه! وقد وافقهم على هذا سائر الرماديين.

مروان -آخذ به-: على رسلك يا أبتِ، والله ما نازعنا فيها أحد إلا أخذناها منه.

- فما نفعل وقد اجتمعوا علينا اجتماع الأغنام على عين المياه؟

تسلل القلق إلى نافع، كذلك الواقف على مقربة منهم شاردًا في خوف.

بينما قام الرشيد عن مجلسه في هدوء وقال: لا تنفض الأعيان عن مزاحمتنا الحكم من عهد أسلم، وكذلك كان الحال مع الذابح ومن قبله، والجيش ذو القائدين مصيره مر الهزيمة في يسير المعارك، والسفينة ذات الشراعين المتقابلين مثواها دون الوصول، وحتفها غرق محتوم في البحر الراكد!

صمت لبرهة اختلس فيها النظر إلى الجميع ثم قال: وأمَّا ما كان منهم فمردود عليهم وما عليهم فمأخوذين به، وإني لعمري لأراها رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وحري بنا الآن أن يكون الحكم لنا خالصًا زاهيًا لا يزاحمنا فيه أحد!

ارتجفت آذان تقي سامعًا إياها من فِيه الرشيد كما ارتجفت أصابعه بينما يخط بها في كتابه: «ادعُ الأعيان كافة ومعهم سائر الرماديين إلى وليمة عظيمة حتى إذا أكلوا وشربوا وأخذتهم الثمالة والتخمة، فكلمتهم في السابقين كانت النار، وما قولنا فيهم بأكثر مما قالوا!».

***

الرشيد: كان وجود الرماديين معهم طُعمًا يأمن به الأعيان فيقبلون الدعوة ويقولون لن يصيب الحاكم أهله بالسوء، لكن ما عدانا من الرماديين ما كانوا إلا ليعارضونا في فعلتنا ويقاسمونا غنمها ويزاحمونا فيه، والتضحية بالقطيع كله أيسر من انتقاء بعضه، لذلك أزادهم الحاكم في المصير نفسه ورأى أن يأخذ كلًا بذنب كل.

تنهد عميقًا ثم أردف بينما يطالع البوابة الحمراء المغلقة والخالية من الحرس من خلال النافذة: ليلتها أكل الجميع وشرب حتى امتلأت بطونهم وغابت عقولهم، ثم توجهوا للخروج من القلعة في مسير عظيم اقتادهم فيه الجند نحو البوابة الحمراء. من تلك البوابة يمر الطريق بممر صخري منحدر إلى الأسفل يحدوه من جانبيه جداران صخريان شاهقا الارتفاع، فلو أن طريق الدخول والخروج من القلعة انغلق على أحدهم فلا خيار له سوى الموت جوعًا، أو يكون القدر رحيمًا ويجعل هذا الموت سريعًا بطريقة ما، حتى وإن كان مؤلمًا وقاسيًا كما كان مع الأعيان وسائر الرماديين، الذين ما إن دخلوا إلى الممر ومعهم نفر من الجند حتى أوصدت الأبواب كافة، ومن فوقهم تهيأت الجنود على الجدارين بصناديق امتلأت بالزيت المشتعل الذي سيغمر كل الممر عن بكرة أبيه.

كنا وأبي وإخوتي نقف على سور القلعة من مكان بعيد نراقب مسير موكبهم عظيم العدد المترنح من السكر نحو بوابة الخروج، لا يحيط بهم علمًا أنها قد أُغلقت عليهم من الخارج وأوصدت بالحديد والنار، وأنهم وصلوا لتوهم أرض محشرهم الأولى!

مرت اللحظات حادة ثقيلة حتى هبطت الصناديق عليهم من كل مكان وتراشقت فيهم وفيها السهام المشتعلات تتماطر عليهم من كل حدب وصوب حتى فزعت خيولهم وعلا صهيلها، سقطوا عن جيادهم وراحوا يصرخون في رعب يدبون الجدران بكفوفهم الدامية وأذرعهم المحترقة، بينما يتساقطون واحدًا تلو الآخر إما محترقًا بالنيران أو متراشَقًا بالسهم المسمم تارة والمشتعل أخرى وكل من تأخرت ميتته

أكثر زاد رعبه، وتعاظمت فجعته. يدبون الأرض بأقدامهم ويملؤون السماء بصرخات محترقة وصيحات طويلة يائسة.

رأينا كل هذا بأعيننا بينما كنا نعتلي السور نراقبهم، يرتجف أبي قلقًا من شدة الخوف، الخوف من الفشل في القضاء عليهم فقد فات أوان العود، ولو أن واحدًا منهم قد نجا لباتت حربًا تُبيد ولا تذر.

وقف ممسكًا بالسور في وجس بينما حدق مروان إلى النيران المتصاعد لهيبها، المتوهج بين جدران الممر وقد انعكس ضياؤها في عينيه، تلك العينان الثقيلتان التي اطلع عليَّ بهما والقلق والصدمة يفتكان بهما لكنه بخلاف أبي كان خائفًا مني أنا. خوف لا مثيل له تمكنتُ من رؤيته في عينيه اللتين كانتا كأني أراهما لأول مرة، حدقت ساكنًا وأصوات الموت وصراخه المرعب يخترقان أذنيَّ، أصابتني عينا مروان الذاعرة بانعكاس اللهيب فيهما بالقلق حتى لم أُطل وقوفًا وانسحبتُ مديرًا ظهري الذي اشتد لهيب النار من خلفه يبعث عليه بالحر واللهب مع آخر صناديق الزيت وأكثرهم امتلاءً حتى طال لسانها بالغًا عنان السماء مضيئًا ظلامها، لينكشف عليه رعب الوجوه كافة.

سِرتُ بخطوات مضطربة وعينين يسكنهما القلق.

كل شيء على وشك أن يتغير، فقط في الساعات القليلة المقبلة، سوف يكشف العالم عن وجه جديد، وجه لن تفارقه النيران التي أشعلناها فتحرقنا بدورها والأبواب التي أغلقناها فاختنقنا بها، والقادم لم يكن سوى أسوأ وأشد تنكيلًا، حصاد نيران لم تذر إلا رمادًا تحمله ريح فيها عذاب أليم.

أدرك الرشيد التعب فسكت عن الكلام، أغمض عينيه ودلَّى برأسه على صدره بينما أخذ تقي شرودًا معيدًا قلمه إلى الدواة، آخذًا نفسًا عميقًا هادئًا ويائسًا، عاد به الصمت إلى المكان.

صمت ثقيل طويل حتى يجف الحبر.

******

كان جوفًا بعيدًا من الليل، الساعات تمر ثقيلة باردة والليل كأنه لن ينقضي. جلس الحاكم على كرسيه شاردًا في أرض قاعة المجلس التي خلت من أي حياة سواه، حتى انفتح باب القاعة ودلف منه الرشيد لينهض فورًا وقد اقتحمت وجهه ابتسامة واسعة.

استقبل الخليفة الرشيد وقد فتح ذراعيه عن آخرهما، قهقة عالية ما إن وصل إليه ثم أطبق يربط على عضديه قائلًا: بنيَّ البار، نعم الابن أنت، رشيد كما سماك أبوك.

رد الرشيد على كلمات أبيه في حديث نفسه مكتفيًا في العلن بابتسامة باهتة.

***

كان ذلك بعد عشرين يومًا من الحادثة خرج فيهم إلى رحلة صيد، هكذا رأى أن يفعل حتى تهدأ سيرة ما حدث بين الناس وما لا يزالون حتى يومنا هذا يظنوه حادثًا عارضًا بعد أن أخبرهم بذلك وأقنعهم وجود الرماديين وبعض الجنود في الممر الذي اشتعلت فيه النار، ما رفع بعضًا من وقع الخبر على مسامع

الناس، كما كانت الضرائب الجديدة سببًا في أن نسي الناس ما حدث بسرعة، فحين تزداد الضرائب قرابة الضعف من سيأبه بمن مات محترقًا وبمن مات مسمومًا ومن أودى بحياة نفسه؟

عشرون يومًا هجرت فيها نساء الأعيان ومعهم أطفالهم العاصمة بإرادتهم الخالصة، دون تدخل من أحد كهدية منحنا إياها القدر، هجروا هذه الأرض كما فعل الكثيرون قبلهم منذ بدأ حكم الرماديين وترعرعت في أرضنا البغضاء والناس تهجر هذه العاصمة عامًا بعد عام وكارثة تلو أخرى.

وما إن عاد حتى طلب رؤيتي على الفور، حينها قلت في نفسي حتمًا قد أعد لي مكافأة عظيمة. ويا لعظمة ما أعد!

***

اتسعت عينا الخليفة الحاكم قائلًا وهو لا يزال ممسكًا بعضدي الرشيد: هاه، حري بك أن تكافأ.

ابتهجت أسارير الرشيد كالغلام وقد حدق إلى عيني الخليفة قائلًا: أي مكافأة يا أبت؟

سأله متأملًا الكلفة الغائرة في عينيه، كأنه يحاول إخفاء شيء ما.

حتى أجاب متبسمًا: عليك بغرفتك فإنها في انتظارك هناك.

لتتسع ابتسامة رشيد مبادلًا إياها الخليفة في وقع حقيقي هذه المرة.

ابتسامة اقتحم بها غرفته تعلو وجهه الذي بدا فريدًا بها كأنها ترتسم عليه لأول مرة في حياته.

آلاف التآويل تُقبل على عقله وتدبر في تتابع.. ماذا تراه يكون قد أعد؟

دخل ليجد الغرفة هادئة تمامًا على الأقل أكثر مما كان يظن، لا يوجد فيها أحد. نظر حوله هنا وهناك بحثًا عن أي شيء دون المعتاد لكنه لم يجد، كل شيء على حال ما تركه عليه.

تساءل في جوفه: أي أنواع المزاح هذا؟

ثم فجأة دخل الخليفة الغرفة متجهم الوجه يجر من خلفه مروان ونافع وجنديين ورجلًا آخر غريب.

هرول الرشيد وقد استقبل الجمع المقبل بصدر مرتبك قائلًا: أين هي المكافأة يا أبت؟

لكن أحدًا لم يجبه، فقط انتقل الجنديان ليقفا خلفه.

قطَّب حاجبيه حتى اشتدا وازدحمت الكلمات على لسانه متقطعة: أبـــي.. ما.. ماذا يحدث؟

كلمات قطعها الجنديان في حلقه وقد أمسكا بذراعيه محكمين قبضتهما عليهما، ليستشيط الرشيد غضبًا يصيح: ما الذي يحدث هنا؟

تقدم الخليفة خطوة نحو الرشيد في صمت تأمله الرشيد للحظة واحدة في ذعر قبل أن يرفع الحاكم يمناه عاليًا فجأة يلتمع فيها خنجره قبل أن يهوي به بكل قوة طاعنًا بها عضده دون كلمة واحدة!

استهل الرشيد صدمته بالألم قبل أن يهوي به، ليتركه الجنديان يتراجع دُبرًا هاويًا على الأرض وقد احتبست أنفاسه في صدره من فرط الصدمة! محدقًا، حتى كادت منها تخرج عيناه من تجاويفهما.

ثم ارتمى أرضًا على جانبه يتلوى بفاجعته الصادمة.

تقدم الحاكم متصلبًا وقال في بغض: هذا درس لك كي تتذكره دومًا كلما حدثتك نفسك بسوء تجاه أي منا! كي تتذكر أنك لست سوى ابنًا لعاهرة بغيضة فلا تطمعنَّ في شيء.. وإلا كان لك مثل حتف أمك!

انهار كل شيء أمام الرشيد في هذه اللحظة، جدران غرفته كأنها تغلي من حوله يتلوى على الأرض محاولًا الابتعاد عن أبيه ذي الخنجر تتساقط عنه دماؤه في يده.

بينما أردف الخليفة: كلما فكرت في تدبير مكيدة أو التخطيط لمؤامرة تذكر ذلك الألم الذي تشعر به الآن، وتذكر أن هذه المرة مجرد طعنة واحدة لن تخلو من السمِّ في كل مرة!

ركل بقدمه عضده المجروح بلا رحمة صائحًا: هل تفهمنَّ ما آمرك به أيها اللقيط؟ والله الذي لا إله إلا هو لولا أني أخشى أن يقول الناس أن الخليفة قد قتل ابنه لألقيت بك من سور القلعة وتخلصت منك!

ما تظن نفسك ملاقيًا مني وقد رأيت مكرك وشرِّك؟ تريد ولاية العهد؟ فتريق بها دمي؟ أم تريد إمارة لك فتتمردنَّ بها عليَّ أو تمارسنَّ فيها لعنات أمك لعنك الله ولعنها!

صمت لبرهة التقط فيها أنفاسه ثم استطرد: والله ما دمت حيًا لأجعلنَّ منك ذليل النفس والمقام.

صبيحة غدٍ سيعلم الجميع من اخترته ليخلفني في عهدي ويحكم أرضي بعد مماتي، أخوك مروان ثم نافع من بعده يليه.

ثم ركله في مضجعه صائحًا: دونك يا ابن العاهرة!

بينما يقف مروان أمام ما يحدث عاجزًا يترنح بين أرجاء الشفقة والخوف والقلق بينما يأخذ الخليفة أنفاسًا غائبة ثم يعاود القول: بعد لحظات سوف تأتيك جارية قد وهبتك إياها، جارية وضيعة مثلك، لا أريدها ولا أريدك، خذها واذهب بها بعيدًا عن أرضي، ارحلا قبل بزوغ الشمس وإلا كانت شمسكما الأخيرة!

قالها ثم تولى منصرفًا يتدارك أنفاسه ومن خلفه تبعه نافع بينما وقف مروان مشفقًا للحظات، تردد في الاقتراب منه، لكنه آثر اللحاق بأبيه ومن خلفه تبعه الجنديان راحلًا بينما بقي الغريب يباشر عمله في إسعاف جرح الرشيد فلا يقتله.

وفي الرواق هرول مروان لاحقًا بالخليفة قائلًا: ألم تقسُ عليه يا أبت؟

ليجيبه الخليفة زافرًا في إرهاق: كان لا بد من هذا يا بني، كي لا يَطُول مكره أيًّا منا؛ فنأمن بذلك شره ولعنته، اعلما يا بَنيّ أني لم أفعل ما فعلت إلا لأجلي وأجلكما وأجل هذه الأرض، وإلا..

رمق الغرفة من خلفه ثم تابع في رجف: كانت نهايتنا على يديه.

أعاد النظر إليهما وأردف في اقتضاب: أجمعين!

ثم انصرف.

بينما على أرض الغرفة القاسية اجتمعت الدمعات في عينين منكسرتين لجسد راقد على جانبه حتى غرغرت بهما، والصدمة العظيمة لا تزال تعتلي وجهه ترتجف لها عيناه، حتى للحظة كان الجنون على مقربة يلوح عند كل جدار.

تأوهات باكية بقيت حبيسة صدره، لكن صوتها تسلل خارجه، أيًّا كان مبغى الخليفة مما فعل فقد بلغه وأدركه وأدركته مساعيه.

وفي لحظة ارتجف جسد الرشيد كله بشدة قبل أن يشتعل جاهشًا بالبكاء.

***

قال الرشيد في انكسار بات يعتاده تقي: حينها تمنيت لو أني أمسك بذات الخنجر وأطعن به نفسي حتى آخر دماء لي، وأدركت أن ما انقضى بحريق الأعيان ليس إلا إحدى الآفتين، ولا بد من التخلص من الأخرى!

مرت ساعات تلك الليلة ثقيلة باردة، ضمد الحكيم جرحي وأمرني أن ألزم الفراش حتى موعد رحيلي. كان الفراش قاسيًا تلك الليلة، رقدت وحيدًا شاردًا في قمر السماء أطالعه عبر النافذة بينما استلقيت على ظهري والدموع تنهمر على وجنتي ساخنة تدفئ بعضًا من برودتي. بقيت لساعات أبكي كالغلام الصغير، ذات الغلام الذي لطالما بكى وحيدًا في ظلمات الليل.

كنت أظن أن السنوات التي مضت قد غيرت الكثير، لكنها لم تفعل من ذلك شيئًا، وها قد عادت الأمور أدراجها وعاد كل شيء إلى سابق عهده، فقط هذه المرة أكثر قسوة.

حتى خُيِّلَ لي لوهلة أن ليلة الحمى كانت البارحة ليس قبل أعوام طويلة وأيقنت أن تلك هي نهاية كل شيء، وسوف أهجر هذه الأرض كما يفعل كل من يغضب منها، سأهاجر بعيدًا بلا عودة وأسكن إحدى القرى الطيبة، أخيرًا سأستريح منها وتستريح وأهلها مني، تلك الغرفة الباردة باتت تخيفني، وتلك القلعة لم تعد جدرانها تجود بالدفء.

قلت الكثير في نفسي حتى تملَّكني التعب وهوت عيناي، ثم خُيل إليَّ أنني وقعت في شباك نوم عميق..

فتحتُ عينيَّ لا أدري كم من الوقت قد مر، سمعت أول ما سمعت صوت البلابل ينادي أذان الفجر أن الصلاة خير من النوم، ورأيتُ أول ما رأيتُ عينين واسعتين كحيلتين في وجه هادئ، عليه وشاح أسود قد تدلى على رداء داكن وغترة عظيمة، جلست على أريكة بعيدة تتحاشى النظر إليَّ.

أغمضت عيني وفتحتهما مجددًا، وكانت لا تزال أمامي، ظننت أنها تتلاشى، توقعت أنها خيالات حلم.

قمت عن رقودي ناصبًا ظهري محدقًا..

المؤذن يقول: الله أكبر.. الله أكبر..

اتسعت عيناها ما إن رفعتها عن الأرض لتلاقي بها عينيَّ.

- لا إله إلا الله.

ثم كأن الليلة قد انقضت فجأة.

- من أنتِ؟

- ليس لدي خيار. إما موت معك أو خروج معك، فانظر ما تقضي فينا.

***

تعجبت من إجابتها وتجهمت لبعض الوقت حتى تذكرت حديث أبي عن الجارية الوضيعة، سكتُّ لبرهة ثم سألتها: لماذا؟ ماذا اقترفت؟

فأجابت: سَل في هذا أبيك!

إجابة غريبة أخرى.. غريبة بقدر حسنها.

تساءلتُ حينها، لماذا قد يسب أبي جارية بهذا الحسن ويصفها بالوضيعة؟ ويتخلى عنها؟ هل فقد عقله؟ أم أنه لم يرها؟ حتمًا هو لم يرها.

سألتُها عن نفسها: ما اسمك؟

قالت: مليكة.

فقلت: مليكة اسمًا لجارية؟

فقالت على مضض: تطيل الحديث وقد بزغ الفجر ولم يبقَ على شروق الشمس إلا القليل، حتمًا لا تريدها أن تكون شمسنا الأخيرة.

مهلًا، إنها كلمات الحاكم، هل رآها إذًا؟ أم بعث إليها برسول؟

كانت على حق، الوقت لا يسع الحديث، قمت عن فراشي أحزم من المتاع ما بلغته قوتي حتى إذا فرغت اتشحت بوشاح أسود تعلقت به أنظار مليكة في تساؤل.

فقلت: لا أريد أن يراني أحد.

حملنا المتاع وأخذنا أدراج الرحيل، خرجنا من القصر لنجد نفر من الجند ينتظران بزوج من الجياد منحانا إياها، أخذنا بلجامها ثم اتجهنا صوب بوابة القلعة، وقبل أن أصل إليها التفت مطالعًا القصر، لم تتسنَ لي فرصة وداع أي شيء، نظرت إلى نافذة غرفتي، كانت مضيئة لا تزال، وكذلك نافذة غرفة أبي كانت مضيئة، لا أعلم إن كان لا يزال متيقظًا أم لا، فقد اعتاد النوم على أضواء المشاعل من قلقه الدائم، ثم نافذة أخي مروان لأجده يقف فيها مراقبًا خروجي، نظرت إليه في ملامح جامدة ساكنة، بدا حزينًا غير راض، أردت أن ألوح له بيدي لآخر مرة كما كنت أفعل دومًا في صبانا، في كل مرة كان يخرج فيها من القلعة مع أبينا والجنود وأقف أطالعه من نافذة غرفتي لكني لم أفعل، شيء ما قد منعني عن هذا، شيء خُيِّل إلي أنه هو السبب فيه.

انطلقت نحو البوابة التي فتحت فاها معلنة بداية رحلتي، رحلة لا أعلم لطريقها وجهة سوى أنها في أي اتجاه يبتعد عن القصر، ولا أرضًا تنتهي إليها سوى أنها بعيدة للغاية.

اللجام في الأيدي بالغ القسوة كأنه سيل من الأحجار، والطريق حولنا خاوٍ يبتعد فيه كل شيء في تخاذل غير عازم على العود.

***

تقدم من خلف مروان الواقف يراقب خروج رشيد من النافذة نافع ممسكًا بكأس الخمر بين أصابعه يقول: هل تظنه سيعود؟

ليومئ مروان نفيًا في أسى، ثم يأخذ نفسًا عميقًا ويقول مبررًا: تلك الجارية..

قالها ثم دلف عائدًا إلى الداخل في حنق تاركًا نافع يراقب بدلًا عنه في صمت يهمس خفية بما قال متسائلًا: الجارية؟

***

حين انتهت أسوار القلعة المديدة وكنا نسير في وسط المدينة نمتطي جيادنا في هدوء بينما الصبح على أبوابها والشمس تشق بنورها الأفق البعيد ظننت أنها نهاية عهدي بهذه الأرض، وأن تلك الشمس الوليدة هي ميلاد لعهد جديد، لكن ما ظننته هدوءَ النهاية لم يكن سوى هدوءًا يسبق عاصفة عظيمة، وتلك الشمس التي ظننتها ميلاد عهد جديد لم تكن سوى باب جديد لجحيم قد بدأ للتو، وأن ما مضى لم تكن سوى نسائم أتت بها الريح في يوم عاصف، وما تأتي به الريح تذهب به الأعاصير!

***

أسفل حرارة شمس عالية وعلى قمة تل قريب كان أحدهم يقف رامقًا مسير الجوادين على ظهرهما رشيد ومليكة بين رحاب صحراء واسعة حاجبًا عنه الشمس بيد أخفت وجهه عنها، بينما يتكئ بالأخرى على عصا خشبية متواضعة.

قطَّب حاجبيه ما إن أدركهما، ليلاشي يده فيظهر كهل أشعث الشعر الأبيض طويله، طيب الملمح حسن الوجه، كأنه شمس أخرى أكثر هدوءًا تنبعث من بين التلال.

هرول مسرعًا هابطًا من أعلى التل وعابرًا العديد من التلال حتى وصل إلى باب هزيل، أسرع يدقه على عجل، لينفتح له الباب على الفور كأنما كان بانتظاره، دلف إلى الداخل ليجد عددًا من الشيوخ في مثل عمره ومثل هيئته جالسين في انتظاره.

قال يجاهد أنفاس عجوز: لقد خرج!

ليسأله أحدهم: هل معه الجارية؟

ليجيبه: أجل.. لقد رأيتها.

ليخيم بعض من الصمت قبل أن يقطعه أحدهم قائلًا: لطالما خشينا ذلك اليوم!

الشيخ وقد بلغه التوتر: هل تظنون أن على الجميع أن يعلم الآن؟

ليجيبه آخر: كلا، لم يأن الأوان بعد، ليس قبل أن يعود ويكون عليهم الخليفة، وليس ذلك ببعيد.

ليقول ثالث: أخشى ألا يصدقنا الناس أو يؤازرونا!

- الآن على الرشيد فقط أن يصدق ..

صمت لبرهة ثم قال: عاصفته والجارية على وشك الهبوب.

ثم رامقًا الباقين من حوله: من منا سيخبره؟

طرح سؤاله ليتبادل الجميع النظرات في انتظار إجابة أحدهم لكن أحدًا لم يجب حتى ساد المكان صمت مهيب.

ليكرر: من يسبقه إلى الواحة؟

❋❋❋❋

البوح الثالث

الإعصار

فرغ اليمامي من صلاته في المسجد، وما إن ترك سلامه حتى أمسك بيد شاب كان إلى جواره وقال: بني، من أمَّ المصلين اليوم؟ لا إخاله صوت الخليفة الرشيد!

ليجيبه الشاب: لا يا شيخي شمس الدين، إنما هو عبد الله ذو الفقار من وزراء الخليفة.

أطبق اليمامي ملامح وجهه مقطبًا حاجبيه قائلًا: أوتخلف الخليفة عن جماعة العصر كذلك؟

الشاب: أجل، كما كان الحال في جماعة الظهر.

تعجب اليمامي في نفسه قائلًا: لم يتخلف الرشيد عن إمامة المسلمين منذ سنوات، حتى أشد المرض ما كان ليمنعه عن ذلك، لا بد وأن عظيمًا قد وقع.

أمسك بيد الشاب من جديد سائلًا: أفترى كاتبه إذًا، تقي الدين الخازندار؟

بحث الشاب بين صفوف المصلين قبل أن يجيب: كلا، هو لم يأت كذلك؟!

ليغزو بها الريبة على وجه اليمامي وقد أوقع في نفسه بالواقعة.

***

قام الرشيد عن ركوعه يستقيم ظهره ببطء ويتبعه في ذلك تقي الواقف عن يمينه.

ثم خارت ركبتاه وانحنى ظهره كأنما يتهدم شيئًا فشيئًا وقد خرَّ ساجدًا.

كما سقطت سالفًا رأسه منكبة تعانق رمال الصحراء ويغشاها من فوقها وشاحه الكتاني الداكن يخرج من تحته شعره الأسود فارًا من القلنسوة، وقد اختلطت الرمال الملتهبة بقطرات دموعه الساخنة المنهمرة من عينيه.

قام من سجوده وهواء الصحراء المشتعل يصفع وجهه الجاف الذابل وعيناه الباكيتان الحمراوان كأنهما تدميان.

ألقى السلام عن يمينه ويساره ثم رفع يديه نحو السماء متوجهًا بالدعاء بينما يشتد به البكاء.

شاكيًا الهوان على الناس، ذلك الهوان الذي ما من نبي قط إلا واستعاذ بالله منه.

بينما على بعد منه جلست مليكة على صخرة قريبة كانت تؤدي عليها صلاتها وتسابيحها حتى اشتعل البكاء بالرشيد.

قامت مليكة عن مجلسها وتقربت منه وقد تعلقت به أنظارها.

قالت إليه: هلا عفوت عن نفسك عفا الله عنا وعنك!

فيجيبها الرشيد محاولًا إخفاء مدامعه بصوت كان أقسى من صخور الفيء من حولهم: أفلا يسوؤني هجران أرضي وقسوة أهلي وهواني على الناس؟

لتخبره: لا، أما الأرض فشقيٌّ من فيها شقاء من هاجرها ولا أراها إلا وقد كُتب عليها الهجر دون الوصال، وأما الأهل فبئس الأهل هم، وأما الناس فما بغضتهم حتى بغضوك، إنما كنت عليهم كيعقوب على يوسف وكانوا عليك كإخوته، حتى ألقوا بك في غياهب التيه، وأولئك والله شر الناس، ليس في فراقهم نصب ولا وصب، إنما العزة والرفعة، كما بات يوسف بعد الجب عزيزًا على أرض مصر، خير عزيز على خير أرض، وعاد إليه بإخوته سنينَ عجاف يسألونه عونًا في ضر قد مسهم وأهلهم وأراضيهم.

– وكيف مسيرنا وعزمنا؟ ولا نعلم لرحلتنا وجهة أو أرض تنتهي إليها؟

– إن مصيرًا لا نعلمه لخير من خبيث نعلمه، وإن الله لمعنا، نسير حتى نألف أرضًا طيبة نأنس بأهلها ويأنس أهلها بنا، نكون فيهم خير من نزل، ويكونون لنا خير من سكن، فهلَّا كففت ومضينا؟

ذهبت كلماتها ببعض حزنه حتى قام عن مكانه ثم تبعها متجهين نحو الجياد.

خلع الرشيد قربة المياه عن جواده وأخذ يرتوي منها بعد عطش بينما وقفت مليكة تداعب جوادها في شرود.

– أعرف فقدان الأهل!

توقف الرشيد فجأة منتبهًا لحديث مليكة المباغت بينما راحت تردف شاردة بالأرض كأنها لا تعي بوجوده أو لا تكترث له: حين تذهب حياتك أدراج الرياح وتعلم أنها لن تعود لسابق عهدها أبدًا، ويكون عليك مجاراة حالك الجديد بمفردك وتدبير أمورك بنفسك، لا عونَ من أحد أو رأي أو مشورة، عليك أن تكون امرأً جديدًا كحياتك، لا ينظر كيف أمس أو حاله فيه، فأمس قد ذهب وذهب ما فيه.

لم يكن ليرى وجهها، ولم يكن ليحتاج ذلك حتى يدرك أنه تلطخ بالدموع في هذه اللحظة.

– أوتعلم؟ ربما كلانا متشابهان، كلانا فقدنا أهلينا وإن اختلفت صورة ذلك، كلانا أُكرهنا على هجر أرضنا.

ثم متبدلًا صوتها كأنها لم تكن تبكي: كلانا بدَّل حياتنا الرجل نفسه!

حدق الرشيد متعجبًا!

بينما تقول: أظنها المشيئة المقدر أن تسير وفقها الأمور فحسب.

وعلى عجبه قطب حاجبيه وسكت. سكتت مليكة وسكتت الصحراء من حولهما.

***

تعلقت أنظار تقي بالرشيد وقد عاد إلى كرسيه من جديد يستمع إلى حديثه: حينها ساورتني العديد من التساؤلات، انتظرت أن تجيب عنها، لكنها لم تزد، ولم أستزدها، فالرحلة لا تزال في مستهلها، والوقت يكفي للكثير من الأحاديث.. أو هكذا كنت قد ظننت!

تابعنا المسير تسبر هي أغوار شرودها الطويل بينما أتأرجح أنا بين التساؤلات في رأسي، حتى غربت الشمس وحل الليل فأمسكنا، ونصبنا الخيمة نبيت حيث كنا، أمضينا الليلة دون حديث وحين أدركنا الصباح تابعنا التقدم من جديد، كان لا بد لنا من الحديث وتحديد وجهتنا، وأظنها كانت ترى كذلك أيضًا، لكِنّا كنا نؤجل أمرنا هذا كما نؤجل كل شيء.

سرنا أيامًا دون وجهة تتخبط بنا الأودية وتترنح بنا التلال، نجتاز قرية ونعبر أخرى حتى كان يدركنا التعب فنقيم في أقرب وادٍ؛ نستجمع قوانا حتى نصل إلى أقرب الأمصار، ونبتاع منه ما يكفينا من الزاد والحمل ما نبلغ به المصر الذي يليه، بعنا جيادنا وابتعنا بثمنها إبلين يتحملان مشقة السفر وعناء رحلتنا الطويلة، أخذنا نهيم بهما في الأرض لا نعلم إلى أين نتجه سوى أننا نبتعد عن العاصمة.

طريقنا بدا بلا نهاية وقوانا أخذت تضعف شيئًا فشيئًا لكن مليكة كانت بقوة الجبال، لا يضاهيها مشقة سفر أو ضيق مقام، كانت تسبقني دومًا، وكان ذلك كثيرًا ما يزعجها، أمكنني الشعور بذلك حين كنت أراها تلتفت إلى ناظرة بين الحين والآخر، لا أعلم إن كان ضعفًا مني أم قوة في إبلها لكنه ما كان هذا أو ذاك.

كانت الرؤية مشوشة حين رأيتها تترجل عن ركوبها راكضة باتجاهي بينما يجتاح جسدي ألم السقوط من أعلى الإبل، وجرحي في عضدي كأن جيشًا من النمل الأحمر انطلق إليه وراح يلتهمه في نهمٍ جم، ألم شديد لا يحتمل وأصوات مبهمة تتداخل في أذني اليمنى بينما رمال ساخنة تسد مسامع الأخرى وأشعة الشمس من خلف وجه مليكة المذعور تحجب عن رؤياي وجهها وتدريجيًّا بدأت تحجب كل شيء آخر، حتى أظلمت كل الصحراء فجأة كأنها قد تلاشت.

***

لست أعلم كم مضى من الوقت بعدها حتى عدت إلى رشدي، لكني حين فعلت وجدتني رقيد الفراش في خيمة يتسلل منها ضوء الشمس على جبهتي ضمادة مبتلة وأخرى جافة دافئة على جرح عضدي وإلى جانبي مليكة ترقد في إرهاق واضعة رأسها بين ذراعيها إلى جواري، علمت أن هذا من صنع مليكة بلا شك.

وأمكنني سماع صوت الناقتين وقد ربطتا في أحد أعمدة الخيمة خارجًا.

أحسست برغبة جامحة في تحريك جسدي الذي أثقله الرقاد كأنه لم يتحرك منذ زمن، حاولت تحريكه ببطء؛ كي لا أوقظ مليكة لكن ألمًا شديدًا غزا جسدي استيقظت له مليكة كأنها قد ألمت به.

رفعت رأسها عن الفراش في فزع تحول إلى فرح ما إن رأتني صحوًا مبصر العينين أطالعها في تساؤل.

قالت والفرح يبدد الإرهاق على وجهها: حمدًا لله! حمدًا لله عودتك! لقد ظننتك لن تعود أبدًا.

سألتها في صوت ثقيل: كم مر من الوقت؟

قالت: عشر ليال.

عشر ليال؟ اعتنت فيهم مليكة بي وحدها!

هاجمتني نوبة شديدة من السعال لتعاجلني مليكة بشربة من المياه قائلة: لا ترهق بدنك، فلم تفارقك الحمى كليًّا بعد.

- حمى؟ هل أصابتني حمى؟

- أجل.. على رسلك تمهل.

وراحت تكررها بينما تضع رأسي الثقيل على الفراش.

هكذا كانت مليكة، لا يفوق قوتها وصبرها إلا نبلها وشجاعتها، تحملت الاعتناء بجسد أصابته الحمى عشر ليالٍ كاملة بمفردها بين ربوع الصحراء.

منذ المرة الأولى التي رأيتها فيها وشيء قد وقع في قلبي منها، مجرد شيء، وبقي هكذا حتى حينها، حتى أدرك قلبي منها شيئًا أكبر بكثير، شيء لم يسبق أن شعرت به من قبل، منذ أبصرت عيناي النور.

مرت ثلاث ليال أُخر لم تبرح فيهم مليكة الاعتناء بي صابرة رابطة، وهذا الشيء في داخلي نحوها يربو ويزيد يومًا بعد يوم حتى كان في الليلة الأخيرة من الحمى، علمت يقينًا أني لا أريدها جارية أو غير ذلك. لا أريدها إلا زوجة!

***

تسلطت شمس الصحراء الحارقة تتخلل أشعتها قماش الخيمة لتعبر منه ساقطة على وجه مليكة النائمة لتوقظ عينيها. تحركت في هدوء حتى وقع بصرها على فراش رشيد الفارغ إلى جوارها.

زال هدوؤها فورًا وقامت عن رقودها، وخرجت هالعة تستطلع خارج الخيمة، لكنها كانت الصحراء الفارغة عن سواها والخيمة.

أخذت تدور حول الخيمة بحثًا عنه حتى بلغت الإبل لتجدها إبلًا وحيدة غادرها زوجها.

عادت أدراجها إلى الخيمة يروح بعقلها التوتر ويغدو بالغًا بها مبلغًا عظيمًا حتى وقع بصرها على فراشه ثانية، لتجد مكتوبًا عليه بلطخ الحبر ما قرأته: سأعود قبل غروب الشمس، لا تخافي ولا ترحلي!

لم تهدأ وإن ذهبت الكتابة ببعض روعها، لكن لمقرئها قطَّب حاجبيها.

***

بينما على أرض تبعد مسيرة بضع ساعات من الخيمة استقرت أقدام الرشيد في واحة من المياه يحدُّها عدد من النخيل فارع الطول وقد هبط لتوه عن قمة أقصر هذا النخيل طولًا، على وجهه مظهر جامع بين الصحة والعلل اليسير.

انحنى أرضًا ليمسك بجريدة النخل التي قطعها لتوه من القمة معيدًا خنجره الذي قطعها به إلى غمده، تأمل الجريدة في حماس، ثم التفت عائدًا إلى حيث ربط ناقته في إحدى أشجار الواحة مبتهجة أساريره حتى لاقاه في وجهه شيخ طاعن السن حسن الهيئة وطيب الوجه، له شعر أبيض طويل ولحية بيضاء طويلة، وقف مستندًا إلى عصاه المتواضعة في مظهر مهيب وقور على وجهه ابتسامة طيبة.

أوجس الرشيد لهيئته خيفة يقول: من أنت؟ وما تريد؟

أجابه متأملًا وجهه كأنما يتأمل في قرة: لقد قطعت الأميال قاصدًا لقاءك هنا، بقيت أياما عدة على ضفاف هذه الواحة في انتظار قدومك الذي طال! لقد كنت أعلم أنك ستأتي حين تسترد عافيتك وقواك، قواك التي لا تعلم عنها شيئًا.

تعجب الرشيد من أمره وهمَّ يسأله: قواي؟

لكن الشيخ قاطعه قائلًا: تأهب يا مولاي، فإن في انتظارك أملًا جللًا، إنك إلى أرض الرماد عائد عمَّا قريب.

- أي أمر؟

- سوف تعرف كل شيء حين يحين موعده، ولكن احذر. عظيم ما أنت مقدمه.

- ما تقول؟

- أقول ما سوف ترى، لا يجمعنك بمليكة قدر أيها الخليفة، لقد حسم أمركما قبل أن يبدأ، وعلامة ذلك إعصار شديد تتابع من بعده الأعاصير!

تبدلت ملامح الرشيد في رعب، ثم أدبر معرضًا عن الشيخ مهرولًا نحو ناقته، ليلتفت إليه الشيخ ينادي: لا تهزأنَّ بقولي أيها الرشيد، ولا تنسينَّ علامته، إعصار شديد تتابع من بعده الأعاصير.

بينما لا يلتفت الرشيد مسرعًا بمغادرة الواحة في فزع راح الشيخ يراقبه هامسًا: سلامٌ هي أيها الخليفة.. سلامٌ هي حتى يجمعنا اللقاء.

***

غرب على مليكة قرص الشمس وأقبلت الظلمة، وما زال العديد من الأشياء تدور في رأسها من فرط القلق والشعور بالوحدة، تلك الوحدة التي تدفع إلى التساؤلات دومًا.

حتى سمعت صوتًا يدور خارج الخيمة، توجست في نفسها أن يكون قاطع طريق أو عابر سبيل غريب وأخذت تُنصت للصوت في رعب.

قامت عن مكانها تقترب من مدخل الخيمة منسدلة الستار في حذر كما يقترب منها الصوت، حتى اختفى فجأة ما إن توقفت خلف الستار.

ساد المكان هدوء شديد غرقت فيه مليكة بينما تقف خلف الستار وقد أثار اختفاء الصوت وجسها حتى فتحت ستار الخيمة فجأة في حركة خاطفة، ليذهب كل روعها على الفور ما إن رأت الرشيد واقفًا أمامها يحدق إليها في جمود.

لم يتفوه بكلمة واحدة، فقط اكتفى بالنظر إلى عينيها في تعابير جامدة لا تفصح عن شيء ثم لم يلبث أن تحرك دالفًا إلى الخيمة فور أن تحركت قبله مليكة دالفة في ضجر ليعود من خلفه ستار الخيمة منسدلًا كما كان.

***

بينما قبل أَقدام من الخيمة كانت إبل الرشيد تتقدم بين ظلال الليل يعلوها الرشيد متجهم الوجه لا يزال مرتعدًا، مما لاقاه عند الواحة، وكلمات الشيخ لا تزال تتردد في أذنيه طيلة طريق عودته إلى الخيمة التي علت تلة ضخمة في موضع قريب يراها من مكانه على ضوء القمر وقد شارف على الوصول إليها.

عابر إلى جوار لافتة خشبية متهالكة ذات نقش محفور عليه اسم الوادي الذي تسكنه الخيمة ويسكنوه، وادٍ حمل اسم (وادي برهوت).

***

عمَّ الخيمة هدوءٌ شديدٌ جلست فيه مليكة على فراشها تطالع الرشيد الذي جلس على فراشه هو الآخر دون كلمة واحدة حتى الآن، إلى أن بدأ صمته الطويل يثير خيفتها بحق.

صمت قطعته قائلة في تردد: أين كنت؟ وما أقامك عن الفراش وحالتك ذي؟

سألته في هدوء لكنه لم يجب.

إنما أجابها صوت آخر: مليكة!

تعالى بها صوت الرشيد من خارج الخيمة عند مربط الإبل لتتسع لمسمعها عينا مليكة في رعب، نظرت إلى الرشيد الجالس على الفراش ثم راحت تصرخ في فزع وتعود بجسدها نحو زاوية الخيمة مستمرة في الصراخ، جلست أرضًا تضم ركبتيها إلى صدرها ورعب العالم في عينيها حين قفز الجالس على فراش الرشيد إليها فجأة وراح يصيح في وجهها بغضب دفعها إلى البكاء، بكاء انفجرت به ذاعرة تصرخ في جنون!

حتى دخل الرشيد إلى الخيمة ليجدها وحدها على هذه الحال، ألقى بالجريد على الفراش وراح يهرول نحوها مسرعًا.

صاح بها مرتبكًا: مليكة ما بك؟ ما أصابك؟

دفعته عنها في رعب راح يفتك بها في ركنها، حتى أخذت في الهدوء شيئًا فشيئًا مدركة على مهل حقيقة ما يحدث.

تشبثت فجأة برداء الرشيد بينما بات صراخها نحيب خافت تخطف الرشيد بالرهبة لبعض الوقت قبل أن يأخذ بها رابطًا على يديها ليذهب من روعها.

قال مكررًا في هدوء: ما هنالك؟ ما الذي حدث؟

لتجيبه قائلة: أقسمت عليك بالله ألا تتركني ثانية، لا تفعلنَّ عفا الله عنك!

ليقسم: والله لا أفعلنَّ، والله.

قالها شاردًا في أنفاس مليكة المتلاحقة حتى هدأت وعاد الهدوء إلى الخيمة من جديد.

***

كان ظلام الليل قد اشتد أكثر خارج الخيمة، وارتفع عواء الذئاب محلقًا من الوديان البعيدة بينما انهمك داخلها الرشيد يفتش بين متاعه حين سألته مليكة الجالسة على فراشها في الخلف في هدوء تام:

أين ذهبت؟

ليجيبها: أدركت واحة قريبة أقطع بعضًا من جريد النخل لأكتب عليه، فما جلبت معي ورقًا، إنما محبرتي.

- وما تريد أن تكتب؟

صمت لبرهة مترددًا ثم قال دون أن ينظر إليها منشغلًا بترطيب محبرته ببعض المياه: أكتب وثيقة.

التفت إليها وراح يتقدم نحوها بينما ترمقه بعينين مرتقبتان طالعته حتى قال: وثيقة أعتق فيها رقبتك من الإماء!

بهتت جميع حواس مليكة مباغتة وهمت بسؤاله في ارتباك لكنه حبس كلماتها قائلا: فإن شئت فارقت..

صمت ثانية وقال: أو كنت لي زوجًا!

لتكتفي مليكة بالصمت في صدمة ثانية فاقت الأولى قبلها..

***

رفع تقي بصره نحو الرشيد كعادته لكن هذه المرة سبقه الرشيد بالتوقف عن الحديث فتسمر قلمه في مكانه.

نظر إليه ليراه صامتًا ممسكًا عن الكلام فقال متسائلًا: وهل قبلت؟

ليجيبه الرشيد في ضيق شديد وصوته يتضاءل كأنه يختنق: أعطني بعضًا من الماء!

أسرع تقي بمناولته كأسًا شرب منها ثم وضع يده على صدره كأن ألمًا يتلوى بداخله.

حتى سنحت فرصة لسؤاله من جديد: هل قبلت؟

وهذه المرة أجابه فقال: لم يكن ليشكل هذا فارقًا!

ليقطب لإجابته حاجبي تقي في عجب!

***

انشغل اليمامي يرتدي حذاءه لدى باب المسجد بعد فراغه من صلاة العصر، وما إن فرغ حتى التقط عصاه التي أسندها إلى جواره، وراح يتلفت بحثًا عن جرير، ذلك الصبي! لقد شغله لهوه عنه فلم يأت.

على كل هو ليس بالضرير عاجز النظر إنما عيناه هرمتان فحسب كما هو حال قدميه، وأهل المساجد والمحاريب لا يضلون طريقها، ولو اقتلعت عيونهم من أماكنها.

انطلق يسير في حذر حتى رمق الرجل الغريب على قارعة الطريق من جديد، ذلك الرجل، لا يزال في مكانه منذ أذان الصلاة لم يبرحه حتى إنه لم يصلِّ. يجلس على الطريق بثيابه البالية سائلًا كل من مر إلى جواره عن كلبه الضال إن كان قد رآه.

منذ متى والكلاب تختفي عن العاصمة؟

نظر إليه في أسف على حاله وعتاب عليه ثم راح يتقدم الطريق غير مكترث حتى كان قد ابتعد عن المسجد بضعة أقدام.

توقف فجأة في مكانه وقد تملكه شعور غريب حيال أمر ذلك الرجل على قارعة الطريق يسأل عن كلبه الضال، ثم مرورًا إلى انتشار القطط بين الطرقات الليلة الماضية.

ولم يطل شرودًا في أمره حتى ساوره شعور آخر أكثر غرابة وقوة. شعور بأن أحدًا في مكان ما يراقبه.

التفت وراءه جاهدًا الرؤية الدقيقة، راحلًا بالنظر إلى الوجوه من حوله على اختلاف أبعادها.

استغرق الأمر بعضًا من الوقت لكنه في النهاية فعل.

ورآه واقفًا على بعد منه علت رأسه قلنسوة زيتونية اللون، لم يتبين وجهه جيدًا إذ أخفتها ظلال وشاحه الكتَّاني البالي والقصور في عينيه الهرمتين.

حدق إليه للحظات علت فيها وجهه تعابير غريبة لم يلبث أن عدل بها عنه والتفت إلى وجهته وانصرف مادًا بخطواته الأرض في خيفة وارتباك عظيمين.

***

ساد الخيمة صمت طويل حتى كان صوت رياح الصحراء ليصل إلى مسمع كليهما جليًّا واضحًا، إلى أن قطعه الرشيد قائلًا: ما بالك قد سكت فأطلت السكوت؟ إن كنت رافضة فأجيبي.

لتجيبه مليكة في هدوء: حين أصابتك الحمى وسقطت أرضًا بلا حراك، أصابني رعب ما أصبت به في حياتي قط، رعب راح يربو في قلبي ليلة تلو الأخرى كلما كنت أنظر إليك راقدًا على الفراش تتأوه من مصاب الحمى، رعب التساؤل عما سأفعله لو أنك فارقتني، مرت ليال عدة حتى ضاع أملي وظننت أنك لن تعود أبدًا، حتى كانت نجاتي وفرحتي حين دبت فيك الحياة وشفيت صحوًا من الحمى، لهذا لم أحتمل غيابك صباح اليوم وأبكار الليلة، لقد مرت عليَّ ساعات غيابك ثقيلة باردة عظيمة البأس.

صمتت قليلًا وبدت مترددة بعض الشيء حتى قالت: لأيام كنت لك جارية وكنتَ في هذا خير ما كنت، لم تكرهني على شيء أو حتى تطلبه خفية أو تورية، وكنت في السفر خير صاحب ورفيق، وأنا على ضعفي على ما عليه ولم يسبق لي الخروج قط، فإن فارقت تاهت بي السبل أو هلكتُ في مفاوز الطريق، وأنا لا أعلم أرضًا أنزل إليها أو أهلًا ألتحق بهم، فلا سواك لي ولا لي سواك.

صمتت مجددًا ثم أردفت على استحياء: والله إني لا أجدنَّ خيرًا منك أهلًا.

ابتهجت أسارير الرشيد حتى قال: وإني أعهد إليك، لا أُكرهنَّك في الزواج على ما لم أُكرهك في الإماء ما دمت إليه كارهة، ولا أتركك وحيدة فأرحل، أو مهمومة فأترك، أو مريضة فأمسك عنك الرعاية، إنما أنزل معك حيث تنزلين وأرحل معك متى ترحلين، أنا أرض لك وأنتِ أرض لي، وإنا لنكمل مسيرنا ما إن تشرق الشمس فما نصل إلى مِصرٍ قريب حتى أجدد لك العتق على وثيقة متينة تحفظينها، ونعقد قراننا بشهادة شاهدين من خير أهل المصر، ثم لا نبرح معًا حتى أهلك دونك أو تهلكين دوني!

– والله إن تفعل كنت لك مدينة بمغرم الرقاب ما حييت، وكيف وقد حللتها من قيد العبودية وأكرمتها، ألا عفا الله عنك وطيَّب سيرتك وجعلك من المقربين. آمين.

– آمين.

ثم ساد المكان صمت كسابقه لكنه دون هدوء، فلا تسمع فيه صوتًا للرياح العابرة خارجًا، إنما دقات قوية سريعة نابضة بين قلبين اجتمعا حديثًا حتى صارا كالقلب الواحد تعلو وجهيهما ابتسامة واحدة.

***

حينها كأن كل الليالي قد انقشعت وكل الشموس قد أشرقت وكل العقبات زالت وكل الآلام سكنت.

إشراق رأيت فيه بداية جديدة ظننتها حقيقية هذه المرة، لكني كنت مخطئًا للمرة الثانية.

بقيت كلمات عراف الواحة تثلج صدري كلما وقعت في نفسي طيلة الليل، لم أتيقن صدقه من كذبه لكن شيئًا ما بداخلي كان يوقن بصدقه، وإلا فكيف عرف باسمي ونزولي إلى الواحة، وذكر من أمر مليكة ما لا يعرف به أحد حتى مليكة نفسها إلا منذ ساعات.

حتى أشرقت الشمس ونزلنا القرية التي عزمنا عقد زواجنا فيها ولم تبقَ سوى بضع ساعات كنت خلالها كالمجنون يتربص يمينه ويسرته، أتربص علامته، لكن شيئًا لم يحدث حتى تمت زيجتنا وشهد أمرنا رجلان من أكبر تجار القرية وبتنا زوجين.

مرت ثلاثة أيام ولم أرَ شيئًا مما ذكر العراف في الواحة، حتى غادرنا القرية مكملين رحلتنا وقد اتخذنا قرارنا بالوجهة أخيرًا التي سنستقر فيها عن الترحال، أطيب بقاع هذه الأرض وخيرها أهلًا، وجهة كانت أرض اليمام!

رددها تقي في نفسه يتأمل الكلمة بينما يخطها بالحبر: كانت...

الرشيد: كانت خير أيامي في صحبتها، وخير ترحال برفقتها، حتى كان في إحدى الليالي، كنا على مقربة من الوصول إلى أرض اليمام، ليلة طويلة سماؤها صافية وريحها هادئ كان فيها من البرودة ما فيها من الهدوء، أشعلنا بعضًا من الحطب وجلسنا نستدفئ بالنار.

تحدثنا وطال حديثنا، من حديث إلى حديث ومن خبر إلى آخر، حتى كانت لحظة تغير فيها كل شيء إلى الأبد وتبدل!

***

تراقص لهيب النيران يضفي بعضًا من الدفء إلى ضحكات مليكة والرشيد اللذين جلسا على ضوئها يتسامران وقد ضمت مليكة ركبتيها إلى صدرها وأحاطت ساقيها ذراعيها اللتين انسدل أسفلهما ثوبها الفضفاض الأسود كلون رباط رأسها ووشاحها، أما الرشيد فجلس متكئًا براحة يده على الرمال راحلًا برأسه بين السماء تارة وبين وجه مليكة الضاحك تارة أخرى.

إلى أن قالت مليكة بعد صمت: لدي سؤال لطالما سألته لنفسي ترددت مرارًا أن أسألك فيه لكني كنت أتراجع دومًا.

قال في رفق يحاول قتل مخاوفها: أي سؤال هذا؟

سكتت مليكة للحظات ثم اعتدلت في جلستها مستقبلة وجهه وقالت: ما الذي أغضب منك الخليفة حتى فعل ما فعل؟ ما الذي حدث؟

***

- أصاب سؤالها مصابًا عظيمًا، إذ سألت عن آخر ما كنت أتمنى أن تسأل عنه، كنت أريد أن نبدأ عهدًا جديدًا، بعيدًا عن الماضي بكل ما فيه، كيف كان لي إخبارها بأن ما حدث بين جدران القلعة ليس بحادث كما ظن الناس وأنني كنت وراء ما حدث؟

ومع هذا، ما كان على صمتي أن يطول، وكان لا بد من إجابة.

- وكيف كانت إجابتك؟

***

شرد الرشيد ناظرًا إلى النيران ولا يراها يقول في صوت ندم: خطأ كنت قد ارتكبته، خطأ عظيم.

مليكة: أي خطأ؟

هب لهيب النيران متوهجًا انعكاسه في عيني الرشيد، تمامًا كما هبت ذكريات ذلك اليوم في رأسه تداعب مخيلته، رأى من جديد الخوف في عيني أبيه ممسكًا بسور القلعة، ونظرة مروان المرتعدة التي بدت في عينيه كأنها طوفان مقبل، النيران التي ارتفعت من خلفه تعانق عنان السماء بينما ينصرف مغادرًا كأنها ترتفع نصب عينيه، صوت صراخ الجيف المشتعلة، ورائحة الأبدان المتفحمة تضيق بصدره خناقًا كأنه معهم حبيس الممر المضرم بالنيران.

خيالات تزاحمت كلها في عقله ومخاوف صحت من جديد في رأسه حتى غفل عن حديث مليكة التي بدت توجه إليه كلمات لا يسمعها.. لكنه.. مهلًا!

تجمدت ملامحه فجأة وتجهم وجهه، تلاشى كل شيء في عقله وبات أخيرًا صوت مليكة واضحًا.

نظر إليها تقول: ..كلنا مذنـــ...

ليقاطعها دون اكتراث لما تقول قائلًا: من أنت؟

سكتت مليكة فجأة وقد أصابها سؤاله بالارتباك.

أعاد سؤاله على مسامعها قائلًا: من تكونين؟ ولم أخرجك أبي؟ تعلمين أكثر من مجرد جارية، لم تخلَّى عنك أبي وأنت على ما عليه من الحسن ورجاحة العقل؟ قلت إن مصيرنا واحد وعدونا واحد، حينها ظننتك تقصدين جوره بنا وبغيه علينا وإخراجنا من الأرض، لكن لا، لا تجتمع كل تلك الأقدار دون حامل يحملها على ذلك.. من أنت بحق الله؟

حدقت إليه بهدوء للحظات قالت بعدها وقد زال بعض ارتباكها: على رسلك! فإني مجيبة.

تنبهت أسماعه محملقًا في وجهها بينما أخذت نفسًا عميقًا ثم سكتت للحظة وقالت: أنت على حق، أنا لست جارية!

سكتت مجددًا كأنها تنتقي كلماتها بحذر ثم استطردت: لقد عهدت إلى أحد تجار الرقيق كي يبيعني جارية إلى الخليفة، ويقنعه بشرائي لنفسه ودفعت جراء ذلك ثمنًا باهظًا من المال، هو كل ما أملكه.

جالسين راح يغزوهما شيء من التوتر بينما بدا كل شيء من حولهما صامتًا، تحدق مليكة إلى شعلة النيران في ثبات وهدوء قاس يجتاح كل المكان، حتى الصحراء، كأن ريحها قد سكنت وعمها الهدوء..

هذا النوع من الهدوء سيئ السمعة!

– حاولت في تلك الليلة أن أقتله، أن أقتص منه، أقتص ممن أشعل النار في أبي وأخي وعمي، ممن أشعل النار في قلب مليكة، وكل بنات الأعيان!

وقعت كلماتها على أذن الرشيد كأنها صاعقة رعد في ليل عاصف فاغرًا فاه من هول الصدمة.

– أنت ابنة الأعيان؟

– أجل، أنا مليكة بنت عدي البابلي، التي قتل أبوك كل رجال قومها، أعلم أن ما حدث لم يكن حادثًا وأن أباك من دبرها مكيدة لهم، لم أهاجر مع من هاجر من النسوة، وبقيت وحدي من أجل القصاص.

– محال!

وفجأة هبت ريح عاصف انتفضت لها الصحراء والرشيد ومليكة وكل شيء، أخمدت النيران وتبدل دفؤها برودة قاسية اجتاحت قلبيهما والوادي.

هبَّ لها واقفًا تعتريه صدمة عارمة رامقًا من أمامه إعصار هائل يحبو نحوهما، كما أصيبت مليكة بالذعر، ليقفا كلاهما عاجزين عن فعل أي شيء.

وفي هذه اللحظة انطلقت كلمات العراف لدى الواحة تجول بالرشيد في كل عقله كأنها النار في الهشيم.

ارتبك كلاهما حتى أصابهما الجنون بينما يقترب منهما الإعصار، يقترب تدور فيه الرمال كما تدور الرحى على قمحها، قمحًا سيكونانه للإعصار هذه الليلة.

استهلت مليكة ركضًا مرتبكًا نحو الخيمة بينما صدمة الرشيد أبقته متسمرًا في مكانه وقد تجمدت التعابير في وجهه شاهدًا الإعصار في مظهره المهيب كأن غضب الصحراء وبأسها قد تجسدا فيه. انتبه لغياب مليكة بعد لحظات لينتفض باحثًا عنها من حوله حتى رآها خلال الرمال المتطايرة والطريق الضبابية تركض باتجاه الخيمة.

أخذ يصيح عاليًا نداءً لها: مليكة!

وقف يرمقها تركض نحو الخيمة في ذعر الخوف عليها من جهة، وذعر الإعصار المقترب من جهة أخرى، ليتسمر في مكانه عاجزًا عن الحركة، يتساءل هل يلحق بها يحميها وقد تحجب عنهم الخيمة بعضًا من أثر الإعصار؟ أم يبقى مكانه والمصيران لا يختلفان؟

وفي رحاب الصحراء الهائجة وبين ثنايا الدجى وعلى أبواب إعصار يهدد بقاء كل شيء لم تكن العاصفة هي المطارد الوحيد!

تعالت فجأة أصوات صهيل تزداد وضوحًا بين ضجيج الإعصار شيئًا فشيئًا، كأنها أقرب إليهم منه، أخذ الرشيد يدور حول نفسه وقد زاد ارتباكه ارتباكًا حتى بدا كالمجنون في صحراء الوادي!

لمن تكون هذه الجياد؟ وكيف هي قريبة؟ ما الذي يحدث هنا بالضبط؟

راح صوت الصهيل يتعالى أكثر ويقترب تخالطه أصوات صياح رجال، قد يكون أولئك الفرسان هم الأقرب إليهما، لكن الإعصار هو الأسرع بينهم جميعًا!

كل ما يحدث من ارتباك وخوف وذعر اختزله عقل الرشيد في جملة واحدة راح يدور بها من حوله تَتَمْتَمَ بها شفاهه على استحياء: ما هذا الجنون؟

ثم كأنه ضرب بكل شيء عرض الوادي وراح يتأرجح ركضًا نحو الخيمة، ركضًا جنونيًّا كأنه الصراخ، يردد في كل صوب: مليكة! مليكة!

اقتربت العاصفة حتى لم يعد الرشيد ليرى موضع قدميه أو حتى كفيه مهما قاربهما من عينيه.

وأما صوت الصهيل وصياح الرجال فاقترب حتى بلغ أن ظنه الرشيد إلى جانب أذنيه مباشرة.

وحين حلقت عاليًا صرخات لمليكة تبلغ مسامعه زيدت الأمور جنونا فوق جنون. ليصيح راكضًا بأقصى ما أمكنه: مليكة! مليكة!

تزداد الصرخات رعبًا، والصهيل عنفًا، والرشيد سرعة، والرؤية ضبابية، والعاصفة اقترابًا، كل شيء من حوله يزداد.. حتى للحظة بدا كل شيء كالكابوس!

وفجأة انقلبت الصورة في عينيه رأسًا على عقب واختفت كل الأصوات والصياح وذهب كل شيء!

***

ألم شديد ألم برأسه فجأة، جعله يترنح دون أن يدرك ماهية أي شيء من حوله. وتدريجيًّا بدأ إدراكه يتسع، وتعاود حواسه العمل والترنح يتقلص مداه ببطء بينما يستقيم رأسه شيئًا فشيئًا، الرؤية تعود للوضوح والأصوات تعود إلى المسامع.

رؤية أول ما أدركت وجه مروان ونافع والحاكم من أمامه يرمقونه في ترقب، ومسامعٌ أول ما بلغها صوت الحاكم يقول قاطعًا كل صمت:

- عودًا حميدًا يا بني!

*****

البوح الرابع

الأعاصير

تحولت صدمته إلى غضب بادر بالكلام إلى لسانه: ماذا تريدون مني؟

بدا الحاكم غاضبًا حتى امتنع عن الإجابة، لينوب عنه فيها مروان متقدمًا نحو الرشيد قائلًا: على رسلك يا أخي، فما جاء بك أبي إلا نادمًا على ما فعل!

لينفعل الرشيد صائحًا في خطاه: دعك عني!

لتشتعل في الأرجاء نوبات انفعالية متوترة، قام لها نافع عن مجلسه بينما أردف الرشيد: أيها الكذوب التعس!

التمس لحظة من الصمت قبل أن يستطرد: أأفعل ما فيه حمايتكم ثم تأخذونني به؟ إنها والله لبئس العاقبة، أم أنك نسيت أيها الخليفة أن ما حدث كان مبغاك؟ مخاوفك التي أرقت مضجعك، ليتك رأيت الخوف الذي كان في عينيك حين كان خطرهم يزداد يومًا بعد يوم، ليتك رأيت الخضوع في صوتك والذلة تلك الليلة! أنا لن أحمل وزر الأعيان وحدي، لكنكم تحملون وزر سائر الرماديين والجنود من دوني.

ليعيد مروان متداركا: لن تحمل وزرهم يا أخي، لن يحمل أحد منا وزر ذلك، كان الأعيان مجرمين، لقد أرحنا الأرض من شرهم وشر عوثهم فيها بالفساد.

– لكنا لم نفعل هذا من أجل عوثهم يا مروان، إنما فعلناه لأنفسنا. لقد عاشوا طغاة، لكنهم ماتوا ضيوفًا تحت أسقفنا، وذلك والله إثم عظيم، عظيم كفعلتكم بي.

همَّ مروان بإجابته لولا أن سبقته كلمات الحاكم في عينيه طيف من الندم يلوح: إنه الخوف.

تعلقت به أنظار الجميع بينما تعلقت أنظاره هو بالرشيد وحده مردفًا: سامحني يا بني! أعلم أنك تدفع لخوفي بهيظ الأثمان، سامحني إن لم أنس بعد كيف فعلت أمك، سامحنا جميعًا إن أخذناك بذنبها منذ صباك.

– دع عنك فقد فات أوان هذا الحديث أيها الخليفة.

انفعل الحاكم غاضبًا يقول: ويحٌ للسانك لا يكف عن مخاطبتي بالخليفة، هل نسيت أني أبوك؟

– وكأنك قد تذكرت يومًا.

ليجيبه الحاكم وقد تملكته الصدمة: ما أحدَّ لسانك وأقساك من ولد.

قبل أن يرده الرشيد دون اكتراث: ترميني بما هو فيك.

ليتدخل مروان منكرًا عليه قائلًا: ويحك يا أخي! أراك قد تماديت حتى لا تكف تهجو أبانا!

حال بنظره إلى نافع مشيرًا إليه ليتحرك من فوره قاطعًا قيود الرشيد على أياديه بخنجره، ليعيد الرشيد يديه من خلف ظهره رابطًا على رسغيه بينما التزم الجميع الصمت التام.

قال في تحامل: والآن، أي عظيم قد أصابكم بهذا الخوف على وجوهكم حتى أذللتم له عزكم وأطرحتم كبركم وعدتم بي؟

اشتعل مروان لحديثه غضبًا ليصفعه على وجهه صفعة قوية يقول بها: إنك والله قد فسقت!

ليصيح به الحاكم محذرًا: مروان، دع عنك أخاك.

أخفض الرشيد رأسه وقد وقعت صفعة مروان على وجهه وقع الصاعقة على قرى ثمود حتى احمر رأسه واصفرت عيناه وبهتت ملامحه.

بينما توجه مروان إلى الخليفة مشيرًا إلى الرشيد غاضبًا: لقد عق يا أبت!

نهض الحاكم من مكانه ثم اتجه نحو الرشيد، جثا على ركبتيه ثم قال: اسمع يا بني، أما ما سبق منا وقد علمت سببه وإن لم ترضَ به فاعلم -رحمك الله- أننا بحثنا عليك أكثر فترة غيابك عنا، وإني لأعهد إليك لا يظلمنك أحد أو يمسكن عنك حق لك، وإني لمخلف عليك عوضًا لم أخلفه على أحد غيرك.

رفع الرشيد رأسه ليظهر وجهه مُتَخَّمًا بالحمرة غارقًا في البكاء، ترتجف كلماته: لقد.. كدت أن أموت.

ترتعد الأسماع لحديثه: لقد كادت الصحراء أن تهلكني، كدت أن أموت جوعًا مرة وكمدًا مرة ومرضًا مرة وعصفًا مرة أخرى، لقد ألقيتم بي في غياهب الهلكة!

اضطربت أنظار الحاكم بين أبنائه قليلًا قبل أن يقوم عن جثوته ويتوجه نحو إحدى النوافذ ينظر خلالها للحظات تبادل فيها نافع ومروان النظرات بينما بقي رشيد رامقًا أرض الغرفة.

طالت لحظات صامتة قبل أن يقطعها الحاكم في حزم: سوف أجعل منك أول مستشاريَّ وأكبر وزرائي.

قالها لتتجمد الدماء في وجه مروان، وتتسع أعين نافع بعظيم صدمة اعترتهما، بينما لم يحرك الرشيد ساكنًا كأنه لم يسمع شيئًا على الإطلاق.

قال مروان دون انتباه: أبي!

بينما لم يعطه الحاكم فرصة ليكمل كلماته التي قطعها بمسيره خارجًا من الغرفة يقول: وهذا أمر لا نقاش فيه ولا شورى.

ثم غادر تاركًا مروان ينظر موطئ قدمه متسمرًا.

ما بالهم أدركهم ما فروا منه!

تبادل بعضًا من النظرات مع نافع الذي لم يلبث أن انصرف تبعًا للخليفة مهرولًا خلفه تاركًا مروان والرشيد وحدهما في المكان.

عاد الصمت من جديد قبل أن ينصرف مجددًا حين أخذ مروان بالتحرك ببطء تجاه الرشيد.

وضع يدًا مرتبكة تربط على ظهره بينما يجلس إلى جانبه قائلًا: سامحني يا أخي.. أنت قد تماديت.

بقي الرشيد على حاله دون إجابة ليكرر مروان: أخي.

فيخرج صوت الرشيد هامسًا: لا عليك.

وخيَّم الصمت كعادته.

– أعلم أنَّا كنا قساة عليك، لا نترك فرصة تسنح لنا بمخاصمتك إلا وفعلنا، لكن عليك بدورك أن تعلم، أنه ما من أحد منا يكرهك، حتى أبي، إنه يحبك برغم هذا، جميعنا نفعل.

لم يبدُ الرشيد آبهًا بكلمات مروان حتى ما إن انقطعت حل الظلام على الأفواه من جديد كأنه لم يرحل قط، وبينما كان صمت الرشيد رفضًا لما يحدث كان صمت مروان انتقاءً لكلمات مناسبة.

كلمات عاجل بها شبح الصمت حتى أحرقه عن بكرة أبيه:

– نحن في ورطة!

رفع الرشيد رأسه على الفور ناظرًا إلى مروان، في عينيه اللتين عاودهما الخوف ذاته من جديد، عيناه اللتان من بين كل شيء مثيرة للانتباه إلى حد كبير، موجسة إلى حد لا يوصف، كأنهما موطن الطيب والخوف والعفو حيث يربو.

اشتعل القلق في كلمات مروان بينما يردف: بعد رحيلك، أخذت تدور أحاديث بين الناس عن أرض بعيدة في صحراء الخيزران تدعى خافير، أرض يقولون فيها عجبًا!

سكت لحظة كأنه يتدارك أمرًا باح به في خوف: عن أصوات غريبة لم يسمع بها الناس من قبل، تملأ سماء الأمصار القريبة في جوف الليل، عن منامات غامضة يراها الكثيرون من الناس كل ليلة، وضباب غريب يحيط بسماء القرية يتسلل بعضه إلى بقية الأمصار، حتى كتب شيوخها إلى الخليفة طالبين أن يفعل شيئًا حيال هذا الأمر، وينقذوا أهل الأمصار من رعب عظيم جعلهم حبيسين بيوتهم مخافة ما سمعوا.

– وما سمعوا؟

– سمعوا عن شيء يتخطف الناس، من قعور دارهم وقبلة محاريبهم وجحور آثامهم، أصابتنا الحيرة لأيام، القرية بعيدة وراء النهر، وأقرب القرى إليها دون الخيزران ودون النهر، لم يسمع بها أحد من الناس من قبل ويخشى أبي أن يكون الأمر محض خدعة وأن أحدهم يكيد له مكيدة، ينتقم بها للأعيان أو الرماديين أو غيرهم، فإن أرسل جيشًا كان فيه مهلكته، وإن لم تكن خدعة فالكرب أعظم وأشد.

حتى بتنا في حيرة من أمرنا، لا نميز حتى الحقيقي من الزائف فيما يشاع بين الناس، والناس في رعب لا يبرحون يطالبوننا بفعل شيء لا نعلمه ولا يدركونه، فيكتبون إلى ديواننا كل يوم أو ثلاثة، والأقاويل حول الأمر تزداد يومًا بعد يوم وساعة تلو الأخرى، يقولون إن أناسًا من أهل الأمصار القريبة خرجوا إلى تلك القرية بحثًا عن كشف ما يحدث فيها لكن أحدًا منهم لم يعد، ليزداد الأمر سوءًا فوق سوء، حتى هجر الناس مضاجعهم وشتَّ أمرهم وتفرق جمعهم وقلَّ عملهم وقارب اقتصادنا على الكساد، يخشون أنه داء يتفشى أو مهلكة تتنامى.. لقد أصابنا عظيم يا أخي، أصابنا عظيم لا ندري ماذا نفعل حياله.

تنقلت أنظار الرشيد ترتعد حوله في صدمة لما سمع.

قال: بأيِّ خبر غريب قد أتيت؟ ويح البلاد ما أصابها! والله إني لم أسمع بمثل هذا من قبل وقد كنت في الفيء أرحل بين البلدان، لم أسمع بمثله قط.. كأنها مهلكة عاد أو عاقبة ثمود؟! لعمري لو أن صدق ما تقول يا أخي فالويل لنا من عظيم ينتظر.

ثم عاود الصمت من جديد يكسو أرجاء المكان شرد فيه الرشيد مفكرًا بينما حدق مروان بحيرة.

قال: وقبل ذلك، لم يبرح الناس حديثًا عنك وعن أبي وما حدث للأعيان والرماديين، حتى سمعنا خبر ما حدث لنساء الأعيان وفتيانهم في طريق هجرتهم التي هاجروا.

- نساء الأعيان؟ ما الذي حدث؟

- عثر عليهم أهل قرية كانوا قد عبروها بين الجبال جثثًا مهتوكة الفروج ومقطوعة الرؤوس مسروقة أموالهم ودوابهم ومتاعهم على يد قطاع طريق اعترضوا مسيرهم وأبرحوا في تعذيبهم؛ انتقامًا منهم.

دفن الرشيد رأسه رهبة لما يسمع بينما استطرد مروان في إرهاق: غضب علينا الناس وهجانا الشعراء، وباتوا يكرهوننا ويبغضون حكمنا وعادت الكوابيس والرؤى المفزعة تطارد أباك من جديد يقظة ومنامًا، ثم كان ما كان من أمر خافير، وأصبحت كل الأشياء من حولنا لا تقود إلا إلى الجنون، ولم نعد لنهنأ بنوم في دجى ليل أو ذروة إصباح.

ثم في وجس: كأننا أحرقنا شبحًا يطاردنا، فخرجت لنا أشباح الأرض جمعاء.

ثم سكت مروان وسكت كل شيء من حولهم، وأخذ الرشيد يتدارك تناهيد حبيسة شاردًا في مروان قبل أن يتوقف فجأة، ويحدق كأن نيرانًا قد اشتعلت في جسده تجهمت لها ملامحه.

انتبه مروان له عاقدًا حاجبيه قبل أن يعاجله الرشيد في ذعر: أين مليكة؟

***

كان نهار هذا الليل فاترًا لم يعرف بهجة الصباح، وقف فيه الرشيد يطالع شاردًا خلال نافذة أحد أروقة القصر.

وبينما كان شروده، كان تقدم أحدهم يقترب من خلفه في خطوات، انتبه لها بعد لحظات ليترك نافذته ويلتفت لها في فتور كلهفة شَابَها الاستسلام وفقدان الأمل فإذا بها كانت خُطى مروان الذي أنهاها واقفًا يومئ في نفي.

لم تكن صدمة له على كل حال، فهي لم تكن مع الجنود حين أتوا به من غياهب الإعصار.

قال بصوت واهن بالكاد بلغ مسامعه: لقد تركتموها في قلب العاصفة.

ثم أردف بينما يعود شاردًا خلال النافذة من جديد: لقد أضعتم مليكة!

بينما قلق أخذ مروان يتنهد من خلفه في أسف.

***

- تزوجت من مليكة!

قالها الحاكم وقد انعقدت تعابيره في سخط جلي ثم أردف: ويحك إنها بنت عدي البابلي! بنت الأعيان.

ليجيبه الرشيد: كنت تعرف بأمرها؟

ثم وقد تجهمت ملامحه: وأرسلتها معي؟

لم يبد الإنكار على وجه الخليفة الذي اكتفى بارتباكه في صمت كما كان مروان إلى جوار الرشيد حين اختلس له النظر ليتحاشى عينيه باصرًا الأرض.

كانت الأمور واضحة، تعمدوا إرسالها معه دون غيرها ظنًا منها أنها سوف تقتله قصاصًا، وإما أن تنجح فيموت الرشيد أو تخفق فتموت هي، وكلاهما تستوي فيهما الرغبة، لكن متى وافقت الرياح أهواء أهل السفن؟

أردف الرشيد متسائلًا: هل كانت تعلم أنني كنت أنا؟

نفى مروان بصوت خافت: كلا، هي تصر أن ما حدث كان من تدبير أبيك.

الحاكم: تلك الماكرة! ما الذي تنويه بالزواج منك؟ إنها خرقاء، حين دخلت عليها الفراش كانت تعلوها ابتسامة هادئة تعجبت لها، لكني لم أحسب أنها تملك من الجرأة ما يجعلها تقول في وجهي أنها جاءت لقتلي، وأنها سوف تفعل لكن ليس هذه الليلة وليس وأنا ضيف بين يديها وإن كنت قد فعلتها أنا من قبل! ثكلها قومها.

ثم هازئًا: إن بقي لها قوم.

كدت أن أقتلها لولا أني خشيت أن يقول الناس أن الخليفة يقتل جواريه فيخافني بعضهن، ثم كان ما كان، والآن تقول إنك قد اتخذتها زوجة؟ أي جنون فعلت؟!

الرشيد وقد صحا غضبه وثارت ثورته: كفَّ عن سب زوجتي ونعتها بما ليس فيها، إن كان من جنون هنا فهو أنت أيها الخليفة! على الأقل لقد أنقذت مليكة حياتي بينما حاول غيرها الخلاص منها!

راح الحاكم يتودد إلى الرشيد ممسكًا بعضديه قائلًا: بنيَّ ..هل تعي ما تقول؟ هذه المرأة سوف تقتلك! سوف تقتلنا جميعًا!

– لقد كان أمامها آلاف الفرص لتفعل وما فعلت، إنما أنقذت حياتي بدلًا عن ذلك.

– وكان لديها الفرصة لتقتلني من قبل، لكنها لا تريد للأمر أن يكون سهلًا، أرأيت؟ إنها خرقاء! هل تعلم ماذا ستفعل ما إن تعلم من كان وراء ما حدث؟ هل تعلم ممن ستتخلص منه أولًا بيننا؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أننا آخر من تبقى من الرماديين، وعلينا ألا ندع تلك الخبيثة تنجح فيما ترمي إليه، تلك الفتاة لا تريد سوى إيقاع الذعر بيننا، ثم القضاء علينا واحدًا تلو الآخر.

ساد صمت قليل قطعه مروان متدخلًا: طلقها فحسب يا أخي.

ليصيح الحاكم مقاطعًا: بل يقتلها!

ليتسمر الرشيد في صدمة كأن فاجعة قد أصابته.

أردف: لا يعلم أحد سوانا بهذه الزيجة، وعلى أحد ألا يعلم بها، تلك العاهرة سوف تموت، وأنت من سيبحث عنها ويجدها ويأتي بها إلى هنا، ثم ستقتلها.

كلمات كانت أكبر من أن تناطحها كلمات أُخَر حتى ساد صمت الفاجعة.

***

حدق تقي بالرشيد رافعًا النظر عما يخط قلمه بينما يقول: لم أعرف إن كانت مليكة على قيد الحياة أم لا، لكني كنت أعرف أن الحاكم على قيد الحياة وأن الأمور لن تسير على نحو يرام، ولم تمر الليلة حتى فعلها الحاكم وأرسل في إثرها من يقتلها بينما عجزت عن فعل أي شيء حيال ذلك، لكني لم أكن لأنتظر أن يعود رسوله برأس مليكة وقد لفها في خرقة قذرة تتآكلها الديدان وتفوح منها رائحة مُنتنة كأرواحهم.

حينها لم يكن في عقلي سوى جملة واحدة فقط تردد ذهابًا وإيابًا طيلة الليل.

«إعصار شديد تتابع من بعده الأعاصير»

شرد تقي في كلماته مفكرًا بينما أردف: وإن كان لا بد من دماء أن تسيل وروح أن تزهق فلتكن أبخس الدماء وأشرها!

قالها الرشيد ولمسمعها بهت التقي!

***

في جوف ليل إحدى أكثر الليالي عتمة وإظلامًا على الإطلاق، ليلة كانت مليئة بالكثير من التطورات التي طرأت على كل شيء، كل قلب وكل حجر وكل نسمة هواء عابرة.

كان الليل قد بلغ ذروته والظلام أحكم سيطرته على كل شيء، والبرودة في كل مكان في شوارع المدينة ومنازلها الهادئة الخامدة بعد نهار طويل والأطياف تطوف بأسوار القلعة وبروجها المشيدة المرصعة بالحراس في كل مكان كأنها تكاد تصرخ من فرط جنون الحاكم وهوسه.

تحلى كل شيء بالسكينة والهدوء والبرودة بما فيها غرفة الرشيد كذلك التي عاد إليها بعد غياب طويل، لكن في المقابل كان كل صخب الكون وطاقته قد تجلى في صدر الرشيد الجالس على فراشه أسفل النافذة بلا حراك، عيناه في اتساعها الكامل كأنها وادٍ يابس في قلب صحراء بعيدة، شعره المتناثر على رأسه وعيناه المحدقتان أمامه في رعب الموتى، فوهُ المفتوح والأنين المتقطع الذي يخرج من صدره، حتى بدا كأنه يرتجف كيديه اللتين كادتا تتجمدان من الخوف أضفوا جميعًا الذعر إلى جلسته، وحشد من أفكار كاللعنات تدور في رأسه كإعصار الأيام الخالية.

في ليلة أبت أن تنقضي، كإحدى أكثر ليالي القصر رعبًا على الإطلاق.

لم يحتمل جلوسه أكثر حتى وقف في مكانه أمام الفراش، وأخذ يخطو خطوات غريبة .. وخطيرة!

***

بين الجدران كنت أسير ..

ارتبكت أنامل تقي وتسارعت أنفاسه بينما يكتب كلمات الرشيد التي أخذ يمليها: الظلام كان في كل مكان والغضب في كل شيء.

***

مدلِّيًا رأسه شاردًا في الأرض. تقدم الرشيد بينما تناثرت خصلات شعره كأن شيطانًا قد تلبسه يتخبط به في مسيره، على ضوء أزرق خافت من ضوء القمر المتسلل من النوافذ سار الرشيد حافيًا يجوب الممرات ببطء في هدوء غريب تعجب له حراس الأروقة، يرمقون حاله يتساءلون عن أمره فيما بينهم، بينما يتابع المسير قاصدًا وجهته بين الظلام.

***

اتسعت عينا تقي لما يسمع ويسرده الرشيد في هدوء مخيف، بينما خارجًا ومن النافذة كانت الشمس الباردة تستعد لهبوطها من سماء الأفق.

***

كان الحاكم في فراشه يتقلب في أَرَقٍ واضح قبل أن يزول النوم عن عينيه فجأة وينتفض من مكانه قافزًا من نومه إلى وعيه فور أن وجد الظلام يكسو كل شيء حوله عدا بعضًا من ضوء القمر الأزرق الخافت نفسه، ضوء تسلل إلى بعض الأركان في الغرفة دون بعضها.

صاح في سخط: من أطفأ المشاعل؟

لم يتلقَ إجابة لندائه فصاح غاضبًا: أيها الحمقى!

همَّ يقوم عن فراشه لكنه توقف فجأة وتسمَّر في مكانه عاجزًا عن الحراك ما إن سمع صوتًا قادمًا من أحد أركان الغرفة المظلمة.

- لماذا تريد قتلي أيها الخليفة؟

صاح مجددًا في ارتعاد: من هناك؟

وهذه المرة خرج الصوت حزينًا باكيًا حتى بات بين الظلام مخيفًا يثير الوجس: لماذا تكرهني؟

ما كان لشيء أن يخيف الحاكم أكثر من بكاء مجهول المصدر في قلب غرفته، ومسكين باكٍ مجهول الهوية.

قال وقد بلغ به الخوف مبلغًا أن وقف إلى جوار فراشه متلفتًا بين الأركان المتعددة في ذعر: من أنت؟

ليعود إليه الصوت وقد اشتد في البكاء: ما ذنبي؟

صاح في رعب وغضب عظيمين: أيها الجنود!

فجأة جذب عينيه سكين تلمع عاكسة ضوء القمر في أحد الأركان القريبة، القريبة إلى حد لم يتصوره!

وخلف السكين قبع ظل بشري ساكن لم يلبث أن تحرك فجأة خارجًا إليه لتستقر السكين في قلبه قبل حتى أن يدرك أنه يتوجه نحوه، قبل أن يدرك.. أنه وجه الرشيد الملطخ بالشعر المتناثر مبلل بالعرق وآثار البكاء.

وقبل أن تكتمل صدمته كانت السكين قد قطعتها وأسكتت شهيقًا أخرج منتصفه وبقي النصف الآخر يحلق في سماء الغرفة.

استيقظ من نومه فزعًا ممسكًا قلبه بيده ضاغطًا عليه وقد أخذ ينبض في جنون.

نظر حوله ليجد الغرفة لا تزال مضاءة بالمشاعل والشموع والقناديل كما يألفها ويحبها.

لكنه صاح بالفزع نفسه في كابوسه: أيها الحراس!

صيحة انطفأت لها إحدى الشمعات إلى جواره.

***

الرشيد: لكنني تركتها!

هدأت أنفاس تقي وراح يتنهد بعمق بينما يسمع الرشيد يتابع: لا أدرك ماهية ما حدث ليلتها بعد أن عجزت عن النوم سرت جيئة وذهابًا بين الجدران وبقيت جالسًا على فراشي لساعات، لكني حين قمت وأمسكت بالسكين في يدي تملكني شعور غريب لم أقوَ على احتماله وتركتها من جديد.

كانت ليلة مظلمة وغريبة، لكن لم يكن تفكيري في قتل الحاكم أسوأ ما حدث فيها!

رفع تقي نظره عن الأوراق وقد عاد التجهم إلى وجهه من جديد متمتمًا: هاه؟

***

ارتجفت يد الرشيد الممسكة بالسكين في رهبة حتى أسقطها أرضًا عن فوره لتفر طائحة قرب باب الغرفة الذي انفتح فجأة ليدلف منه حارسان من جنود الخليفة.

فوجئ الرشيد وتسمَّر في مكانه بينما توجه الحارسان نحوه في غضب ودون أدنى كلمة، أمسكوا به وأخذوا يجرونه خارجًا في مقاومة عديمة النفع صائحًا بهم: ماذا تفعلون؟ إليكم عني!

تاركين خلفهم الغرفة خاوية باردة تلمع على أرضها السكين راقدة في سكون.

***

قبل أن تنقضي الليلة وجدت نفسي فجأة في السجن، دون حتى أن أعرف السبب، وقضيت ما بقي منها وحيدًا في ركن بعيد مظلم أتساءل عمَّا يكون قد حدث، حتى تخليت عن الإجابة مستسلمًا إلى النوم مع الأضواء الأولى للنهار.

***

انتشر ضوء الشمس المتسلل عبر قضبان حديدية لنافذة علوية صغيرة صانعًا قطاعات من الضوء سقطت على أرض حجرية واسعة تتطاير بين رحابها الأغبرة، فارغة عدا من ركن بعيد أسفل تلك النافذة، جلس فيه الرشيد مغتمًا بعينين حمراوين يحيطهما سواد كأنه غيمة رعد في يوم عاصف، احتبست أمطاره في مدامعه اليابسة.

قبل أن يتعالى فجأة صوت صرير الباب الحديدي المقبض معلنًا دخول أحدهم.

صوت هبَّ له الرشيد على الفور قائمًا من مكانه مسرعًا نحو مروان الذي هرول ناحيته ما إن دخل، لكن فجأة تخلفت يدا الرشيد عن جسده لتظهر قيوده المعدنية المثبتة في جدار السجن من كلتا يديه في قسوة وقد بلغت أقصى مدى يمكنه بلوغها، مثيرة ألمًا تجاهله الرشيد وقال مستغيثًا: مروان!

عانقه مروان في أسف ثم دفعه بلطف ناحية الحائط كيلا تتأذى يديه قائلًا: أخي!

كان يحبه ويحب كونه أخاه فأحب نداءه بها.

تراجع الرشيد مستجيبًا وقد حدق إلى مروان في لهفة وانفعال تسارعت معه أنفاسه يقول: ماذا فعلت يا مروان؟ لماذا وضعني أبوك في السجن؟ أما كان سيجعل مني أول مستشاريه وأكبر وزرائه؟

مروان: على رسلك يا أخي، اهدأ.

ليعاجله الرشيد منفعلًا في توسل: أقسم بالله إنني لم أفعل أي شيء، لماذا أنا هنا؟ ألأجل مليكة؟ لن تدعه يقتلها يا مروان صحيح؟ أجبني يا أخي لن تُقتل مليكة!

أخذ مروان تنهيدة آسفة ثم قال: لا أدرى كيف أخبرك بهذا ولكن..

تخطفت ملامح الرشيد بالقلق بينما يردف: أمر أبي بوضعك في السجن لأنه.. ليلة البارحة، رأى منامًا سيئًا، غاية في السوء ،حتى أظنه قد أفقده عقله، لقد بات يتصرف بغرابة لم أعهدها فيه قط.

- أي منام؟

- رآك وكنت تقتله.

بدا الرشيد كأنه لم يسمعه للحظات تسمر فيها متجهم الوجه، حتى خرجت ضحكة ساخرة لم تكتمل يقول: أقتله في منام؟ هه، ألهذا يضعني هنا؟

ثم تحولت فجأة تعابيره الساخرة إلى رعب في عينيه، رعب يدرك مروان معناه جيدًا.

قال: أقسم إني قد تحدثت إليه طويلًا، جادلته في الأمر حتى غلبته لكنه لم يستمع لي.

شرد الرشيد أرضًا بعينين ذاهلتين لا تصدق بينما يردف مروان: كما أنه تراجع عن أمره بتعيينك مستشاره الأول! وأظنه ينوي أكثر من ذلك.

ساد صمت شديد دون أن يصدر الرشيد أية رد فعل مكتفيًا بالتحديق الذاهل في أحجار السجن، كذلك ظل مروان ينظر حاله صامتًا لا يجد ما يقوله له.

قال الرشيد محدقًا: ألهذا الحد يكرهني أبوك يا مروان حتى يعاقبني على منام راوده؟ وما ذنبي في هذا؟ ماذا فعلت؟ ماذا فعلت سوى أنني خلصته من أسوأ كوابيسه، حتى أُؤخذ بذلك، ويبدأ كابوسي أنا.

- إنما كابوسنا جميعًا! الأمر يزداد سوءًا يومًا بعد يوم، هنا داخل القصر وفي العاصمة وخارجها وفي كل مكان كشاة يتكالب عليها قطيع من الذئاب فيه مهلكتها لا محالة، وما أظن غدًا بخير حال من اليوم.

انتفض الرشيد في مكانه قائلًا يتوسل: أخبره أني سأرحل بعيدًا، ولن أعود إلى هنا أبدًا فيأمن بذلك مخاوفه مني، ألم يكن يريد هذا؟

ليجيبه مروان: لا، هو يريدك هنا، لهذا أرسل في إثرك من يعود بك.

- وكيف بينما يضعني في السجن؟

صمت مروان للحظات صمتًا أدرك الرشيد معناه لتتسع عيناه اليابستان في صدمة!

صدمة أكدها مروان على مسمعه قائلًا: لهذا أنا هنا!

الرشيد في ذعر: لا، لن يفعل يا مروان صحيح؟

انفعل فجأة حتى بات على حافة البكاء مردِدًا: لن أبقى هنا ما بقي من حياتي، أليس كذلك؟

ليصيح بصوت دوَّى في جميع أرجاء المكان: ويحٌ لأبيك لقد جن يا مروان!

مروان معاجلًا: لعمري لقد جادلته في هذا حتى غلبته، لكنه ما عاد يسمع لأحد. وإني معاهدك يا أخي لا أبرح أنازعه في هذا حتى يعود عنه.

راح بكاء الرشيد يهدأ شيئًا فشيئًا مسندًا رأسه إلى الجدار عائدًا إلى شروده اليابس من جديد وبقي صامتًا لا يهمس بِبِنْتِ شفة، وكذلك كان مروان.

صمتا، وطال صمتهما، كأن كل كلام الدنيا لن يفيد.

بدا الرشيد وكأنه فقد إدراكه بكل شيء من حوله حتى أدرك مروان اليأس وقام عن جلوسه ببطء في أسف مراقبًا الرشيد المتسمر في مكانه دون حراك، أخذ نفسًا مرهقًا ثم استدار خارجًا من الباب.

- أخبره أني أقبل!

توقف مروان فجأة والتفت إلى الرشيد، ليجده لا يزال على حاله شاردًا في ثبات مسندًا رأسه إلى جداره.

ويقول مردفًا: أقبل أن أعيش هنا ما بقي من حياتي، وأكون له بالرأي والمشورة متى أراد ذلك! لكن على أن يدع مليكة وشأنها! على أن تبحث عنها أنت حتى تجدها وتضمن لها حياة آمنة بعيدة، أخبره أن ذلك شرطي الوحيد.

أغمض عينين امتلأتا بالدموع وقال: فإني أدين لها بواحدة!

أومأ مروان إيجابًا، ثم همَّ منصرفًا في أسف لكن كلمات الرشيد أوقفته مجددًا.

- وعليه أن يقبل به وإلا وقع ما يخشاه..

قالها ثم حال ببصره نحو مروان الذي لم يُخف وقع كلماته عليه من القلق حتى من خلف ظهره وأردف: وما منع عنه ذلك سجون الأرض كلها أو جنودها!

سمعها مروان ثم انصرف جارًا همومه خلف ظهره ليغلق الحارس من خلفه الباب، بينما يراقب الرشيد يعود إلى ما كان عليه.

ساكنًا شاردًا متجهمًا يابسًا مستندًا إلى الجدار.

***

سأله تقي: وهل قبل؟

ليجيبه: للمرة الثانية، لم يكن ليشكل هذا فارقًا!

ليقطب حاجبا تقي تمامًا كالمرة الأولى.

***

انفتح باب السجن مبددًا بضجيجه القوي ما ربا من هدوء ليدخل منه حارسان يفكان قيود الرشيد بينما لم تصدر من الأخير أيَّ رد فعل تجاههما وقد بدا شعره أكثر تناثرًا وجنونًا خاصة مع لحيته التي باتت أكثر طولًا وأقل تهذيبًا تليق بسجين قد مكث حتى تبدلت ملامحه وطرأ عليها الكثير، كما طغت تعابير قاسية على وجهه الذي بدت عليه نحولة شديدة أصابت بدنه الضعيف كعود أخضر ذابل.

حلة قاسية أضحى فيها الرشيد، حلة هي الأقرب لهيئته الحالية بينما يجلس في غرفته على كرسيه مشبكًا كلتا يديه في بعضها بعضًا رامقًا شمس الغروب البرتقالية تزول من الأفق البعيد.

يسأله تقي: كم مر من الوقت؟

- ثلاثون شمسًا أو يزيد.

تحرك به الحارسان يجوبون الممرات وقد أمسكاه من كلتا يديه بينما يسير بينهما مطأطئ الرأس دنيَّ الرقبة يقودانه في جولة استقرت به في محضر الحاكم الجالس على كرسيه في حلية وزينة يرمق الرشيد الواقف عن بعد منه في نظرات غريبة اجتمعت فيها الشفقة والخوف وغلب عليها الأخير.

أشار إلى الحراس أن ينصرفوا، لتفرغ قاعة المجلس الهادئة إلا عنه والرشيد ومروان الواقف إلى جوار أبيه.

حمحم الحاكم قائلًا في توتر تظاهر غيابه، وتردد صداه قائلًا: تعلم من أمر خافير وقول الناس فيها ما أخبرك به مروان.

لترتسم ابتسامة باهتة على وجه الرشيد أخفض لها مروان ناظريه نحو الأرض في قلق.

قام الحاكم عن مجلسه وأخذ يتقدم نحوه بخطى صلبة بينما يقول: ولقد طال انتظار الناس لقولنا فيها وفعلنا حيالها ما يذهب به قلق العامة ويسكن له بالهم، فما تَرى؟

بقي الرشيد صامتًا يكتفي بالنظر إلى الخليفة في جمود ليقطب حاجبا الحاكم مشيحًا بنظره إلى مروان في حنق همَّ له مروان بالحديث، لولا أن قطعه الرشيد قائلًا في ثقة كثقة المشاعل على الجدران المحيطة: قول الناس مخلطة الحق بالباطل، ولندرك ما علينا فعله حيال أمر، علينا أولًا أن نكشف حقيقته. أرسِل بعضًا من وزرائك إلى هناك، من خيرة من تثق بهم، يستطلعون حقيقة ما يقوله الناس عنها، ويتبينون حقه من باطله، على أن يكون أمر خروجهم سرًا لا يعلم به أحد سواهم، فإن كان فخًّا أعده عدو باطن أو تدبيرًا أحكمه مكيد غفل عن خُطانا فلا نقع فيه كما وقع غيرنا، ثم ننتظر حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ونرى بم يرجع المرسلون؛ فنسترشد به ونحكم استنادًا عليه.

ليعقب مروان متحمسًا: نِعْمَ الرأي يا أبتِ.

بينما أومأ الخليفة إيجابًا في شرود.

***

ما عدت أراه أبي، إنما عدو يأسرني ويستعبدني ويريد قتل مليكة. في ذلك اليوم وبعد أن غادرت حضرته وعدت إلى حيث كنت، أخبرني الحارس برسالة تركها مروان لي، يقول إنه سوف يأتيني في نهار دون علم الحاكم.

مكثت في انتظار مجيئه لأيام من شروق الشمس إلى غروبها، ومن غروبها إلى شروقها حتى جاء ذات نهار.

***

قال مروان في اغتمام وقد أسند رأسه إلى الجدار واقفًا إلى جوار الرشيد الجالس في ركنه كالمعتاد: تحدثت إليه مرات ومرات، لكنه لا يقبل أبدًا، لم أره خائفًا هكذا من قبل برغم أنه دائم الخوف كالهر الشارد في الظلمة، لقد شاخ أبوك يا رشيد وهرم وأصابته نوائب أرذل العمر، وقد عجَّل بذلك ما نحن فيه.

بدا الرشيد غير آبهٍ لحديثه الطويل عن الحاكم وجهوده التي بذلها، لرده عن قوله حتى انتهز فرصته الأولى من الصمت وقال شاردًا: ما أتى بك يا مروان؟ هل أدركت من أمر مليكة شيئًا؟

ليجيبه مروان في أسف: لقد أرسلت في إثرها من خير المتتبعين ومقتفي الأثر ممن لم يرسلهم الحاكم، معهم رسل يسألون أهل كل مصر وقرية، لكن لا أحد يعلم من أمرها خبرًا، كأنها قد حالت غبارًا يدور في العاصفة.

سكت لحظات ثم أردف مترددًا: أغلب الظن أنها قد ماتت، وربما دفنتها العاصفة.

بينما لم يبد الرشيد وقد سمع ما قاله حتى، لكنه كان قد سمع.

قال: اذهب وابحث عن مليكة يا مروان، ابحث عن روح أخيك، ولا تعد إليَّ إلا وقد وجدتها، وإن لم تعد أبدًا، فهو خير من رؤيتك ودماء مليكة على وجهك.

تحرك مروان في أسف متجهًا صوب الباب وقد أبطأ اليأس خطواته وأثقلها قسوة قول الرشيد وقسوة ما يعانيه الجميع، والأسف ما حال إليه الأمر.

انصرف بينما يردد الرشيد في الجدار: لقد قتلتم مليكة، تركتموها تذهب أدراج العاصفة.

يردد ويرتجف صوته بما يردد: اللعنة على الرياح والرياحين، اللعنة على العواصف والأعاصير، اللعنة على الأعيان والرشيد.

وفي الممر اصطبغت الجدران بلون أحمر قاتم خالطه سواد حالك إثر غروب الشمس خارجًا بينما يتحرك فيه مروان مبتعدًا شيئًا فشيئًا وكلمات الرشيد المستمرة تتسبب في شعور غريب يخترق قلبه قبل أذنيه يزيد في ملامحه جمودًا فوق جمود، وفي حركته شرودًا فوق شرود.

قلب مرتبك يرى كل شيء بالٍ وصدئ وكئيب.

وصوت الرشيد يدوي، يخالط أضواء الغروب: اللعنة على الأعيان والرماديين، اللعنة على العواصف والأعاصير..

اللعنة على الأرض وخافير..

***

لم يعد مروان، ولم يعد غيره، مرَّ الكثير لم أسمع فيه شيء من نبأ القوم، لا أعلم من مات ومن نجا ومن ذهب أدراج الرياح، من عاد ومن خرج ومن كُتبت له الحياة.

وخارجًا، لم تكن أخبار مليكة هي الوحيدة التي انقطعت، لذلك رأيت مروان، جاءني لزيارة أخرى أخيرة، تلك التي حدث بعدها ما يعرفه الجميع!

***

- أعلم أنك لا ترغب رؤيتي.

قالها مروان مخاطبًا الرشيد الذي بقي على موضعه كما لو أن ستين يومًا لم يمضوا، عدا من حالته التي ازدادت رثاثة ولحيته التي زاد نماؤها وملامحه التي ازدادت ذبولًا وقوامه الذي ازداد نحوله.

قالها في ضيق ثم سكت فجأة للحظات صاح بعدها في حنق تردد صداه في كل السجن: كُفَّ عن ملامتي كأنني السبب فدتك نفسي، والله إني لأتألم لحالنا ألمًا عظيمًا، أنا لم أعد أعرف النوم!

ليخرج صوت الرشيد صلدًا كأنما أصابه الصدأ: ما أتى بك من جديد يا مروان؟ هل أرسلك مولاك الخليفة تسألني في أمر جديد؟ هل ملَّ سحبي من قيودي وسوقي حتى مجلسه فأرسلك في مشورتي هنا؟ أم أنه أرسلك في قتلي هذه المرة؟

أثارت كلماته غضب مروان حتى همَّ ليصيح في وجهه، لكنه تمالك نفسه وأحكم لجام ثورته فما كان هذا إلا أن زاد وضعه سوءًا فوق سوء.

مروان مجاهدًا الهدوء ومواجهًا الخوف والحزن: قافلة الوزراء التي خرجت إلى خافير..

سكت لحظة بدا فيها مشوشًا ثم قال في يأس خالطه الوجس والحيرة في مزيج طغى على صوته حتى خرج يثير القلق: لم يبعثوا برسالة واحدة منذ خرجوا، ولم يعودوا حتى اللحظة، اضطررنا لفضح أمرها، وإرسال من يبحث عنهم ويسأل أهل أمصار الطريق الذي سلكوه، الجميع رأوهم حتى عبروا النهر، وما إن فعلوا حتى انقطعت آثارهم ولم يرهم أحد بعد ذلك، أرسلنا المتتبعين والأدلة وجند للبحث، لكن لا أثر لأي منهم، كأنهم قد اختفوا.

- أواثق أن أمرهم بقي سرًا؟

أجابه في حيرة: كل الثقة! وما إن علم الناس بالأمر حتى تعاظم خوفهم واشتد يسألون عما حدث للوزراء، وبعد ما حدث للأعيان والرماديين يظنون أن في ذهابهم تباعًا سرًّا ما، أهل الوزراء وأشياعهم الغاضبين، مهامهم التي باتت شاغرة، وثقة الحاكم التي تبددت في الجميع، كل شيء يسير نحو الجنون!

شرد الرشيد مفكرًا وساد صمت جديد خيم على المكان حتى تحرك الرشيد فجأة قائلًا لمروان: مُر الخليفة فليُخرج نصف الجيش وليتوجهوا نحو خافير فإن كان عدوًا متربصًا كانوا عليه حتى غلبوه وقُضي الأمر، وإن كان غير ذلك، فأيًّا كان لن يهلك نصف الجيش أو يختفي على أي حال، على الأقل دون شاهد واحد يعود!

أجابه مروان في اضطراب: ومن سيخرج على رأس الجيش؟ الجميع خائف، ولن يقبل الخليفة بالخروج مهما حدث كما لن يقبل بخروجي وتركه، ونافع، ما أدرى نافع بشؤون الجيش وأموره؟ الجميع إما أن يأبى بالخروج أو لن يسمح له الحاكم بذلك.

- لكنه سيقبل بخروجي.

قالها ليصيب بها مروان بصدمة عارمة، زادتهما عيناه المميزتان عنفًا.

- ما تقول؟

الرشيد: أقول ما تسمع، سوف أخرج أنا على رأس الجيش، وبهذا سيقبل أبوك، ولولا أنني لا أملك درهمًا لقامرتك على هذا.

قال مروان مجاهدًا رَدْعَ الصدمة وصد معالمها عن وجهه دون جدوى: أنت تلقي بنفسك إلى مهلكها يا أخي!

- لا أراها إلا واحدة خيرًا من أخرى.

صمت لبرهة ثم أردف: فلو أني لم أعد، فإن بانتظاركم عظيم يا أهل الرماد!

قالها لينعقد لسان مروان في صدمة.

***

سقطت قطع حديدية على أرض السجن كان لها وقعٌ في نفس الرشيد الذي أخذ ينظر رسغيه ورقبته وقد تحررا من القيود أخيرًا!

سقط بهدوء أكثر بدنه في حوض المياه الذي انطلق دفؤها يداعب جسده المرهق وينعش أنسجته الجافة، أخذ يغوص فيها شيئًا فشيئًا في هبوط أغمض معه عيناه حتى غمرته المياه بالكامل.

وقف أمام المرآة في لحيته المهذبة وشعره المصفف وزيه النظيف بوجه جامد عابس بينما أخذ الجنود يضعون على صدره الدروع ويربطون حول خصره الأحزمة، وآخرون يتوجون رأسه بخوذة حديدية لامعة، صلبة كالتعابير في عينيه المنعكسة في المرآة.

وضع يده على مقبض سيفه الراقد في غمده متدليًا عن حزامه بينما يتحرك في الأروقة يتتابع من خلفه عدد من الجنود.

عدد لا يضاهي شيئًا أمام من اصطفوا خارج سور القصر في فناء القلعة وأرجائها وما حولها يتقدم بينهم الرشيد في جمود ملامحه، يفسحون له الطريق بين الجنود.

تسارعت نبضات قلبه مع صعوده حصانه في مقدمة الجيش الذي بلغ عدده عشرات الآلاف حتى تقدمت حوافر جواده يترنح معها ظهره ومن خلفه تترنح الصيحات ويتحرك الجميع.

بينما ترتب الجمع ينظرون مشهدهم المهيب، في الساحات وعلى الأسطح وأعلى الأبراج والأسوار وفي النوافذ والدهاليز والأسواق وفوق القمم.

في مشهد أغمض له الحاكم عينيه من نافذة قاعة المجلس بينما ارتبكت له أعين مروان المضطربة على أرض الفناء قبل أن تسري في جسده برودة قاسية ما إن التفت له الرشيد في نظرة جامدة تلقي بوداع أخير، تمامًا مثل المرة الأولى، لكن شيئًا ما كان يميز هذه المرة، شيء في عين الرشيد.

بينما أخذ الحاكم يدور حول كرسيه الضخم يتحسس فخامته ورونقه منتشيًا حتى جلس عليه، وعاد برأسه إلى الوراء في هيبة آخذًا نفسًا عميقًا طويلًا كأنه تخلص أخيرًا من حجر كان مترسخًا في صدره.

فتح عينيه وأخذ يرمق قاعته الفارغة في جمود في الوقت الذي أسدل فيه نافع ستار نافذة غرفة مروان في هدوء سار به داخل الغرفة حتى وقف إلى جوار مروان الذي جلس على طاولة قريبة شاردًا في قلق.

قلق كالذي سكن وجوه أولئك الناس الذين وقفوا على أبواب العاصمة يشهدون خروج الجيش بينما تحتضن الأمهات أطفالهن في خوف، وتتبادل الرجال الأنظار في وجس.

وعلى قمة تل قريب كان الشيخ ذاته صاحب الواحة ممسكًا بعصاه نفسها بينما تطيح الرياح بشعره المتدلي عن قلنسوته ولحيته البيضاء قبل أن يهرول هابطًا من التل.

لم يكن ليتحدث حين فتح له أحدهم الباب نفسه في الدار ذاتها، بل كانت تكفيه عيناه وتنوب.

عينان تقولان إن حان الوقت.

أفصح عنها ارتعاده ليجاب بصمت واجس من قبل الآخرين ينتشرون داخل الدار على المقاعد والجدران والنوافذ يطالعون جهات مختلفة في شرود واحد.

حدق إليه الناس في صدمة حين عادوا من مشاهدة الخروج، ليتجمعوا في فضول حول بقعة إلى جوار القلعة انشغل فيها عدد من الجنود بالحفر وعلى الأرض كان شاهد حجري أبيض كُتب عليه اسم الرشيد بن يزيد الحاكم، غزا وجوههم حين رأوه بخليط من رعب التوجس والضغينة لشين فعل الحاكم ولم يمر على خروج الرشيد إلا سويعات.

سويعات استغرقها عشرات العرافين في الدار البعيدة حتى تجهزوا وأخذوا يتلفتون في استعداد، أشاح كل منهم بوشاحه الداكن حول رقبته ثم انطلقوا يخرجون من الدار واحدًا تلو الآخر في وجهة يعرفونها جيدًا انتظروها لمدة طويلة، وجهة كانت آثار الجيش العابر على الرمال دليل إليها وعلامة تسوقهم لها، لينقسما فرقتين ينطلق بعضهم خلف الجيش وينطلق البعض الآخر نحو أبواب العاصمة.

توقف عدد من البعض الآخر في شرود يرمقون البعض المنطلق خلف الجيش في أعين تتخم بلوعة الفراق وعظيم القلق قبل أن يجذب بهم المنطلقون منهم لترك وقوفهم ومواصلة الحراك.

في الوقت الذي هب فيه مروان واقفًا في مكانه ينظر إلى خادمه في صدمة عارمة لا تعرف التصديق، عقبتها هرولة سريعة في ممرات القصر ذات خطوات قافزة جنونية كالنظرات في عينيه بينما يقف في ساحة القصر ينظر إلى الهودج الذي وصل القصر للتو يتسع لمرآه فمه في ذهول كما اتسعت عيناه قبل أن تنقطع أنفاسه فجأة ويتسمر في مكانه ساكنًا دون حراك رامقًا ما أتى به الهودج في غير تصديق!

****

البوح الخامس

ضرب من الجنون

هدوء تام وصمت شديد عدا من هذه النغمات من الأنين وأصوات الشجن لبكاء هادئ مخيف راح يتعالى من صدر الخليفة الرشيد الذي أطبق ذقنه على صدره في حال كان ليكون هو التسمر عينه لولا تلك الهزات العنيفة لصدره.

بينما تجمد من خلفه تقي شاردًا بلا حراك يطالع الرشيد في فزع وذعر، يمناه إلى جوار الكتاب ترقد في شلل تام بينما بُعثر القلم بين أصابعها كأنما تفجرت به يداه من فعل صدمة، تميل إلى جوارها المحبرة مسكوبة قد أعربت عن صدمتها، وأطلقت سراح حبرها لينطلق مسكوبًا إلى العنان يسبر الأغوار حتى الحافة التي أخذ يتساقط منها إلى الأرض دون اكتراث من أحد.

بدا كل شيء داخل الغرفة مصدومًا مرعبًا بينما تدق السماء خارجًا الدقائق الأخيرة من النهار وتتنهد الشمس أنفاسها الأخيرة، تنشر ضوءًا بدا مرعبًا داخل الغرفة التي لم تُضاء مشاعلها أو قناديلها بعد.

ووابل من الأسئلة يدور لدى الجدران الباردة..

ما الذي حدث هنا؟

***

دقائق أخيرة من النهار جلس شاهد يرمقها من غرفته على أريكة إلى جوار نافذة سقطت عليها بعض من أضواء الغروب، بينما يمسك في يده كأسًا نحاسيةً راح يهتز بها جسده في توتر واضح وقد ارتكزت عيناه تطالع موضعًا بعينه من الأرض يتقافز فيه قلق عارم ينبعث من كل مكان.

قبل أن تتحرك أنظاره فجأة من سباتها تطالع العديد من الأشياء حولها في آن واحد كأنما خرج لتوه من نوبة تفكير غائر.

لم يبقَ الكثير من الوقت حتى حلول الليل.

تعالت فجأة صوت دقات على الباب لترتكز عيناه عليه قائلًا في قلق: من؟

قبل أن ينفتح باب الغرفة ويدخل مهاجر بوجه متجهم يحمل بعضًا من قلق شاهد نفسه الذي ربما هدأ بعضه فور أن رآه، أو أنه قد تبدل إلى صورة أخرى مغايرة غير مفهومة جعلته يخفض رأسه قاطب الحاجبين.

تقدم نحو شاهد في إرهاق واضح انتزع به الكأس من يده وتوجه صوب النافذة إلى جوار شاهد يقول: إذًا أنت أيضًا لم تنم! منذ متى تشرب الخمر يا شاهد؟ لقد غيرتك الإمارة.

- غيرتنا جميعًا.

نظر إلى الكأس فإذ بها زهور البابونج تستقر في قاعها. إنه يبحث عن النوم. رمق علامات الأرق والاضطراب على وجه شاهد ثم رفع الكأس يرتجف منه بينما ينظر من خلال النافذة.

سأله في يقين بالإجابة: هل أنت خائف؟

ليجيبه شاهد بعد لحظات: أكثر من أي وقت مضى.. لم تطرف عيناي منذ البارحة.

– أوتعلم ما يشغل تفكيري بحق؟ هذا العراف.. أعني كيف؟ هذا ليس زمان العرافين!

– العرافين لم ينتهوا والعرافة لم تنقطع، الجميع يعرف هذا جيدًا، إنهم فقط هاجروا! وما هذا بالأمر الذي يشغلني.

– وما يشغلك إذًا؟

– لا أعلم، كل ما أعلمه، هو أن كل شيء في حياتنا على وشك أن يتغير إلى الأبد، ولا أحد يعلم كيف ستكون حُلَّة أيامنا الجديدة.

تجهم مهاجر وعاد إلى النافذة من جديد صامتًا.

قبل أن يقول: في بعض الأحيان، أتمنى لو أن هذه الليلة تنقضي بسرعة، لأعرف أخيرًا من اختاره أبي لولاية عهده، وكذلك السر وراء أمره بكتمان من يخلفه في عهده وإخفائه لكتابه في هذا الشأن حتى ساعة موته، لا أبرح أسمع حجته في أمره هذا حين قالها: «إنه عهد، وحين أموت سوف تعرفون.. لا داعي للعلم بهذا الآن» ثم لا أصدقه! في بعض الأحيان، حين أفكر أجد كل الدلائل تشير إلى شخص واحد، مروان، هو الوحيد الذي أبقاه لشؤون العاصمة ولم يسند له إمارة مثلنا.

ليجيبه شاهد متعجبًا: مروان؟ محال أن يكون هو! أنت تعلم بما بين أبيك ومروان.

– أجل أعلم.

صمت كلاهما للحظة حتى قال شاهد شاردًا: لم أعرف يومًا أَحْكَمَ من أبيك وأرشد وأصوب للرأي.

ثم مردفًا بينما يتقافز الخوف في عينيه:

– وأعجب منه حالًا!

ثم مستطردًا: قبل سنوات خرج الرشيد على نصف الجيش متجهًا إلى وراء النهر، إلى صحراء الخيزران البعيدة، حيث خافير التي قيلت عنها الأقاويل وارتعدت لأمرها كل الأرض، ما كان يعود منها أحد ذهب إليها أبدًا، حتى قافلة الوزراء التي أخرجها جدك والتي ما كان يعلم بأمر خروجها أحد وما إن عبرت النهر حتى اختفت كأنها لم تكن، ولا يعلم أحد ما حدث لها حتى يومنا هذا.

وبعد خروج الرشيد بسبعين يومًا..

سكت لحظة ثم تابع: بلغ العاصمة خبرًا مفزعًا، طاعونًا تفشى بين أفراد الجيش حتى أباد منه أكثره، وأصيب الرشيد بحمى شديدة مات على إثرها ودُفن حيث فارق الحياة، بعدها عاد من تبقى حيًّا من الجيش إلى العاصمة وهم قلة لم يبلغ عددهم الأربعين حاملين رسالة من أبيك إلى جدك الحاكم، أوصى بها

قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، رسالة جاء فيها: في تلك القرية سِرٌّ يا أبي، سر أكبر من أن يمكن البوح به، سِرٌّ عظيم!

أصاب الحاكم خوفًا شديدًا حتى أنهم يقولون إنه فقد عقله، ولم يكن كل ما حدث إلا مجرد البداية.

فبعدها بأيام اختفى عمك نافع حتى عثر الجنود على جثمانه ميتًا بالغرق في بحيرة قريبة ولا يعرف بأمره أحد، أصاب الحاكم حزنًا جمًا لأيام حتى مرض مرضًا شديدًا غامضًا، حار فيه حكماء البلاط، مرض ألزمه فراشه حتى وافته المنية مختنقًا بمرضه.

بعدها تقلد عمك مروان مقاليد الحكم وبويع بالخلافة، ولم يمكث الخليفة الجديد في قصره سوى يوم واحد، ولم يلبث أن خرج بما تبقى من الجيش وقد أقسم على حرق تلك القرية عن بكرة أبيها.

ومن حينها لم يعد أو نفرٌ من جنده إلى العاصمة من جديد، حتى لقب الناس مروان بن الحاكم (خليفة اليوم الواحد).

بدا خوفه وقد تعاظم واشتد بينما يردف متعجبًا: ومن عاد وحده، يصارع وديان الصحراء على ظهر دابته، دون سلاح، دون زاد أو عتاد أو متاع. كان الرشيد بعد أن قيل قد مات، رمادي أخير لا يبوح بشيء مما حدث خلف النهر، وبقي ما حدث هناك على أرض الخيزران سر لم يكشفه أحد، ثم كان بعد ذلك من أمر النبوءة ما كان.

مهاجر وقد استبد به القلق: أتظن أني لا أعرف تلك القصة؟ بربك، من لا يعرفها؟

ليملي شاهد عليه مقصده قائلًا: مرت على هذه الأرض أهوال تعد ولا تحصى، تحصد في كل مرة أكثر من سابقتها، ودائمًا كان أبوك هو الناجي الوحيد، من يعيش ليروي، ولم يكن مرة من يروي عنه.

أخذ مهاجر زفيرًا طويلًا كأنما يحاول به التنفيس عن قلقه الذي أحدثته كلمات شاهد ثم قال: ولكل ما يُروى نهاية، شئنا أم أبينا، علينا احتمالها!

***

تسلطت شمس الظهيرة على صفوف الجنود ينعكس ضوؤها على صفائح الدروع اللامعة للصفوف الأولى من المقدمة التي خلفت وراءها جيشًا مهيبًا من الفرسان ممتطي الجياد، والمبارزين ممتطي الأرض.

وفي مقدمة الجميع كان مروان وقد حل به الكثير بعد ما طرأ من تغيرات في الآونة الأخيرة، حتى تغيرت ملامحه وتبدل شكله، الذي ازداد قسوة، تلك القسوة التي هي صورة من صور الحزن، تغلظت لها ملامحه وباتت بها عيناه كرمحين عتيقين أسفل حاجبين منعقدين كأنهما لم يُبسطا يومًا!

على خاصرته سيف عظيم تلَبَّس غمدًا ضخمًا، إلى جواره ومن خلفه عن اليمين واليسرة بعض القادة.

توسط هذا الجمع رحاب صحراء مميزة، بيضاء حباتها شديدة البياض كأنها صحراء قد كُفِّنت وتستعد للدفن، إنها صحراء الخيزران التي يُحكى عنها الكثير من الحكايات.

خيَّم توتر كبير على الأنظار بين مروان والقادة وحتى أكثر الجيش، صمت شديد، يسيطر على كل شيء هدوء أو ارتعاد، يظهر بعض الملل على وجوه الكثيرين مختلط بالخوف والقلق بينما استهل مروان ومن

معه يطالعون الخيزران في تفقد كأنهم بانتظار أمر جلل يخرج لهم من بين الكثبان.

ثم كأنه قد وصل أخيرًا.

حين ظهر من بعيد فارس يقتاد الريح على ظهر الجواد، يركض بخيله في سرعة كبيرة صوب مقدمة الجيش، استغرق دقائق حتى وصل قرب هدفه، ترجل عن فرسه وركض هلعًا إلى الخليفة مروان مباشرة الذي تفقد في ملامحه ذعرًا أثار رهبة الجميع، رهبة تبادلوا بها النظرات حتى وصل.

ليقول لاهثًا كأنه يصارع أنفاسه: أدرك يا مولاي الخليفة!

ليسأله مروان مقبلًا بحزم: ما هنالك؟ هل أبصرت خافير؟

فيجيبه الشاب في ارتعاد: لا، بل كانت خافير لا تزال بعيدة جدًا عن الموضع الذي بلغت.

- ويحك! وما أعادك إذًا؟!

- في الطريق شهدت..

تزاحمت الأنفاس في حلقه حتى عجز معها عن الحديث ليصيح به مروان: ماذا شاهدت؟ تحدث، تحدث، وإلا ضربت عنقك!

ثم لم يكن له أو لحديثه فرصة ثانية!

انبسطت جِبَاه القادة وتجهمت وجوههم في فرط من الصدمة ألجمت ألسنتهم يتبادلون الأنظار بينما انحلت عقدة حاجبي مروان في أقسى تعبير يمكن رؤيته مطلقًا على ذلك الوجه وتلكم العينين المرتعدتين.

حين أخذت تهتز فجأة كل الأرض من أسفل أقدامهم وتتعالى صيحات قادمة من بعيد. أصاب الحشد من الجنود وابل من الخوف، وتعالت أصوات عدة مختلطة تتسلل إلى مسامعهم بينما يحدقون بغير تصديق وقد اتسعت أعينهم عن آخرها.

يرمقون الجنود الذين أحاطوا بهم من كل جانب، يهبطون عليهم من كل حوب ويخرجون من خلف الكثبان وفوق التلال، يرمقون أسهمهم المشحوذة وأسيافهم العاليات، وأزياءهم المشابهة!

ثم وجوه ألفوها بعد الأثواب، وصدمة عارمة حلقت فوق رؤوسهم.

يحاصرون من جند الرشيد، الذي تجهم له وجه مروان، وتجمد فور أن رآه يشق صفوف جنده بارزًا إليه لحمًا ودمًا!

حتى حين تم الحصار سكت الجميع، وتسمَّر في مكانه، وأخذوا يراقبون وجهي مروان والرشيد، يتبادلان الجمود والصمت كلٌ في مقدمة جيشه!

***

تجلى السكون على كل شيء في ذاكرة الخيزران. وتجلت الحركة على الرشيد يخلع سيفه عن خصره ليلقي به على الأرض قبل أن يتخذ خطوات استهلها بارتباك يتوجه نحو طائفة مروان الذي ارتجفت عظام وجهه متجهمًا بينما يتبادل القادة من حوله نظرات مضطربة بدت على قدر كبير من الارتباك كذلك. قبل أن يقطعها مروان بحركته مترجلًا في هدوء عن ركوبه.

دفع باللجام دون اكتراث ثم أخذ خطوات ثقيلة أنجزها بسرعة يتوجه إلى الرشيد المقبل إليه.

حتى التقى كلاهما في منتصف المسافة بين الجيشين.

بديا للحظة كزوج من المجانين يطالع بعضهما بعضًا، حَدَّقا في صمت وأطالا التحديق لكنه صمتٌ أبلغ من أي لغة.

وبينما كان تحديق الرشيد ترقب ورهبة تجلت واضحة في عينيه وضوح المنارة في عرض المحيط، كان تحديق مروان عُريا لحقيقة قاسية في عينيه راحت تصول في رأسه وتجول.

رمق يدي مروان المرتجفة على مقبض السيف في خصره وقال: اشتقت إليك يا مروان.

لم يتلقَ إجابة، ولم يتوقع أن يجد.

أعاد في صوت تحذير وعين آسفة: إن قتلتني، لن ينجو أحد من هنا.

– لهذا قلت بخروجك على الجيش.

قالها مروان في حزم بينما تجهم الرشيد.

أردف: لقد قتلت أباك، بعثت برسالة لا تفصح عن شيء لكنها تحمل سُمًّا أمرضه، قتلت الحاكم ونافع ومن قبلهما من عارضك من الجند في خطتك، ومن قبلهم جميعًا من لم تضمن ولاءه من وزراء القصر، خيرهم لدى أبيك وأكثرهم عدولًا إليه وثقة، ومن قبل الأعيان والرماديين، لقد دبرت لكل شيء، انتقمت من الجميع، والآن حانت ساعة مروان، آخر من تبقى!

هلع الرشيد متداركًا: كلا، كلا والله، لن تمسني بالسوء فدتك نفسي.

ثم مضطربًا: لعمري لست من قتل نافع، ولم سأفعل؟

– وأبوك؟

– كان عليه أن يترك الحكم، كان في الرسالة مرضًا ينتظره، لكن ما كان في الحسبان أن يموت، إنه قدره فحسب.

ثم جاهدًا الثبات يرتجف صوته: أنت لا تعرف شيئًا يا مروان، لقد عرفتُ كل شيء.

– لقد أفسدت كل شيء.

– عليَّ أن أكون الخليفة.

– لن تحكمها يا رشيد، وإن فعلت، فلن تحكم إلا أرضًا ملطخة بالدم، متقدة بالنار كأرض أسلم، أرض لا هناء عليها.

– إن لم أفعل، فلن تكون هنالك أرض يا مروان.

– أنت كذاب أَشِر، لطالما كنت كذلك، منذ ولادتك.

– ارحل يا مروان، ارحل إلى أرض بعيدة، إلى أبعد ما يمكنك ولا تعد. علمت بأن أصبح لديك زوج وولد الآن، مبارك لك.

- تعسًا لك.

- هما في أمان حتى تخبرني بالأرض التي سكنت، فأرسلهما إلى حيث أنت.

علت وجه مروان ابتسامة باهتة أخذت تزهو حتى تحولت إلى ضحك جهور، يبعث بالرعب في نفوس من يراه أو يسمعه.

التفت متبسمًا لصفوفه البعيدة وقال: أأرحل، وجنودي؟

- لن تقوم معركة هنا يا مروان!

تلاشت ابتسامته مشتعلًا بلهيب الغضب بينما يردف الرشيد: ارحل واحقن الدماء، جنودك محاصرون، وأنت أعلم بمآل هذا.

التفت ثانية نحو جنوده وجنود الرشيد من حولهم في كل مكان، ثم عاد باصرًا الرشيد من أمامه، ونيران الكمد تشتعل بصدره حتى تختنق به أنفاسه.

اقترب منه الرشيد حتى دنا وقال: خذ ما شئت من الدواب والمتاع واذهب إلى حيث تشاء، وأنا على عهدي إليك بزوجك وولدك.

بدا له مروان ناظرًا الأرض من تحت أقدامهم، بينما كانت أنظاره على الموت المعلق حول خصره.

يبلغه صوت الرشيد هامسًا: اغفر لي يا أخي، اغفر لي!

ومن بعيد، من بين صفوف الجنود، ما كان الصوت ليبلغ مسمعًا والرؤية لتبلغ كاملة مفصحة كأنما حجبت كل تفاصيلها بحجاب، فلم يبدُ منها إلا مروان يبصر الأرض أمام كلمات الرشيد.

يخلع خوذته والدروع على جسده في استسلام تعجب له الجمع من حوله.

ألقى بما لديه من أسلحة وعتاد على الأرض بينما ارتجفت عينا الرشيد بدموع ملتهبة كتمها للكثير من الوقت حتى تساقطت قسرًا.

حدَّق بها إلى مروان ينظر إلى عينيه ليجدها للمرة الأولى جامدة خاوية لا تفصح عن شيء كأنما عليها حجاب.

تقلصت خطواته وراح يبتعد عائدًا إلى جنوده في خطى مرتبكة بطيئة لم يُخفَ الألم فيها.

بينما أخذ مروان يحدق إليه من خلفه كأنما يحدق إلى الشيطان من أمامه.

نزع غمد السيف عن خصره، آخر ما تبقى من عتاد ليلقي به على الأرض كسابقه، لكنه سقط على الأرض خاويًا منزوع السيف!

دبَّت الحركة فجأة في صفوف جميع الجنود منطلقين من أماكنهم وقد أشهروا أسيافهم، ليراهم الرشيد فتتسمَّر أقدامه في الأرض!

في الوقت الذي انطلقت فيه أقدام جنود مروان وصيحاتهم، ما إن تحركت جنود الرشيد. ليعم المكان فجأة ضجيج مخيف، التفت به الرشيد ببطء ليرى مروان يركض نحوه شاهرًا سيفه صارخًا كالمجنون، حمرة عينيه وغلظة الغضب فيهما كأن شيطانًا قد تلبسه.

شيطان راح يميل عند كل جانب، يهدم بروج السكون المشيدة، لتخرَّ في فوضى عارمة، يركض فيها الجميع دون هدنة كأنهم على أعتاب حرب طاحنة دارت رحاها في قلبي مروان والرشيد ووجهيهما، ترتجف أقدام الأول في ركض كأنه هبوب عاصفة بينما ترتجف أقدام الأخير في موضعهما على الأرض، يرمق مروان وسيفه على بعد خطوات عجز أمامها عن الاستيعاب الكامل لحقيقة ما يحدث من حوله.

حقيقة صرخت في عنان السماء بمصير تتناطح فيه حيوات الجميع، وضجيج مرعب أخذت تهتز له الأرض في كل مكان.

قبل أن يسقط فجأة سهم طائر من إحدى الفرقتين، لينفذ في رأس طاح بجسده هاويًا على الأرض بعنف توقف له كل شيء في ذهول!

***

بعد حين..

كانت الشمس الحمراء تتعلق في الأفق تتخاذل كما تتخاذل الأقدام على الأرض.

الدماء في كل وادي تسيل والرؤوس المتناثرة والجيف الراقدة كأنها أحجار سقطت من السماء في كل مكان.

في أرض الخيزران البيضاء التي لم تعد كذلك. تجسد الرعب لساعات حتى سكتت بعد صياح طويل، طال حتى ذهب صوتها وسكنت ريحها وخمد فيها كل شيء.

ولم يبقَ حي فيها إلا صدمة تجلت على وجه الرشيد خرج من بين الضباب الكثيف المحلق في سماء المكان يطوف بها بين الدماء وعشرات الآلاف من الجثث والقتلى، ينظر من حوله في فزع كأنه يرى الجحيم ووادية أو الشيطان ونادية.

كل شيء مخيف وغريب، كل شيء أحمر تكسوه الدماء!

انقطعت عن عينيه كل العلامات فجأة كأنها فقدت نورها وبات مجرد جسد منهك يحدق إلى جيفة مروان الراقدة أمامه على بعد خطوات أخذها في ارتعاد ووجس ودموع متساقطات يراه من أمامه مغمورًا في الدماء.

انهار جسده أمام جيفته جاثمًا عليه في كمد، تأمل عينيه والفزع فيهما، وراح يرتجف بينما يحمله عن رقوده ضامًا ما بقي منه دون التهام إلى صدره.

قلبه الثاكل راح يتخم، وعيناه المصدومتان تتهدمان في أسى. نيران أخذت تشتعل في صدره يتصاعد لهيبها حتى حلقه المرير الجاف.

يدفعه ألمه إلى البكاء وتصده صدمته والكمد في صدره عنه حتى بدا كأنه يترنح على أرض الجنون.

لا أحد هنا، ولا أحد هناك، القصر في العاصمة خاوٍ، والصحراء مكتظة بالجيف، الجميع قد رحل!

كيف سيعود؟ وإلى من سيعود؟

أخذ كل شيء حوله في الابتعاد. الأرض من تحته تغور كأنها تسقط في جوفها، والصحراء من حوله انطلقت تحلق بعيدًا كأنها تغيب مع الشمس.

حتى انكشفت أمامه حقيقة أرض الخيزران صارخة، موطن الألم في كل الأرض.

***

انغلقت عيناه تسكب ما امتلأت به من الدموع وأنين هامس يخرج من جوف صدره يزاحم كلماته التي لفظها بعد صمت طويل: إخالني أراه في كل مكان من حولي، في يقظتي ومنامي، في صحوتي وغفوتي، كم أتمنى لو أنه بقي وغادرت، لو أنه لم يترك لي تلك الأرض المحكوم عليها بالهلاك.

مختنقًا بدا مجاهدًا الإمساك عن البكاء قائلًا: لم يكن الذابح على فتنته أكثر حكام هذه الأرض جنونًا، لقد كان هناك من هو أعظم وأشد بلاءً منه، من الرماديين وغيرهم، من قرأ التاريخ جيدًا لم تكن أفعال الذابح أو غيرها لتثير عجبه، فقد جن جنون زاهد من قبل وأراق دماء كل من وقع عليه بصره في بلاطه، وأضرم زيد النار في أبنائه الاثني عشر وأحرقهم جميعًا في قلب حجرته غافلًا عن صوت صراخهم الذي أرعب العاصمة لليلة كاملة، وأجرم كليم في حق نفسه ملقيًا بجسده من فوق أشهق أبراج القلعة ارتفاعًا، وخرج المازني يقاتل الناس صارخًا فيهم: لعنكم الله قوم سوء، وأخذ مردًا لها يقاتل بسيفه من يراه حتى خرج من العاصمة تاركًا من خلفه كل شيء، شيء ما في هذه الأرض وأهلها يثير جنون من يسكنها، يتسلل إلى دمائه حتى يفقده عقله، وجل ما كنت أبغي أن يستقيم حالها.

لو أنه ما زال حيًّا، أما كان أغناني عن هذا؟

وبينما حدق تقي في صدمة انسكبت دموع الخليفة كانسكاب الحبر من دواته باكيًا في حرقة: ويلاه يا أبنائي! ليتكم تشعرون بما أشعر، تعلمون كم أردت لهذا أن يتوقف، أن يتبدل، أن ينتهي ولا يبقى منه شيء، ولكن أنى له؟

أخذ به البكاء يعتصر الدموع من عينيه كما يعتصر الألم من قلبه: أنى يعود الزمان إلى حيث بدأ، وتعود الأرض إلى حيث وجدت، ويغادر الناس إلى حيث خلقوا، أنى ينقضي هذا الحساب وتحرقنَّ كل تلكم الصحف؟

لماذا مهما فعلنا، مهما بكينا أو غضبنا لا يغير ذلك من شيء؟ لقد سئمت هذه الدنيا وحالها، ملاذها لا يأتي يسيرًا.. وإن أتى، تجلب معها عظيم الذل والهوان، لا تتركنَّ عزيزًا ولا ذليلًا حتى تصيبنه في خير ما لديه، أفلا تقومنَّ هذه الساعة؟!

ثم صائحًا: أفلا تفتحنَّ أبواب الجحيم فتنقضي؟!

سقط الخليفة أرضًا في عجز كامل ليهرع إليه تقي قائلًا: هون عليك يا مولاي، لا تصيبنَّك أسقام الأولين.

ليدفعه بيد واهنة والبكاء لا ينفك ينال من عينيه: دعك عني! أي سقم؟ أسقمي في أبي، أم سقمي في أمي؟ سقم أخي، أم سقم أبنائي؟ أم سقم مليكة التي ذهبت؟

لتتساقط الدموع الحارقة على وجنتيه فرارًا من آلامه وضيق صدره الذي لا يحتمل.

حتى أمسك عن البكاء وسكت يقوم من مكانه بينما تعلقت به أنظار تقي يتابع حركته الثقيلة منصتًا لكلماته: عدت إلى العاصمة رمادي أخير يجر أحزانه من خلفه، وما أصاب الناس من رعب مثل رعبهم حين رأوني أعبر أبواب العاصمة وحيدًا شاردًا على ظهر دابتي قبل قط، عدت لأجد العرافين وقد ملؤوا الأرض وعظمت كلمتهم بين الناس، ثم كانت نبوءة هذه الأرض وآخر ما تنبأ به العرافون.

«يأتي على هذه الأرض زمان، يصيبها مصاب خافير»..

بدأ تقي يحرك شفاهه بكلمات الرشيد ذاتها كأنه يحفظها..

«ويكون ذلكم بلاء عظيم، لا يمنعه مُلك ولا يدفعه جند، ولا يصده باب، تغرب فيه شمس الجميع دون شروق جديد، عناؤه لمن لم يحفظ شمسه الخاصة، وشقاؤه لمن أَلِف الليل وظلمته، يكون فيه من الدماء الكثير، فإن كان ذلك، فالزموا دوركم ولا تخرجوا منها، وأضيؤوا شمعات استقامتكم لا تطفئوها ولا تبرحوا جوارها، حتى ينقشع ليل طويل، تضيع فيه حقوق وتعود فيه أخرى، وتسيل فيه دماء، وتعود فيه أخرى!».

ثم صمت للحظات أردف بعدها: ومن حينها، لم يجرؤ أحد على الاقتراب من أرض الخيزران أو عبور النهر إليها، ظن الناس ما ظنوا، وبقي هنالك ما هنالك. احتفظت أنا بسري واحتفظت خافير بسرها، حتى يكون وقوع النبوءة، ويكون اللقاء والخلاص والخروج دون العود.

ثم تبدل صوته فجأة يقول: واليوم، وقد علمت باجتماع أبنائي على قتلي، قررت البوح ببعض ما لي، كي يعرف الجميع حقيقة ما حدث.

تجمدت ملامحه وحدق إلى مَرآه، ثم قال بصوت مرتعد: آهٍ يا أبنائي، ويلٌ لنا من شرٍ قد دنا.

لتبلغ كلماته مسامع تقي منصتًا، وتتركه قاطبًا مرتعد النظر.

***

فتح شاهد على ارتباك باب حجرته بعد ما تعالى من صوت دقات للمرة الثالثة ليظهر من خلفها مروان وقد وقف في ثبات يرمقه ويرمق من خلفه مهاجر أمام النافذة ملتفتًا إلى الباب في يده كأس البابونج قبل برهة من خروج سليم إلى خلف شاهد بخطوات يتوسط كلا من شاهد ومهاجر ناظرًا بأعين الصمت ذاته، الذي اكتفى به الجميع للحظات.

صَمْتُ أعين تتبادل قولًا واحدًا.

أن قد غربت الشمس!

***

بينما بتجهمه تقدم الرشيد نحو نافذته ينظر رمق الشمس الأخير في قلق ويقول: ها قد أتى ليلي!

ثم شرد مردفًا: لم يعد هنالك المزيد من الوقت، أراها تدنو، أتمنى لو أنها النهاية، وليست فصلًا جديدًا يقود نحو أخرى أكثر قسوة! استمع يا تقي وأنصت.

أريد أن يكون آخر ما تكتب في كتابي هذا..

قالها ليتحرك قلم تقي في الخلف من جديد يخط في حركة سريعة متوترة كلمات الرشيد الأخيرة: إنني ربما لم أقصد إلى تلك الكلمات في مبعوثي إلى الحاكم قدر ما قصدت إلى إقصائه عن الخلافة.. لكنها تَحْمِل من الحقيقة ما لا تحمله غيرها!

خرج صوته قلقًا مرتبكًا، بينما ارتجفت شفاهه تنطق كلماتها: في تلك القرية سرٌّ يا تقي، سر أكبر من أن يمكن البوح به، سر عظيم!

ثم سكت، ليسكت معه قلم تقي ويسقط عن يده، وهذه المرة ليس رغمًا عنه!

تنهد مروان بعمق وقد توسط كلا الغرفة وإخوته، ثم قال في حزم: لقد أتى الليل، آمل أنكم على استعداد لما سيأتي، إذ لا رجعة بعد الساعة، فعلى الأرجح أن المُخَوَّلَ بالأمر قد أخذ يُباشر عمله الآن.

قالها لتدق طبول صدورهم جمعاء خاصة شاهد الذي تسارعت أنفاسه وتضاربت دقات قلبه تدق في جنون!

بينما يترفع ظل كبير ضخم على جدار غرفة الرشيد الذي لم يبرح نافذته، ظَلَّ في يده ظِلٌّ آخر لخنجر ساكن بين قبضته اليمنى، ذاتها التي كان يقبض بها قلمه.

تجلى الرعب يتخبط بملامح تقي الممسك بخنجره يتقدم صوب الرشيد بينما بطش بنفوس الأبناء المحتجزين في الغرفة في دائرة واسعة المدى.

قبل أن يهوي خنجر تقي على جذع الرشيد بالغًا قبلته!

في اللحظة التي دلف فيها حراء وجنده إلى الغرفة التي جمعت الأبناء الأربعة، تقدم إلى مروان هامسًا في أذنيه بشيء قطب له حاجبيه.

ثم انصرف تاركًا مروان يتنقل ببصره بين إخوته صامتًا حتى خرج حراء ومن معه من الغرفة وأغلق الباب.

وما إن فعل حتى سكت كل شيء عدا مروان الذي قال متعجبًا: ماذا يفعل الكاتب لدى أبيكم حتى الساعة؟!

ليكتم سؤاله أنفاس الجميع كما كتم باب غرفة الرشيد صوت ارتطام جسده على الأرض في داخلها.

***

تسمَّر مروان مكانه في ذهول رمق به الرشيد الساقط على الأرض بعد أن اخترق السهم النافذ رأسه بينما توقف الجميع في أماكنهم بعد أن كبح فوضاهم صياح قادتهم فور أن سقط الرشيد جثة هامدة بلا حراك.

سكن كل شيء في مكانه، وتوقفت حتى الريح عن الهبوب كأن كل شيء أصابه الجمود!

عدا أقدام مروان التي أخذت ترتجف في صدمة لم تكفِ جزعه على أخيه الراقد على الأرض جسدًا قد فارقته الحياة على الفور بعد أن أصابه السهم في رأسه، لتتفجر الدماء منه تفجر التعابير على وجه مروان

الذي لم يكن قد زال عنه الغضب بعد، ليحل عليه الفزع إلى جواره جنبًا إلى جنب.

حتى هبت ريح يسيرة، اقتلعت دفء المكان عن جذوره وأسكنت موضعه برودة لا توصف.

قبل أن تضطرب الحركة في الصفوف فجأة ويتحرك الجنود يطالعون وجهة كان من المفترض أنهم يقصدونها لكنهم تأخروا، حتى قصدتهم، ليحدق إليها كلا الفريقين.

تراجع البعض في وجس بينما سقط البعض الآخر في مكانه وقد شُلَّت كلتا قدميه عن الحركة من هول ما يرى.

ومن بين من وقف في مكانه عاجزًا عن الحركة كان مروان.

رفع بصره الذاعر عن جيفة الرشيد ليزداد ذعره رامقًا الضباب الكثيف الزاحف إليهم من جهة كان قد نساها لبعض الوقت.

جهة خافير!

***

البوح السادس

ها قد أتى ليلي!

رواق طويل ينتهي إلى ظلام سرمدي غائر كأنه يمتد إلى ما لا نهاية، مظلم آخره كأشد حقب التاريخ ظلامًا دموية، تعالى فيه صوت أنفاس عالية متسارعة تتقافز على الجدران من كل جانب كأن صاحبها يصارع الموت وحيدًا بين أركانه.

خطوات واسعة تتقافز سريعًا يركض صاحبها في فزع أرض لم ترَ الشمس.

إنه تقي الدين الخازندار وقد أخذ يعدو في أحد أروقة القصر محكمًا القبض على كتابه بين قبضة وساعد ضمهما إلى صدره، بينما يطيح ذراعه الآخر في الهواء مزيدًا من سرعته التي ينطلق بها، يطالع خلفه عشرات المرات في رعب كلص هارب ثم يبرح مطالعته، ثم يعاود الالتفات من جديد في رعب أشد كل مرة.

ما هذا الذي رآه؟ أي كابوس هذا، كان موعده داخل القصر؟ كل ما يسعه التفكير فيه هو الهروب في الحال من هذا المكان، ولا شيء سوى الهروب..

كأن القيامة على موعدها هنا!

***

في جوف المسجد، وبين رحاب المصلين الجالسين بانتظار إعلان إقامة الصلاة، كان التساؤل يلتهم وجوه الأكثرية وفيهم اليمامي.

ذلك الرجل الأربعيني في الصف الأول خاصة، وإلى جواره صاحب الهيبة والوقار، تبادلا النظرات ثم الإشارات المنبهة والتي قام لها الأخير من مكانه واستدار معلنًا الإذعان لغياب الخليفة لمرة أخرى جديدة هذا اليوم.

نظر إلى الصفوف المتجهمة في ارتباك قبل أن يقول ملتفتًا إلى القبلة: قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله.

قام الناس يقفون أماكنهم، ويتراصون في صفوفهم بينما همَّ الشيخ بالاستعداد للصلاة قبل أن يتوقف فجأة ويلتفت إلى الصفوف ناظرًا آخرها المضطرب في دهشة، وقد تعالت الأصوات عاليًا.

- لقد أتى الخليفة!

- وصل الخليفة!

تنبَّه اليمامي لمصدر الصوت في الخلف واستدار الناس، ثم تحركوا يفسحون الطريق لجسد تثاقلت حركته، وتبدلت ملابسه عن آخر مرة رأيته فيها، بأخرى أثقل منها وأكثر مهابة، تدلى من فوق جلبابه

رداء كتاني كبير أحاط ببدنه من أعلى قلنسوة رأسه وحتى ظهره قرب أخمص قدميه، وعلى صدره حتى خاصرته.

مغتم الوجه متجهمًا -وإن تبسم- يتحرك بين الناس من الرعية يُبَجِّلونه، ويثنون صحته ثم يقبلون يده ويتمسحون ثيابه متوجهًا نحو القبلة لإمامة الناس.

على مبصرة من حيرة اليمامي بين الصفوف..

***

وصل موكب الخليفة إلى باب القلعة في عودته من المسجد يشق طريق الليل البارد، دلف منها ولم تمر دقائق معدودة حتى وصل إلى ساحة القصر حيث حراء بانتظاره.

بينما كان بانتظار حراء نفسه، شرود طويل في ركوب الموكب حين خلا من الرشيد الذي لم يكن من بين العائدين.

- أين الخليفة؟

سأل بها الجند المصاحب في ريبة غمرت سكون الليل!

***

جدرانه صلدة وإن كانت من الطين.

هكذا كانت حال الدار وصاحبتها.

جدران صلدة تناثرت فيها بضع قطع من أحجار متفرقات على مسافات بعيدة لمنزل متواضع الحال، وإن حظي بعناية جيدة كما حظي بهدوء مثالي، هدوء يناسب كونه لامرأة تعيش وحيدة ، كما يناسب نظافته اللافتة كونه لـ (أسمى العجوز).

تعيش أسمى بمفردها ولا أحد يعلم سبب كونها كذلك، فأغلب من هم على قيد الحياة ويملكون القدرة على الحديث قد نشؤوا وهي على هذه الحال، فيقول بعض الناس بأن لها زوجًا وابنًا لكنهما رحلا عنها منذ زمن، ويقول البعض الآخر إنها تحبسهم في قبو داخل منزلها بعد أن قطعت أطرافهم وألسنتهم لما أصابها من الجنون، وبينما يقول غيرهم إنها عاقر لم تنجب حتى هجرها زوجها، يقول آخرون بأنها لم تتزوج، لكن أتباع هذا القول في اختلاف بين خبيثتين، إما أنها لا تملك ما يملك الإناث في جسدها، أو أنها لا تميل ميل الإناث إلى الذكور.

لكنها أسمى، ودائمًا كانت كذلك!

بصوتها الخشن المتحشرج، وتجاعيد وجهها الصلب اليابس وجسدها القوي المنتصب، الذي لو أن للمشقة وجهًا وللقوة بدنًا وللزمن صوتًا، لكان وجه أسمى وبدنها وصوتها.

تقدمت بصوتها السحيق تنادي قرب الباب أن من؟ بعدما تعالى فجأة من صوت دقات عليه.

عجوز وحيد كأسمى لا يدق بابها أحد، كيف كان ليخطر على بالها أن يدق بابها زائر في أول الليل؟

أو أن تكون هذه الليلة بأكملها ليلة ما عهدت بمثلها قط؟

لم تصدق ما تراه عيناها كما صدقت أذناها دق الباب من قبل، لتحدق إلى مَرآها بينما يحيط بوجهها وشاحها الأسود القاسي.

قالت في نفسها: ويح لك يا أسمى، هل أصابك الخرف؟

ثم في صدمة: مولاي الخليفة!

***

جلس الرشيد إلى أقرب الأرائك إلى الباب يعلوه قنديل معدني حمل شعلة بداخله بينما حمله رف حجري يخرج من الحائط.

كما حملت أسمى شيئًا من الارتباك في لسانها تقول: عذرًا يا مولاي الخليفة، فإن الدار دار عزلة لم تعهد زيارة أحد وقد باغتنا عدو لك إلينا، وقد عهدنا إرسالك رسولًا وما أتيتنا قبل قط، فكيف بحال الخليفة إن شاء الله؟

ليجيبها: لا عليك يا أسمى، فالأسف أسفي والعذر منك، وما جاء بي إليك ما كان ليأتي به رسول.

سألته في صمت فأجابها: أخبريني يا أسمى، كم مر منذ أوكلت إليك بما أوكلت؟

ليحلق حاجبا أسمى في سماء رأسها تقول: ويلي، لله در سنيَّ الدنيا، سنوات يا مولاي الخليفة، سنوات، منذ بوركت الأرض بتوليك حكمها وزمام أمورها.

– كنتِ فيها يا أسمى خير وكيل فيما أوكلت، وخير أمين على ما ائتمنت، تتحملين مشقة حفظ أمانتنا دون أجر أو عوض، أفلا يتحمل الرشيد مشقة الطريق إلى أسمى ولمرة واحدة؟

– أما أجري يا مولاي فقد قبضته بضمان قوت كل شهر في أوله، وكسوة الشتاء في مدخله، والصيف في ربيعه، لعمري إن خدمة مولاي الخليفة لهي خير أجور أسمى وبركات حياتها، فما عِلم أسمى كيف ليكون حالها لو لم يكن العهد بينها وبين الخليفة؟

تبسم لها وقال في لين: دعي عنك هذا يا أسمى، فما جئت الساعة حتى أسمع معسول القول ومزين الكلام.

ثم كأنها ما طاقت صبرًا حتى سألت: وما الحاجة يا مولاي؟

سكت للحظات تدلت فيها رأسه ثم رفعها من جديد باتجاه أسمى وقد أخذ نفسًا عميقًا تأثر بيسير البكاء حتى ارتجف قائلًا: رؤيتها! جئت باغيًا رؤيتها!

لتحل الصدمة بوجه العجوز بينما لا ينقطع الرشيد عن طلبه متأثرًا: خذيني إليها.

***

سار ضوء ذهبي فرَّ من قنديل أسمى التي وقفت ممسكة به في منتصف حجرتها تسحب بساطًا كان على الأرض بينما من خلفها وقف الرشيد على بعد خطوات ينظر فعلها تضطرب في عينيه دمعات حبيسة كأنها في مدامعه تغلي.

انكشف لوح خشبي تحت البساط رفعته أسمى بيدها ثم استدارت ببطء، وأشارت إليه بالاقتراب.

تحرك إليها بينما أخذت تهبط سلمًا صخريًا رآه الرشيد وقد تناثرت فيه قطع من الأخشاب داعمة له، ودفء شديد شعر به يخرج من الأسفل.

قبل أن تنطلق أقدامه يتبعها هبوطًا على الدرج تسوقه أسمى ونور قنديلها.

كان الدرج صلبًا كصلابة أسمى، قديمًا مثلها، وإن كان عدد درجاته لا يضاهي في عمرها شيئًا، ينتهي إلى ممر صخري ليس بالضيق ولا بالواسع، سلكته أسمى تضيء جدرانه بضوء قنديلها وتضيء الطريق للرشيد خلفها، ينعكس الضوء على عينيه الدامعتين لتأخذا في التماعٍ جلي.

تتوقف كل بضعة أقدام لتنظر إلى الرشيد مضطرب الخطى، ثم تعاود المسير، أمتارًا معدودة ثم توقفت، كان ذلك عند حَجَرة عن يسارها فصلها عن الممر قضبان حديدية صدأة، استقبلتها أسمى للحظات تتأملها في جمود قبل أن تدور إلى الرشيد في الخلف للمرة الأخيرة، أخذت تطالع اقترابه في ترقب بينما أخذت خطواته تتباطأ أكثر ودموعه تتكاثف وتتزاحم في عينيه حتى أوشكت على القفز منها.

خرج من ظلمات الممر إلى نور الشعلة في القنديل يرمق الحجرة مبتعدًا عن قضبانها قدر ما استطاع وسمح له الممر.

حَجَرة صخرية حوت صندوقًا خشبيًّا في أحد أركانها عليه دورق من المياه وكأس وحاوية طعام، وقنديل هجرته شعلته وعدا ذلك لم تحوِ من الجامدات شيء كشفته شعلة أسمى وعينا الرشيد المتخمة.

حجرة حوت سرًّا قديمًا من أسرار الماضي يتنفس حاضرًا خلف القضبان.

أخذت أسمى تفتح قفلًا علق بين القضبان بمفتاح علقته على صدرها، وما إن فعلت حتى ابتعدت ليتقدم الرشيد يجر الأرض متعلقة عينيه بالسر داخل الحجرة ينكشف عنه قنديل أسمى.

جسد لامرأة شديد النحافة توشحت بزي كتاني ذي لون أبيض مظلم ترك عليه الزمان والمكان ملامحهما، لها شعر أبيض تناثر بعضه من أسفل وشاح كبير غطى جسدها يدفئه بينما تجلس مستندة إلى الجدار من خلفها مستقبلة بوجهها القضبان التي حجبها عن رؤيتها انحناءة ظهرها الحادة كأنها لم تبرح جلستها منذ قرون.

جلست في هدوء شديد هو أقرب إلى هدوء الموتى، حتى مع دخول الرشيد إلى الحجرة واقترابه منها نُصب عيني أسمى المترقبة.

وبرغم بكائه الصامت، وارتعاده الهزيل ارتسمت ابتسامة ائتلاف بدت غريبة على وجنتين ملتمعتين، وعينين حمراوين من حرارة البكاء.

ابتسامة وضعت لها أسمى القنديل موضع قدمها على الأرض خلف القضبان، ثم ولت مدبرة تاركة الرشيد يميل برأسه نحو الجسد المتجمد قائلًا يترنح ضوء القنديل على وجهه:

- هرمتِ يا مليكة!

تحركت من جمودها فور أن سمعت صوته حركة يسيرة تنبَّه بها مسمعها، سكنت بعدها لبرهة كأنها تشك فيما تسمع ثم أخذت ترفع رأسها في بطء شديد.

حطم قلبه رؤيته وجهها متجعدًا قد أصابه المشيب، عيناها التي أخذت تدنو ما بين جفنيهما قاطبة باتتا كسولتين لا تتبينان الرؤية جيدًا.

ولم تكن إلا لحظات حتى ارتجفت شفتاها وانفكت عقدة حاجبيها وانقطعت أنفاسها حتى راح رأسها يدور آخذًا في سقوط فزع له الرشيد باسطًا ذراعيه حتى سقط ردائه عن ظهره هلعًا إلى إدراك رأسها الذي هوى بين يديه فاقدة وعيها.

دار رأسه يصيح بنداء أسمى التي عادت أدراجها في ذعر تاركة أولى الدرجات ما إن سمعت وأقبلت تعدو نحو الحجرة مفرجة أصابعها ترتعش لمسمعها يداها، بينما أخذ الرشيد رأس مليكة بين ذراعيه وانفجر باكيًا حتى بلغه ذعر أسمى.

***

تنقلت عينا الرشيد تتأمل وجه مليكة الذي رقد ساكنًا بين ذراعيه في بكاء مرير، بينما جلست أسمى خارجًا مسندة ظهرها إلى جدار الممر عن يمين الحجرة وقضبانها ومن فيها وقنديلها موضوع الأرض يجمع في عينيها الألم ودموع حفظتها لسنوات طويلة قبل أن تبدأ في الحديث محدقة إلى الجدار أمامها بصوتها الأزلي الغريب: لطالما أردت أن أحدثك فأخبرك عن حالها كيف هو، منذ أن عهدت إليَّ بها وقد أقبل ليلها، ليل سرمدي لا ينتهي، لم تكن تكف عن الصراخ حتى تسقط أرضًا من شدة الألم في رأسها، تأبى المأكل والمشرب حتى تفقد وعيها من شدة الضعف والهوان، وإن أكلت لا تأكل إلا ما يبقيها حية يقظة تواصل النداء. لسنوات لم تبرح البكاء والصراخ ونداء ابنها والسؤال عنه، في بكرة الصباح وفي جوف الليل، لا تغفو ولا تنام، حتى ضعف بصرها ووهنت عيناها، وبقي حالها هكذا حتى استبد بها التعب وفتك بها المرض، حال الصراخ إلى الأنين ثم إلى صمت لم تتحدث بعده أبدًا، لقد أمسكت عن الكلام حتى فقدت قدرتها عليه، وباتت حاضرة غائبة تكره النور كما يكره العاقل الظلمة، ظلمة سكنتها داخل القبو لسنوات حتى سكنتها بدورها!

قاطعها الرشيد باكيًا يقول: كفاك يا أسمى.. كفاك!

لتمسك أسمى عن الكلام وتنهض عن جلوسها وتتحرك منصرفة تجر أحزانها وآلامها في الظلام.

تردد للحظة بين الصمت أو الحديث لكن الألم راح يسوق الكلمات كرهًا كما يسوق الراعي دابته.

– يشهد الله أني أحببتك أكثر من نفسي ودنياي وأهلي، لكنكِ جعلت من حبي إليك داءً لا يفارق بدني، وكمدًا لا يفارق صدري، وليل طويل لا ينقشع. كيف تفعلين ما فعلت؟ لقد تعاهدنا على البقاء معًا، والرحيل معًا والهلاك معًا، نسكن أرض اليمام ولا نعود أبدًا، كيف أنقذتِ حياتي وأنت تحفظين لي مِيتة لا حياة بعدها؟

آهٍ يا مليكة، لقد أَلَمَّت بنا النوائب وعصفت بنا الأعاصير وطغى علينا الناس.

ثم أخذ يقسو على نفسه بالبكاء حتى أيقظها به.

انتفضت من بين ذراعيه وأخذت تزحف مبتعدة تنظر إليه في وجس وارتعاد، حتى رأت الدموع تنهمر من عينيه.

ذهب بعض روعها بينما تراقبه يبكي كالطفل الثاكل في شفقة ترى في عينيه ألمًا عظيمًا وحب جم.

ثم كأنها أدركت فجأة أنه الرشيد.

وما إن فعلت حتى اقتربت مسرعة في لهفة وأخذت تتشبث في ردائه بينما تتبدل التعابير في وجهها مرارًا، كأنها تريد قول شيء ما، لكنها لا تهتدي الطريق إلى ذلك.

أخذت تضرب كتفيه برفق عدة مرات، ثم أطبقت ذراعيها على بعضهما بعضًا وراحت تهزها يمينًا ويسارًا كأنها تأرجح رضيعًا بين يديها، ثم تكرر ضربه محاولة لفت انتباهه في توسل راح يزيد من بكاء الرشيد حرقة.

فيزداد لبكائه انفعال مليكة، لتمسح الدموع عن عينيه مسرعة كأنها تريده أن يراها بوضوح ثم تكرر أرجحة ذراعيها من جديد.

انهمرت عيناها بالدموع فجأة هي الأخرى، وألقت بذراعيها بين يدي الرشيد جاهشة بالبكاء، ليحيطها الرشيد بذراعيه تلطخ دموعهما أثواب بعضهما بعضًا، يبكيان ويسرفان في البكاء لا يعلمان هل يبكيان أنفسهما أم يبكي كل منهما الآخر؟ لقد كانت أقدارهما قاسية، منذ تزوجا وهبت عليهما العاصفة في إعصار لم يرحم أو يشفق أو يقسُ، لم تنقطع من بعده الأعاصير!

لسنوات كان لكليهما الكثير ليحكيه، لكن الرشيد قد تأخر، تأخر حتى لم يعد لعودته فائدة، وما في قلب مليكة سيبقى لمليكة فقط إلى الأبد.

- لقد انتظرتكِ طويلًا.

لتجيبه في قلبها: وأنا فعلت!

- لقد بحثت عنك في كل مكان، قبلت أن أمكث في السجن لبقية حياتي حتى لا يطالك طغيان الحاكم ومرضه، حتى قالوا قد ماتت وذهبت بها العاصفة، ذهبت إلى الموت طواعية.. لكنه أبى.

- لقد عدتُ، عدت وقالوا خرج بالجيش، لكني انتظرتك، وانتظرت عودتك، حتى قيل مات بالحمى!

- كان أبي أولًا، ثم أنت، ثم أخي، والآن أبنائي.

ثم مشتدًا به البكاء: لماذا كل من أحببتهم يسعَون في قتلي؟

لتومئ مليكة سلبًا كأنما تنفي عنه ما يرميها به بينما يشتد بها البكاء كما اشتد بالرشيد قائلًا: أعلم أني كنت قاسيًا عليكِ، لكنك كنتِ كذلك.

مرت لحظات من الصمت سكت فيها الرشيد مجاهدًا الإمساك عن البكاء، هدأ فيها بكاء مليكة أيضًا.

حتى كفَّ عن البكاء وقال شاردًا: أنا أعرف الموت، واجهته مرات عدة، يحفظني وأحفظه، لكنه في كل مرة يقترب حتى يدنو، يدنو أكثر مما قد يظن أحد، ثم يأبى ويعود مدبرًا من جديد.

قالها بينما كانت مليكة قد انقطع صوتها.

تنبه لها الرشيد ليراها وقد غابت عيناها ساكتة عن البكاء، ساكنة عن الحراك.

تحسس أنفاسها ثم نبضاتها في قلق، ليتجهم وجهه..

ثم يقول في وصب: هل نمتِ يا مليكة؟

أَغْمَضَ عينيه ثم فتحهما من جديد متنهدًا يقول: أنا أيضًا أريد أن أنام، لم أنم منذ البارحة، لكني أريد أن أنام ولا أستيقظ.. لا أستيقظ أبدًا!

لا أريد أن أعود إلى هنا من جديد يا مليكة.

قالها ثم أسند رأسه إلى رأس مليكة، وبدأ يفقد إدراكه لكل شيء من حوله، فقط يظن أنه يستمر في الحديث دون توقف، بينما تستمر مليكة في البكاء دون توقف هي الأخرى، برغم أن كليهما غير صحيح.

وباضطراب إدراكه اضطربت الشعلة داخل القنديل، ثم راحت تخفُت كما يخفت كل شيء كأن كل العالم من حوله يتلاشى ويفنى.

ثم كان ظلام في القنديل ابتلع كل شيء.

***

وقف على حافة التل ينظر الجهة البعيدة، بينما يداعب هواء الليل رداءه ووشاح رأسه.

كان الليل طاغيًا، والظلام حالكًا في كل الصحراء على مَرآه، لكن صحراء الخيزران ما ضرها قط ظلام الليل أو حجب الرؤية فيها، لهذا تمكن من الرؤية.

رؤية فغر لها فاه، وتجهم وجهه وارتجف بدنه!

لم يُفزعه ما رآه، قدر ما أفزعه كيف أنه قريب، قريب إلى حد لم يتوقعه؟!

هذه ليلة سوف يتغير فيها كل شيء!

***

فتح عينيه فجأة وكأن حواسه كلها قفزت في جسده على حين غرة. قام فزعًا، ليجد مليكة بين يديه لا تزال تغط في نوم عميق.

لا يعلم كم من الوقت قد مر في غفوته إلى جوار مليكة، قد يكون الكثير وقد لا يكون إلا برهة.

تأمل وجهها قبل أن ينحيها جانبًا واضعًا رداءه؛ وطأة لرأسها بعد أن أطبقه بعضًا على بعض.

قام في عجالة ثم توقف للحظات يتأمل وجهها مجددًا تأملًا، بدا لم يخلُ من بعض القرارات الحازمة.

أغلق قضبان محبسها من جديد، ثم حمل القنديل الخافت، وعاد ينظر إليها في صمت.

متى عاد النور إلى القنديل؟ لا بد وأنها أسمى.

تجاهل أمر القنديل وقال في نفسه ناظرًا إلى مليكة: أتدرين ما الفارق بيننا يا مليكة؟ إنني حين متِّ فررتُ إليك، بينما أنت حين متِّ.. تزوجتِ من مروان!

قالها ثم ولَّى منصرفًا يسلك ممر القبو تاركًا النور ينقشع عن محبس مليكة، ليعود إليه ظلامه الدامس من جديد.

خرج ليجد أسمى تجلس على إحدى الأرائك وقد أخذت على ضوء شمعاتها التي بعثرتها هنا وهناك تغزل غزلًا لها في هدوء شديد.

ويح لتلك المرأة وأفعالها الغريبة! لمن تغزل؟

وضعت الغزل من يديها فور أن رأت الرشيد يخرج من القبو.

التفت إليها وعاجلها قائلًا: اسمعي يا أسمى، اسمعي قولي واعقليه.

تنبهت أسماع أسمى وتراجع لسانها قبل أن يردف: لا أعلم ماذا قد يكون في الانتظار، لكن أيًّا يكن... لا تبرحي مليكة أو تطلقين سراحها، حتى وإن أصابني مكروه، وإن أصاب كل الأرض، وإن فَنِيَت الدنيا يا أسمى، لقد ضمنت لك ما يكفلك ومليكة من بعدي، فلا تنقضين عهدًا أخذته عليك، ولا تفشين سرًّا حفظته دهرًا.

سكت لبرهة ثم قال: وكما أخبرتك في اليوم الأول..

ثم مفصلًا لها فتذكر: حتى يأتي اليوم وتلحق بابنها!

أومأت له في إيجاب، وقد عجز لسانها عن الحديث وانشغل بالها لكلماته التي قال.

همَّ أن يرحل لكنه توقف للحظة وقال عاقدًا ملامحه في حزم: ودبري لها وسادة وفراشًا ناعمين.

ثم عاد متوجهًا ناحية الباب بينما تتبعته أسمى حتى فعل.

وقف لدى الباب وقال في وجس ما كان ليَخفى عن أسمى: أستودعكما الله الذي لا تضيع ودائعه.

لتجيبه وقد عجزت عن الفهم وأفضت أمرها في ذلك إلى الله.

ولا تملك غير دعائها فتقول: في أمان الله أيها الخليفة.

أمان الله.. أيًّا يكن ما لا تفهمه، فأمان الله يكفيه ويكفي كل سوء.

لذا رددتها مرارًا حتى بعد أن انصرف الرشيد وتركها وحيدة شاردة على الباب: في أمان الله أيها الخليفة.. في أمان الله.

أغلقت الباب لتجد الدار وقد غاب دفؤها بعد حلوله برحيل زائره، كأنما عادت الدار حزينة بعد بهجة، وعادت هي وحدها من جديد في مواجهة الجدران العجوز مثلها.

***

دقت الساعة الموعودة، وأقبل الوقت المنشود، وتكدست الحركة في مطبخ القصر في توتر جم يُعدُّون طاولة العشاء على أضواء المشاعل التي أخذت تحترق دون اكتراث لعظيم ما حان موعده.

كذلك تحرك الرشيد داخل غرفته يستقبل مرآته الطويلة التي ارتفعت حرارتها دون سبب تعكس صورة الرشيد ينظر في جمود إلى نفسه بينما يخلع ملابسه التي عاد بها من لدن مليكة.

فاقتها في حرارتها مياه حوض الاستحمام التي غمرت جسده حتى ابتلعته، كأنه الاغتسال نفسه قبل سنوات، حين خرج إلى خافير. الشعور ذاته يغمر قلبه كما تغمر المياه بدنه، قد يُنسي الزمان قومًا وقد يُنسي أفعالًا، لكنه لا يُنسي شعورًا فريدًا قط.

كما غمر الحاشية غرفة الطعام يجهزون الطاولة ويمدونها بالأطباق والأصناف المختلفة، طاولة أحاطت بها خمسة مقاعد فخمة شاغرة، أحدهم يترأس الطاولة من أحد أطرافها، واثنان على كل جانب منه، يتوسطهم جميعًا على الطاولة حلقة عظيمة من الشموع الضخمة المضيئة في استعداد.

طاولة مميزة، غلبها تميز زي الرشيد اللامع الزاهي ذي اللون الأبيض مع اللمسات الفضية المزكرشة في ثوب عظيم يليق بزي أكبر الملوك، يحفظه العاقل إذا ملكه لعظيم الأمور وجليلها. زي انتقاه بعناية لهذه الليلة.

امتدت يد الخادم تضع أدوات الطعام في أماكنها من صحون وكؤوس بينما ارتدت عن طاولة أخرى كانت إلى جانب المرآه يد الرشيد تلتقط خاتمًا بازغًا، خاتم فضي لامع مرصع ببلورة من الكريستال الفاخر بين ثناياها قطع متعددة بالغة الصغر لأثمن أنواع الأحجار الكريمة، وأكثرها ندرة وجمالًا، ليكتمل به زهو زيه الكريم.

بينما أمسك أحدهم بشمعة في يده يشعل بها فتيل الشمعات الأخريات المعتمة على طاولة الطعام الفخمة التي أوشكت على إطلاق ألعابها الشهية جنبًا إلى جنب مع ألاعيبها المثيرة، تضيء، إيذانًا بأن يبدأ كل شيء.

وختامًا، أسقط الرشيد تاجًا فضيًا مذهلًا تناسق مع شعره الرمادي المصفف، وعينيه الثابتة لأول مرة في حياته على غير عادته في ارتداء قلنسوته العادية.

لكن هكذا تسير الأمور، الأشياء الفريدة للمواقيت الفريدة.

قبل أن يتمايل جرس ضخم في بهو القصر داقًا بقوة تردد صداها في الأرجاء كافة.. في البهو، والأروقة، والغرف، والسماء.

سمعه مروان بينما يطالع من النافذة وقد تجهز لأمره ليستدير ملبيًا نداءه في حزم.

وسمعه مهاجر بينما ينسق قلنسوته ليشهد على إثره باب غرفته المتسلل منه صوت الجرس مطالعًا له في قلق.

وسمعه سليم بينما يفتح باب غرفته مستعدًا للخروج منها ليستوقفه الصوت شاردًا للحظات.

بينما ترك شاهد آخِر كؤوسه من البابونج على الطاولة وقام من مجلسه واقفًا يتردد حتى في الخروج من الأساس.

نداء كان كأنه بوق حرب، أربكهم جميعًا حتى أوقفهم.

عدا الرشيد.. رسمت نغمات الجرس على وجهه ابتسامة هادئة غادر عليها مرآته وغابت بها صورته من عليها، تاركًا إياها وحيدة خاوية قد تلاشى عنها انعكاسه!

***

فتح اليمامي بابه مرتبكًا، ليقتحم طارقه الدار على الفور.

زائر في حال دخيل وكريم في حال ذليل، أغلق من خلفه الباب على الفور ليستند إليه بظهره ويقف يصارع أنفاسه لاهثًا حتى أوجس منه اليمامي خيفة.

وقف يرمق الرعب والذعر في عينيه تارة، والكتاب بين يديه تارة أخرى.

حاجبة تساؤلاته رهبة الصمت!

أنا لست خائفًا.. أنا مرتعد!

البوح السابع

العشاء الأخير

تخبطت التعابير على وجه تقي الذي احتبست فيه الدماء مترددًا في الحديث كشيخ مرتعد..

– ليلة البارحة، بعد أن أودعتك ديارك ثم سلكت طريقي إلى دياري طاردني بعضهم، كانوا يقتحمون داري لولا أني تأخرت ليلتها، ولم أكن فيها حين بلغوا.

ليسأله اليمامي في مثل ارتعاده: بعض من؟

– بعض جنود من القلعة، راودوني في الطرقات حتى أوقعوا بي، ثم أخذوني إلى الخليفة.

***

تناطح برأسه بينما ينزع أحدهم عنه عصابة عينيه قبل أن يتجهم قائلًا في عجب: مولاي!

ومن أمامه كان الرشيد جالسًا في حال غريب، يتربع الأرض يقرأ في مصحفه متحاملًا عليه عاكفًا يتأرجح ظهره وقد تجمع ماء في عينيه.

انتظر حتى انصرف الجند ثم وضع المصحف جانبًا ودنا..

– اسمع يا بني وأنصت فإني سائلك أمرًا ليس ككل أمر، وعاهد إليك بعهد يدين عليك ويدين عليَّ. لقد علمت الليلة باجتماع أبنائي على إراقة دمي وتدبير مكيدة للخلاص مني، تلك ساعة كانت آتية على كل حال.

ثم متوجسًا أردف في ارتباك: سُمًّا فيه مهلكة، لا يُبقي نفسًا ولا يترك أثرًا أتاهم به دخيل، يضعونه في عشاء الليلة المقبلة، وإني في هذا مخاطبك.

ما أرسلت إليك بهذه الحال إلا لكيلا يعرف أحد بما سيكون من أمرنا، إنك تأتيني صباح غدك معك كتاب، تسطر فيه ما أمليه عليك وهو كثير، وخنجر غريب ليس بخنجرك ولا بخنجري، مسمم بالسمِّ أشده، تجلس لكتابة كتابنا حتى يدركنا غروب الشمس، فما نفعل حتى تطعنني به ما يقتلني يقينًا!

لترتسم على وجه اليمامي أشد التعابير بأسًا يقول: ويحك! أوفعلت؟

تخطف النور في عيني اليمامي الذي بهت، بينما وثب الذعر فجأة بتقي متسعة أعينه، يتذكر ما شهده في الغرفة بعد أن سكنت جيفة الرشيد أرضًا بلا حراك ما كاد أن يشيب له رأسه ويذهب به عقله حتى تساقط الخنجر من يده على أرض الغرفة..

قال إلى اليمامي مرتجفًا صوته بكلماته: لكنه بطريقة أو بأخرى..

لم يمت يا شمس الدين!

***

بينما في ساحة القصر تحرك بسكوت الجرس عدد من الحراس صوب البوابة الضخمة يتجهون خارجًا تاركين أماكنهم الافتراضية في مهمة غير مسبوقة، ليلتقوا خارج البوابة بعدد مماثل من الفرسان يتوزعون عند الجدار والأرجاء تتراقص جيادهم تراقص التساؤلات في عقولهم، عقول شتى وسؤال واحد أغلقت عليه البوابة من الداخل بفعل من لزمها من الحراس على مرأى من الجميع.

غادر كافة الحراس والجنود والخدم بلاط القصر وساحته، إلا بعضًا من الحاشية والخدم الذين لم يغادروا لكنهم لزموا غرفهم بعد أن أحكموا إيصادها من الداخل كما لو أن شبحًا يجول بحثًا عنهم بين الأروقة، شبح كان هو أوامر الأمير مروان، دون تفسير أو تفصيل بالطبع!

ليعُمَّ القصر بأكمله هدوء شديد، لربما ما كان ليثير في النفس ما يثيره الآن لو كان في غير تلك الليلة، إذ هي تلك التفاصيل الصغيرة التي تغير الصورة كاملة، ولسوء حظ الجميع فقد كان.

البرودة قرين الخواء والخوف قرين الوحدة، فماذا لو أنهم اجتمعوا جميعًا في ليلة واحدة باردة مقيتة، الجميع يخشى ساعته القادمة فيها؟

هدوء اجتمع عليه الرشيد، ومروان، وسليم، ومهاجر، وشاهد على الطاولة يستقر بينهم وجس الوحدة الغريب.

طاولة تعددت عليها الأصناف، وتباينت الأطباق تباين المشاعر الممتزجة المتضاربة عليها. فبين الصحون النحاسية التي حوت مقاديرًا غير متفاوتة من الحساء، توزعت أرغفة الخبز الدسمة الداكنة المكتنزة في قسوة ولذة، قسوة اعتلت وجه مروان العابس المتجهم في جدية مع نبض خافت للخوف في عينيه المرتكزة الحادة الصامتة وظهره الصامد المنتصب.

وأوانٍ أخرى زجاجية مُلئت بقطع من البطاطا المسلوقة المتبلة مغمورة في حساء حاذق، كما غمر السكون الظاهر على سليم وابلًا من القلق وآلاف من الخواطر المتضاربة تعصف بباله تسرد عليه أقسى الاحتمالات الممكنة، وأشد النهايات فجعًا لتلك الليلة، خواطر حاذقة كالحساء مُرَّة كطعم اللعاب في حلقه.

أما قطع اللحم شديدة الحمرة على حافات أطباق الأرز شديد البياض فكانت ألوانهما تسود المكان كافة في عين مهاجر وقد شردت في إحدى القطع عيناه لا تفارقها دون همس ولا حراك.

توسطت كل تلك الأصناف المتعددة مجموعات من الشموع تتخلل الأطباق، تتراقص في سماء المائدة تراقص عيني شاهد اللتين أخذتا تتقافز في كل مكان في خوف وذعر واضحين لمن تقع عيناه عليه لكن ما كان أحد ليلحظ وجود الآخر حتى في هذا المكان.

مائدة برغم شهائها، ما كان ليأبه لها أحد حتى أخذوا جميعًا يتلاعبون بقطع اللحم، وحبيبات الأرز بنهايات ملاعقهم النحاسية، مائدة كان مللها المنبعث منها أشد عناصر الإثارة فيها، تقلد رأسها الرشيد في زينته يتأمل حركات بَنِيه في صمت، عن يمينه جلس الأكبر مروان يليه سليم، وعن يساره مهاجر الشارد يليه شاهد المرتعد.

لحظة طويلة من الصمت الشديد أخذت تسود المكان، وما إن تنتهي حتى تبدأ أخرى غيرها، لحظات كان المتكلم الوحيد فيها الشَّمْعَاتِ على الطاولة تهمس بصوت خافت لاحتراق فتيلها، تجيبها المشاعل على الجدران بصوت أكثر ضجيجًا ليس بالضجيج حتى.

بينما كان الرشيد يتناول من بعض الأرز واللحم كونه طبق مشترك بينه وبين مروان، يتناول طعامه بصورة طبيعية، وإن كان فيها من الحرص ما فيها، يتدبر مذاقه في تريث وإتقان، أما بقية الأطباق فكانت جميعها محل شك وريبة، قد يقف على حافة أي منهم ملك الموت، ينتظر لقمته المهلكة، أو ربما جميعهم حتى.

لذا ذهب يختلس متابعة الجميع، يرى أي الأطباق لا يقربون؟ ثم بمعرفته الطبق المنشود، يكون فصل الليلة الثاني.

ذهب يفكر في أيهم يختبئ الموت يا تُرى؟ هل هي أطباق الحساء؟ أم أواني البطاطا؟ أم أنه يتراص بين حبيبات الأرز؟ كأس المياه ليست بالبعيدة كذلك، إذ لكل كأسه الخاصة عن يساره.

الخبز ليس بالخيار الجيد بالطبع، كونه متطابق الهيئة قد يتبدل دون انتباه وينقلب السحر هلاكًا على صاحبه.

وعلى هذا ساد صمتٌ طويلٌ، طال حتى قطعه الرشيد بصوت طغى عليه التحامل والكلفة وإن لم يخلُ من شيء صادق فيه: لم يجمعنا عشاء واحد منذ وقت طويل.

قالها في ابتسامة جذب بها الجميع، لتحركهم وكأن الحياة قد دبت فيهم من جديد، ثم سرعان ما فقدوها وعاد الحال إلى ما كان عليه.

ليكرر الرشيد محاولة ثانية لخلق أحاديث: إذن عدت من معسكر صيدك يا سليم.

سليم مجيبًا: أجل.. يا أبت.

ثم مرتبكًا: وجدت رغبتي في العودة إلى القصر، وكيف لا وقد علمت بوجود إخوتي أجمعين؟

- لا بأس، لم أسألك عن سبب ذلك، على كلٍ، صيد هنا خير من صيد هناك.

قالها في تمازح، ليتفاقم بها ارتباك سليم أكثر، إنها تلك الأشياء البسيطة التي لا يضاهي بساطتها إلا الخوف الواقع منها.

ليردف الرشيد باسمًا: ما كنت لأكره رؤيتك أو أيًّا من إخوتك! أنا إلى جمعنا مشتاق، أكثر من أي منكم.

سكت للحظات تحلت فيها ابتسامته ببعض الصدق ثم تابع: أوتدري؟ كلما رأيتك يا سليم تذكرت جدك الحاكم، كان يحب الصيد مثلك، لقد تزوج بأمي في إحدى رحلات صيده، أنت قد ورثت ذاك الشغف بالصيد منه.

ثم مازحًا بعض الشيء: آمل أنك لم ترث شيئًا آخر.

حال ببصره وتبسمه ناحية مروان، سكت للحظة خفتت فيها ابتسامته وقال: كيف حالك يا بني؟ أعلم أن الأمور بيننا ليست على ما يرام ولكن..

ليقاطعه مروان باسمًا: لا عليك يا أبت، ليس بوقت الحديث في هذا الآن، دعنا لا ندع الحديث في هذا يشغلنا عن الطعام.

تأمله الرشيد للحظات بينما كان مروان في صمته وقال: لكن عليك أن تعلم أني أحبك وإخوتك، أحبكم جميعًا، ولا أكره لكم إلا الشر الذي ما زار أرضًا إلا وأورثها الهلاك بعد رحيل، وعسى يا أبنائي أن نكره شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

وفي قوله تلاقت أعينهم للحظات حتى قال الرشيد شرودًا فيها: عينا عمك مروان، ليستا مثلهما، لكن فيهما بعض أو بعضان، قلما يرث الرماديون من صفات ذويهم، فالرماديون أهل شتى منذ عهد أسلم.

بدا حديثًا غير مرحب به على الإطلاق، لكن الرشيد أخذ يسترسل فيه قائلًا وقد حال بشروده إلى موضع أمامه: يتوارث كل الناس الأسماء وبعض الصفة إلا الرماديين.

تجهم وجهه وتجمدت ملامحه يرمق الشمعة المتراقصة أمامه في هدوء: لقرنين من الزمان حكمنا وأجدادنا هذه الأرض، توالينا على أمرها تباعًا توالي الموج في جدول المياه، كنا عليها فيهم بين الرغبة والإكراه نتوارثها توارث الليل النهار، نرث الحكم والمال والقوة، لكن أكثر ما توارثناه نهاية كل ذلك، الجثوة!

حال بناظره تجاه مروان من جديد وقال: أوتدري ما الجثوة؟

ثم وكأنه قد ارتجفت ملامحه مجيبًا: الكومة من الرماد.

ثم تنهد وعاود الانشغال بالطعام بينما تبادل سليم ومهاجر وشاهد نظرات كادت من فرط التوجس فيها أن تبوح بكل شيء.

عدا مروان الذي بقي يحدق بعناد إلى وجه الرشيد..

كان الجميع في عبثهم يأكلون من أطباق الأرز. إذًا هو ليس ببيت القصيد، تنحصر الاحتمالات الآن بين أطباق الحساء والبطاطا، وكأس المياه والخبز، هو متطابق لكن أحدًا لم يقربه حتى اللحظة، وقد يكون هذا هو السر.

استهل مروان حديثًا: إذًا..

سكت منتبهًا لالتفات إخوته إليه ثم تابع: كنت مع تقي الدين الخازندار طيلة اليوم. هل من خطب؟

الرشيد متظاهرًا ببساطة الأمر: كلا، لا شيء، فقط بعض الأعمال يتوجب علينا إنهاؤها.

ثم لمع بريق فجائي في عينيه وقد أخذت نظرته منحنى جاد كأنه كره ثبات مروان وتجرؤه، قبل أن يُحمحم مهاجر صوته لكلماته محاولًا إضفاء طابع الاعتيادية للحديث: لم ألق أيًّا من جنود القصر في طريقي إلى هنا؟ أين ذهب الجميع؟

ليعاجله الرشيد منشغلًا بالطعام: بلى! لقد أمرت الجميع بالانصراف.

لتقع كلمته وقع الصاعقة على نفوس الأربعة حتى تسمر معظمهم، بينما تعلق نظر مروان متعجبًا يقول: بل أنا من فعل!

الرشيد في ثبات: لماذا؟

سعل مهاجر بشدة إثر توقف الطعام في حلقه فجأة، ليهرع الرشيد إليه بكأس الماء خاصته مرتشفًا منها ما يهدأ به سعاله، ليرتشف من كأس الرشيد بدلًا عن كأسه دون انزعاج.

لو أنه كأس المياه لما فعل، هو ليس بكأس الماء إذًا.

لم يبقَ إلا الحساء والبطاطا والخبز.

وبينما يفتك الرعب بعيني شاهد ارتبك ثبات مروان ليخر في قلبه هاويًا بثقته بين أضلعه، وقد تعلق به نظر الجميع في انتظار إجابته.

قال في تأني الاختلاق: فقط لم نجتمع على العشاء معًا منذ وقت طويل فأردت أن أجعلها أمسية خاصة نحظى فيها ببعض الخصوصية.

حجة ما كانت لتمر لولا أن يعلم الجميع بحقيقة الأمر.

تقبلها الرشيد متبسمًا: أحسنت صنعًا يا بني.

ثم عائدًا إلى طعامه: لن نحظى بليلة كهذه كثيرًا فيما بعد.. لدي العديد لأفعله في الأيام المقبلة.

ليعود الصمت يسود المكان من جديد يصفع وجوه الأربعة المرتعدة تتبادل النظرات.

إلى أن أراد سليم العبث بما آل إليه الحديث وتغيير محوره سائلًا شاهد: هلَّا جلبت إليَّ حساءً من لدنك؟

ليحمل إليه شاهد بيدين مرتبكتين أحد أوعية الحساء.

أخذ الرشيد شهيقًا فجائيًا تبعه سعال أشد، فزع له شاهد ليسقط الوعاء من يده هاويًا على الطاولة متناثرًا بعضه في سماء الطاولة.

ليسعل الرشيد سعالًا يسيرًا قائلًا: لا بأس، لا بأس.

ثم شرب شربة ماء من كأسه وقال: علق بعض الأرز في حلقي.

ليسأله مروان متفقدًا: أأنت بخير؟

- الحمد لله.

ثم باصرًا شاهد: ما بالك يا شاهد أسقطت بُغية أخيك؟

سليم دافعًا عن شاهد الإجابة: لا بأس يا أبي، لا عليه فدته نفسي.

بدا الأربعة في مخمص القلق، وقد ظنوا حين سعل أنها الساعة، ولكن كيف؟

كيف ولم يأكل إلا مما أكلوا؟

وبين الجميع على الطاولة بلغ الرعب بشاهد أن احمرَّ وجهه واصفرت عيناه مختلسًا الرمق إلى مهاجر عن جواره. تلك الدقائق ما أثقلها!

أما الرشيد، فبطلب سليم الحساء خرج عن جعبة الاحتمالات، ليتبقى ورقتي البطاطا والخبز، تكشف إحداهما عن الأخرى ، إما أن تكشف الأولى عن الثانية أو تكشف الأخيرة عن الأولى.

أيهما يسبق يكشف عن الحقيقة، وما يستويان مثلًا.

***

- مليكة كانت زوج الرشيد!

قالها اليمامي متعجبًا لتجيب عجبه كلمات تقي: أجل، أعتقها الرشيد بعد أن وهبها له الحاكم جارية قبل طرده ثم تزوجها، لكنها ذهبت مع العاصفة ولم تعد، هل تعرفها؟

- أي عاصفة؟ مليكة هي امرأة من أرض الشام تزوجها مروان بن الحاكم بعد وفاة الرشيد وأنجب منها فتى تركه مروان ما إن وُلد ورحل إلى خافير، الفتى الذي ولد باكرًا.

ثم اختفت وابنها ما إن عاد الرشيد ويأس الناس من عودة مروان ومن معه من الجنود، وقيل إنها خشيت على ابنها لعنة خافير التي طاردت الحاكم، ونافع الذي قُتل ومروان وجنودهما أن تصيبه من بعدهم، فأخذته وتركت الأرض وعادت إلى بلاد قومها.

- المرأة التي تزوجها مروان وأنجب منها ابنًا وعهد الرشيد بحمايتهما كانت مليكة؟!

- والله لو صدق ما تقول يا بني، فإنه لعجب ما سمعت، وما بقليل ما سمعت.

- إن كانت مليكة قد عادت وتزوجت من مروان وأنجبت منه ولدًا، وقد علم الرشيد فلماذا لم يخبر بهذا؟ وأين ذهبت مليكة وابنها؟ وكيف تركهما يرحلان؟ هنالك الكثير لم يخبرني به الرشيد لا يزال ينقصه كتابي هذا، ما حدث بعد إصابته بالسهم في أرض الخيزران، ما ذهب بحياة جنوده وجنود مروان هناك إن لم يكونا قد تقاتلا، سر خافير الذي يعلمه، وعودته صحيحًا سالمًا حيًّا بعد طعني له بالسُّم، عِلْمِهِ بنية أبنائه، وموعد ذلك وإصراره على حضور العشاء، هل يوقن بأنه سوف ينجو؟ أم أنه يريد المواجهة؟

وضع يديه على رأسه المتخم حتى كاد ينفجر وقال: لا أعلم يا شمس الدين! لا أعلم كيف ما زال حيًّا؟ أو إن كان قد مات حقًّا أم لا؟ أو ماذا ينوي فعله مع أبنائه؟ وما الذي أراده بطلب مقتله!

ثم مردفًا: ما لم يخبر به.. إنه إجابة كل هذا.

- إجابة كل هذا هناك، في أرض خافير، ومن يدري؟ ربما ليس فالإجابة فحسب!

- أنا.. خائف يا شمس الدين، ألست خائفًا؟

ارتفع شمس الدين شرودًا ثم قال:

- أنا لست خائفًا، أنا مرتعد!

***

بلغ الهدوء أشده حتى أخذت البرودة تخيم على الطاولة حين رصدت عينا الرشيد فتاتين للخبز أمام شاهد وقد اقتطع قطعة منه أخذ يقضم منها كأنما يقضم من قلقه تتساقط منه على الطاولة حبات خشنة تركد تارة وتركض أخرى.

لتتحول أنظاره إلى الطبق الأخير في قائمته وقد ضاقت عيناه وتعمقت أنفاسه حتى أخذ صدره يعلو ويهبط فينة وأخرى..

الآن يبدأ الفصل الثاني!

***

كان رأسه الكبير يحجب القمر في أقاصي السماء بينما يحجب بطنه الأكبر كل شيء تقريبًا. واقفًا خارج بوابة القصر واضعًا كلتا يديه خلف بطنه راح يراقب نافذة غرفة الطعام البعيدة وإن كانت لا تكشف شيئًا مما يدور هناك، سوى بعض الظلال لأفراد الطاولة أحدثتها الشمعات عليها لتتجلى منعكسة على ستار النافذة.

رمقها في صبر لثوان أخيرة قبل أن يستدير نحو الجنود المتناثرين في الأركان كأنما حانت لحظة انتظرها.

خرج صوت يعقوب السقري متجرأ يأمر الجنود بما بدا، وقد حفظه طويلًا حتى جاء وقته صائحًا بكلتا يديه: امضوا إلى سبيلكم.

لتدب الحركة في الجنود والفرسان على حد سواء وكأن الأحصنة قد عقلت كلماته كما عقلها جنودها حتى أخذت تدور وتصهل.

بينما يردف يعقوب يعلو بصوته شيئًا فشيئًا: يعلم كل منكم أين عليه القصد، اذهبوا وأَعْلِموا الناس أن خليفتهم طريح فراشه يلفظ أنفاسه الأخيرة.

ليبدأ الجميع في التحرك من مكانه في صخب.

تبادرت إلى عقله للمرة الألف صورة مروان بينما يمليه كلماته القادمة..

- أعلموا الناس أن رشيدهم يحتضر وسوف يموت!

انطلق على إثرها الجنود في طرقات المدينة وبين أزقتها يجول في هيئات مختلفة، منهم من يمتطي جواده، ومنهم ومن يسير على أرجل يحمل على بطنه دف عظيم، تختلف أشكالهم ونداؤهم واحد.

نداء فزع له كل من بلغ مسامعه..

إن الرشيد على فراش الموت يحتضر!

رشيد الذي راح يدور على أبنائه بعينيه ينظر وجوههم المرتبكة بينما يعيد قوله من جديد على مسامعهم: لماذا لا تقربون أطباق البطاطا؟

ليتبادلوا صمتًا دون الجواب.

أعادها من جديد ولكن هذه المرة مقربًا الطبق من مروان إلى جواره قائلًا: اطعمه!

كاد المقعد أن يقفز بشاهد من مكانه بينما وهنت أقدام مهاجر حتى لم يعد ليشعر بها، كما كاد سليم أن يفقد عينيه المحدقتين في فزع، بينما حدق مروان إلى الرشيد يكتم الكثير من الارتباك في ثبات كاد يضاهي ثبات الرشيد لولا ذلك الارتجاف في عينيه.

وللحظة توقف الجميع عن الحركة والكلام واكتفى كل منهم بالصمت، والقلق، والتفكر كيف ستكون خطوة كُلٍّ التالية؟

***

تسارعت حوافر جياد الفوارس وقد كُلفوا بالأحياء المتطرفة من المدينة، كلما عبروا بيتًا إما فتح بابه ذاعرًا أو خرج رجاله أو صرخت نساؤه.

وانطلق الخبر يجول وينتشر في المدينة كأنه نارٌ في هشيم.

نار دبت تفتك بفتيل الشمعات، وقلوب الجميع على الطاولة يشعر كل منهم كأن الخطر يتراقص بين الأرجاء حوله في جنون.

خطر تعلقت له الأبصار بوجه مروان ثم سرعان ما تتصارع على يديه التي أخذت تمتد تلتقط ملعقتها في وجس واضح راح يغمس به الملعقة في ثنايا طبق البطاطا بينما تتقلب التعابير على وجه الرشيد تتأرجح في تبدل سريع بين آلاف المشاعر المتضاربة يستحيل اجتماعها في قلب واحد في الآن نفسه.

قبل أن ترتفع الملعقة نحو فم صاحبها تقترب في بطء كأفعى زاحفة تتريث قتيل ليلتها الذي تبتلعه في جوفها.

والذي كاد أن يفعل لولا أن هبَّ الرشيد من مكانه فجأة، وأطاح بالملعقة بعيدًا وقد تفجرت الحمرة في وجهه!

حالت الأنظار جميعها ترقبًا ناحية الرشيد الذي انتصب واقفًا على رأس المائدة في موقف مهيب، هم شاهد بالحديث لكنه تراجع كما يفعل كل مرة ليكتم أفواه الجميع، يود كل منهم لو أن يعدو فارًا من هذا المكان في هذه الساعة.

تجول ببالهم أفكار في الرأس كالأشواك في الحلق تتساءل عن فعل الرشيد الغريب، لماذا طلب ما طلب من مروان وأطاح بالملعقة؟ تساؤل كان إجابته واضحة للجميع كوضوح جلوس أخي كل إلى جواره، لكن شيئًا في قرارة أنفسهم كان يرفض تلك الإجابة، شيء يقول من المستحيل أنه يعرف!

بينما كانت أسئلة أخرى تدور في بال الرشيد الذي وقف في مكانه وقد تفجرت عيناه بدموع قليلة لكنها ثقيلة، ما حملهم يفعلون به ذلك؟ ما حملهم على التخلص منه كما يتخلصون من جرذان أحذيتهم؟

ما حمل.. ما حمل مروان أن يقبل بالأكل من الطبق المسموم؟!

هنا قفزت في عقله الإجابة على الفور!

كما قفز بعدها ألم شديد!

ارتجفت يدا الرشيد رجفة عنيفة في سماء الطاولة أسقطت حاوية الملح بالقرب من الحافة بينما غزت ملامحه تعابير حادة قاسية!

تحاشى الجميع النظر إلى بعض، لتبقى أعين الرشيد وحيدة مرتعدة لا تلتقي بأعين أحد!

بينما تحركت ببرود يد مروان يجمع براحتها الملح المسكوب ناحيته متجاهلًا أي شيء قد يكون يحدث من حوله، أو متظاهرًا بذلك.

أما الرشيد فحدق في تجهم وقد أخذت أنفاسه تتضارب في تسارع مخيف، وألم شديد في أحشائه يربو، يتزايد شيئًا فشيئًا، كأن حربًا دامية تدور في رحابها أو رحى قاسية تدهسها كلها بلا رحمة.

لا يصدق، لا يُعقل، يتخلص من الفكرة كلما راودته!

رفع مروان بصره ناحية الرشيد تاركًا بقعة الملح المسكوب لترتفع أجفانه ناظرًا في وجه الرشيد في حدة وقسوة كأنها جناحا صقر.

تمتمات غير مفهومة مبهمة تصفع الأسماع لا تفيد معنى بعينه، لكنها تعج بالإنكار.

تمتمات هوى بها الرشيد على مقعده عاجزًا عن التقاط أنفاسه تنهمر الدموع من عينيه المحدقة وقد اصفرتا، واحمرت أجفانه وازرقت شفاهه في وقت يسير.

ثم مختنقًا راح يرتجف على مقعده.

النظر إلى حاله ليس مخيفًا ولا مخزيًا لكنه مرعب، يفجر قشعريرة ارتعاد قاتلة حتى تجنب الجميع النظر إليه وتحاشاه.

عدا من مروان الذي لم تبرحه عيناه في حدتهما وجرأتهما القاسية كأنه يتشفى بالنظر إليه!

قطعت تمتمات الرشيد كل صمت، وتراقصت الشمعات تلوح بها أنفاس الأربعة، حتى أفصحت تمتماته المبهمة عن حقيقتها أخيرًا، هي مقاطع غير مكتملة اختنقت ببقيتها أنفاسه، كلمة واحدة عاجزة عالقة بين الآلام في جسده، ألف الألم ولام اللوعة..

لا!

خرَّ رأسه هاويًا على الطاولة دكًا في دبة عنيفة ختمت هذا العشاء الطويل. دبة عاد بها الصمت ليتسيد الطاولة وعاد بها المكان إلى هدوئه الغائر والمخيف.

***

أسدل تقي ستار النافذة الصغيرة في دار اليمامي دالفًا، وقد طالع منها للتو نداء المنادي جَوَّابًا الطرقات في جوف الليل.

لتقابل عيناه عيني اليمامي في الداخل تعتريهما صدمة عارمة ألزمت كليهما صمتًا مهيبًا.

في الوقت الذي أخرج فيه مروان من ردائه منديلًا قماشيًّا داكنًا ألقاه على الطاولة، وضع بداخله ملعقة الرشيد، ثم لفه حتى أخفى كامل الملعقة كأنه قد ابتلعها.

أخفى اللفافة والملعقة بداخلها في ثوبه ثم وضع ملعقة أخرى جديدة أخرجها منه إلى الطاولة أمام موضع الرشيد، ثم شبَّك ما بين أصابعه يحدق أمامه في صمت.

صمت طال للحظات لم يسمع فيها إلا صوت احتراق المشاعل وفتيل الشمعات يخالط صوت حركة مقعد شاهد الذي تحرك يسيرًا بينما يقوم عنه ببطء تحرك به حتى رأس المائدة البعيد يرتجف ارتعادًا لم

يقوَ به على الجلوس على المقعد.

لتهوي قدماه بهدوء جلس به أرضًا دون أن تبرح عيناه مَرآهما مستندًا بظهره إلى إحدى قوائم المائدة.

وحين سكنت راحة يد مهاجر جبهته حتى اختفت خلفها عيناه واحتضرت الأنفاس في صدر سليم، أخذ كل شيء في الجمود أمام جثمان الرشيد الهاوي على الطاولة.

جمود طال وامتد، وبدا لن ينتهي!

*****

البوح الثامن

حتى تشرق الشمس

رؤية ضبابية غير واضحة..

وألم شديد يفتك بالرأس..

ظلام، ثم ضباب، ثم ظلام من جديد.

جدار أحد الممرات، الجزء السفلي بالتحديد حتى أن مشعل الجدار بدا مرتفعًا للغاية.

إنه ساقط على جذعه في أرض أحد الأروقة.

اشتد الألم برأسه حتى أمسك به في حركة مترنحة، نظر إلى يديه في رؤية تشتد ضبابيتها باشتداد الألم في رأسه.

ظلام من جديد...

ثم أخيرًا رؤية واضحة!

ذلك الشيء على يديه.. إنها دماء!

لطخت كلتيها.

قام من مكانه وفارق الجدار، وما إن فعل حتى سقط بغتة عاجزًا عن الحركة أو الرؤية بوضوح!

طالع الممر أمامه في فزع بينما تسيل الدماء من رأسه.

ما الذي حدث هنا؟

جاهد الألم في رأسه وصارع نهوضًا كان من الصعب بلوغه.

سار في أول اتجاه رآه لينعطف به الممر يمينًا يتخبط الجدران مناديًا هنا وهناك: مهاجر! مروان!

حاول الإسراع في خطاه باغيًا العدْوَ بينما يتعالى نداؤه متكدسًا بالرعب: مهاجر! سليم!

لكن أحدًا لم يجب، كأن صخور الجدران وحدها تسمعه. وابلٌ من الخوف غزا جسده، وأخذ يخفق بقلبه في جنون.

وصلت خيوط الدماء السائلة من رأسه إلى وجنته وحتى رقبته، نظر إليها ليلاحظ لأول مرة رداءه الملطخ بالكثير من الدماء خاصة أكمام ثوبه وصدره.

استمر في سيره المترنح مناديًا في كل حوب وصوب دون أن يجيبه أحد سوى صدى صوته يتردد في كل مكان من شدة الخواء، كأنه وحده في كل القصر.

إلى أين ذهب الجميع؟

ما الذي حدث هنا بحق الله؟

أخذ يجول في المكان باحثًا عن أي منهم قد يجده في طريقه متحملًا البرودة غير المعهودة في المكان.

صوت صراخ عارم بعيد قادم من الخارج من خلال النوافذ كأن ساعة تقوم خارجًا!

نظر من نافذة قريبة لكن الظلام كان يغمر كل شيء، ظلام غير معهود مثل البرودة.

ظلام حلَّ فجأة على المشعل إلى جواره، على كل الرواق، على الأروقة كلها!

وقف في مكانه للحظة يتخوف الحراك، لكنه سرعان ما عاد مسيره بين الأروقة.

ضوء قمريٌّ خافت تسلل إلى أحد الأروقة على موضع من الأرض أبصر به بقعة كبيرة من الدماء، كأنما تسلل ذلك الضوء خصيصَى من قلب الظلام الحالك خارجًا، ليبصر تلك الدماء!

عبر بالبقعة وتابع السير بعدها في ذعر حتى وجد أخرى، وأخرى تصل به إلى أخرى، والضوء يتسلل من نافذة ثم التي تليها.

يربو ذعره ويزداد حتى حل به جنون كامل تجاهل معه توازنه، وأخذ يعدو بين الممرات لا يأبه إن سقط أم لم يسقط.

حتى كان منعطف مظلم رقد فيه جسد آدمي يفترش الأرض، تستند رقبته وبعض جذعه إلى الجدار في حال مثل حاله، هلع إليه حابسًا أنفاسًا انقطعت تمامًا ما إن بلغه وأدرك أنه مهاجر!

مهاجر غارق في الدماء التي كست كل وجهه وصدره وحتى خصره وبعض حوضه يلفظ أنفاسًا كتمتها في صدره الدماء الكثيفة على وجهه.

سأل في ذعر: مهاجر ماذا حدث؟

انقطعت أنفاسه كما تحتبس في صدر مهاجر حتى بدأ يختنق بها!

سأل معيدًا في جنون: مهاجر ما الذي حدث؟

أخذ اختناق شديد يصارع أنفاسه يختنق بذعره اختناق مهاجر بدمائه.

- مهاجر ما الذي حدث؟

- هذا لم يحدث!

قالها مهاجر ثم أخذ نفسًا طويلًا مختنقًا، فيه من الرعب ما فيه من الدماء!

***

في غرفة خاصة وُجد كل من سليم ومهاجر. يجلس الأخير في فتور على مقعد في أحد الجوانب بينما وقف الأول يطالع النافذة، في غياب تام لمروان وشبه غياب لشاهد الذي توسطهما في أحد أركان الغرفة يغط في ثبات عميق وقد ذهب به النوم وابتلعه في أغواره.

وإلى جوار سليم ببضعة أقدام قبع باب متوسط الحجم بدا مدخلًا لغرفة أخرى، حال مهاجر نظره عنه بعد أن أطال النظر إليه طويلًا وقال: أما تراه قد أطال؟

ليأتيه صوت سليم دون التفات: دعه وشأنه، ما طلب إلا خلوة معه لبعض الوقت وهو حق له، فما إن تشرق الشمس حتى لن يتسنى لأحدنا رؤيته مجددًا.

بدا على كليهما القلق نفسه والشعور بالتعب، تعب عليه علامات طول الانتظار وسيل لا ينتهي من التساؤلات.

- برأيك هل كان يعرف؟

صمت سليم للحظات بدا فيها كأنه يبحث عن إجابة بين دروب القلعة الخاوية حتى قال: لا أعرف.

أومأ مهاجر لمقال سليم في ارتياب، ثم عاد برأسه إلى الخلف متنهدًا في إرهاق وصمت.

قبل أن تنتفض أطراف شاهد من مكانها فجأة يستيقظ من نومه فزعًا حتى هرول إليه مهاجر وسليم.

تسارعت أنفاسه في سرعة جنونية كأنها أنفاسه الأخيرة بينما يمسك كلاهما بذراعيه أن يهدأ.

قبل أن يعاجل سليم قلقًا: ما بك؟

نظر في فزع إلى مهاجر كأنه يبحث في وجهه عن الدماء ثم إلى سليم في رعب قبل أن يجيب مكررًا على مسمعهما ما سمعه في منامه ذاعرًا: هذا لم يحدث، هذا سوف يحدث!

ليجثم شبح القلق الصامت على صدور الجميع يضيق بها قدر اتساع الوحدة في القصر.

***

اقترب مروان ببطء من الرشيد الذي رقد جثمانه على أريكة طغت عليها برودة شديدة ظهر أثرها على وجهه الأبيض المتجمد الذي عكف عليه تهوي ركبتاه أرضًا في هدوء بينما انتصب ظهره هابطًا في ثبات.

جلس إلى جواره يتأمله للحظات قبل أن يشرع قائلًا:

- قبل أن تموت أمي، بينما كانت على فراش الموت، كنت أنت جالسًا بعيدًا تبكيها، بعيد على أن تسمعها، لكني سمعتها.

كانت تردد قولًا خافتًا حتى إني مع قربي منها لم أسمعه في البداية، لكني اقتربت بأذني منها حتى فعلت.

كانت تقول وهي تنظر إليك: توخى الحذر!

جفت في عينيه دمعات فلم تسقط بينما يقول: لماذا؟ لماذا لم تترك فرصة واحدة تؤذني فيها ولم تفعل!

أخذت ببدور، وذهبت بها بعيدًا، نفيتها وأنت تعلم أني أحبها، تفضل الآخرين عني دومًا برغم أني أكثرهم حبًّا لك..

ذلك العهد.. كان يجب أن يكون لي، تلك الولاية من حقي، أنا أكبر أبنائك وأحقهم بمالك! أنا الذي لم أبرح جوارك!

كاد أن ينفعل فسكت لبرهة أخرى أغمض فيها عينيه وتحلى فيها ببعض الهدوء قبل أن يردف: ذلك الذي أتاني، لقد أخبرني بكل شيء!

تجهم وجهه فجأة يقول: عراف.. إنه عراف!

أنا أحبك.. كنت أحبك! فقط تذكر هذا جيدًا.

قالها ثم أخذ يتراجع مبتعدًا عنه بينما يودع جيفته بنظر أخير، ولَّى إليه ظهره ثم راح يخطو خطوة وأخرى.

حتى تسمر في مكانه فجأة!

تجمدت ملامحه وازداد تجهمه واستدار ببطء رامقًا الجيفة ببصره محدقًا في صمت.

***

تحرك سليم مقتربًا بوجهه المتجهم من وجه الرشيد الراقد متأملًا حاله وقد وقف إلى جواره كما فعل البقية ملتفين حوله في ترقب بينما وقف مروان يتأخر عنهم ببضعة خطوات إلى الخلف.

رفع رأسه عنه من جديد ثم أدارها صوب مروان وأعاد قوله نفسه من جديد: أأنت على يقين؟

ليجيبه مروان: أجل.

ليعاجل شاهد مرتبكًا: بالطبع لا، ما سمعنا عن جيفة تحركت من قبل!

ليتحرك سليم قائلًا: أرى أننا مرهقون فحسب.

قالها ثم سكت وسكت الجميع. حتى تنهد مهاجر سائلًا: كم من الوقت تبقى حتى طلوع الشمس؟

ليجيبه شاهد من مقلقه: ثلاث ساعات أو يزيد.

قبل أن يقطع حديثهم كلمات مروان قائلًا: لم أمرني بالأكل؟ قائلًا إننا لم نقرب ذلك الطبق ثم أطاح بما أصبت منه بعيدًا؟

ليشتعل الحديث بينهم ارتباكًا حين قال شاهد: ما الذي تقصده؟

ثم يتبعه مهاجر: أتقصد أنه كان يعلم بالأمر؟

ليعاجله شاهد قائلًا: لا، هذا محال!

أغمض مروان عينيه زافرًا في تشتت بينما قال مهاجر محاولًا الهدوء حتى خرجت كلماته متآكلة مرتجفة: مثله، ومثل حديثه الغريب على المائدة، وسؤاله مروان الأكل، ثم فعلته تلك، كل الأمور تقول بغير هذا.

دبَّ ارتعاد يجول بينهم قادهم إلى شرود طويل قطعته كلمة مروان الواثقة في النهاية: وإن..!

لتتعلق به أنظار الجميع بينما يستطرد: كان يعلم أم لم يكن، لا ضير في خبر كان.

نظر إليهم يلفظون أنفاسًا مرهقة أردف لها قولًا: سوف آمر الجنود بالعودة وحراسة الغرفة ريثما ينتهي ما بقي من تلك الليلة، وحتى غسله ثم تشييع الجثمان في الصباح، الآن ليخلد كل إلى فراشه حتى تطلع الشمس، وما إن ينادي المنادي بأذان الفجر حتى يستعد كل منكم ولنجتمع معًا هنا مع أول بزوغ للنور.

أومأ الجميع في إيجاب رضًا بما قال مروان، عدا شاهد الذي انشغل رامقًا جثمان الرشيد في وجس.

***

ثلاث ساعات قبل شروق الشمس

خالط صمت المكان برودته وتصادم هدوؤه بأمواج القلق العاتية حين جلس سليم في غرفته على أقرب المقاعد إلى النافذة وقد شبَّك ما بين أصابعه شاردًا أمامه في ثبات الموتى.

بينما أسند مهاجر ذقنه إلى قبضته على طاولة غرفته محدقًا إلى الجدار أمامه في صمت يجول في خاطره بمئات الأسئلة، أقلهم حيرة لا إجابة له، وأكثرهم له ألف جواب.

بينما جلس شاهد على أرض غرفته أمام نافذته المفتوحة، إلى جواره كأس البابونج النحاسية بعينين ثابتتين مفتوحتين كالنافذة تحدق في جمود إلى ضوء القمر المتسلل من خلالها.

كل شيء مظلم وحزين وبارد. الجدران تكاد تنطق لو أنها تقوى على ذلك.

النوافذ يتسلل من خلالها أصوات لتلاوات عديدة قادمة من بعيد تحلق في سماء الليل. إنها بكائيات الخليفة.

القراء والمنادون وأبناء المآذن يتلون تلاوات حزينة باكية في كل مكان، ولأنها بعيدة أصبح لا يبلغ منها إلى سماء القصر إلا صوت حزين خافت يتخطف الأسماع.

راح الوقت يمر كما لو أنه رحى عتيق متحجرة جلس إلى قبلتها شاهد في موضعه على الأرض يرمق السماء في إرهاق شديد.

متى تشرق هذه السماء بالنور وتنقضي هذه الليلة؟

أغمض عينين مرهقتين تتوقان إلى النوم ولا تهتدي إليه السبيل مطلقًا تنهيدة قصيرة تعالى بها صوت دقات على الباب..

فتح الباب ليقفز إلى وجهه الوجس من فرط الارتعاد على وجه الطارق. مهاجر وقد تلبس به رعب عظيم.

***

تحرك متعجبًا فوق بركة الدماء السائلة على أرض غرفة الرشيد.

نظر إلى البقية من حوله متعجبًا يبحث بينهم عن إجابة غابت عن الجميع.

كيف أريقت كل هذه الدماء في غرفة الرشيد؟ ومتى؟

ثم السؤال المثير للارتعاد.. لمن؟

ليجد الجميع من حوله يحدق مرتعدًا في صمت.

***

ساعتان قبل شروق الشمس

– الأمر أشبه بسؤال يقود إلى سؤال، هذا السؤال الجديد يقود إلى آخر، وهكذا حتى نعود في النهاية إلى السؤال الأول!

قالها شاهد في وصب عظيم تأرجح به كأس البابونج في يده بينما عاد إلى أرضه أمام نافذة غرفته.

ليأتيه رد سليم متجهمًا يستقبل وجهة بعيدة في الغرفة ذاتها جالسا على الأرض مستندًا إلى قائمة الفراش كأنه يأبى أن يدنو:

– تلك التي يدعونها الأحجية التي لا حل لها.

قبل أن تنطلق كلمات مهاجر الجالس إلى جوار شاهد تزاحم الصمت: ليس بعد ما حدث، بدءًا من الآن كل شيء سوف يتغير، لن يبقى شيء على عهده، ما إن تشرق الشمس سوف نكون أقرب إلى الحقيقة من أي يوم مضى، لا مزيد من الأسئلة، لا مزيد من الأحاجي، فقط الأسرار بيننا، الكثير من الأسرار.

صمت الجميع شرودًا في كلمات مهاجر غافلين عن ذلك الجسد الرابع المجاور للباب خارج الغرفة، مروان وقد جلس أرضًا في الرواق إلى جوار غرفة شاهد التي جمعتهم بين جدرانها منصتًا إلى حديثهم القليل شاردًا في الرواق المظلم من حوله وقد استند إلى الجدار البارد.

شيء ما منعه من قضاء الليلة وحيدًا في غرفته، وشيء آخر منعه من الدخول إلى غرفة شاهد، ليختار البقاء في الجوار.

سمع همسًا تعالى لشاهد: ظنكم لمن كتب العهد؟

ثم صوت سليم: بالتأكيد إنه ليس مروان، ليس بعد ما كان من أمره.

كلمات جذبت أنظار مهاجر إليه كأنما حركت شيئًا ما في داخله بينما كان وقعها على مروان نفسه كأن في أذنيه وقرًا.

قبل أن يعيد شاهد ملحًا بالسؤال: مَن مِن بين ثلاثتنا إذًا؟

ليختتم مهاجر الحديث قائلًا: صُبحًا يا شاهد.. وليس الصبح ببعيد.

قالها ليتنهد كل منهم في مكانه داعيًا النوم أو شروق الشمس.

***

هبطت أقدام مسنة يابسة درجات صخرية مظلمة لأسمى تهبط ممسكة بقنديلها في يدها، تسترسل في بكاء حار سارت به خطوات مرتجفة إلى الأمام حتى بلغ الضوء محبس مليكة الذي استقبل وجهها سقف المكان المظلم وقد استندت إلى الجدار على حالها الدائم.

وضعت القنديل أرضًا ثم جلست إلى جواره وأخذ بكاؤها يشتد ويزيد حتى جذب أنظار مليكة المتجهمة.

ودون كلمة واحدة منها أدركت مليكة على الفور سر بكائها، فما نبأتها به قبل ساعات كان كفيلًا بشرح كل شيء. فلم تحتج إلى الكثير من الوقت حتى تدرك أنه قد مات!

ولم تفعل حتى أخذت تعتصر في قبضتها الواهنة ثوبه الذي تُرك بعد أن ضمته إليها لساعات منذ تيقظت، ووجدت أسمى إلى جوارها تخبرها بمرض الرشيد.

كم من المرات تحطم قلبها لهذا الخبر حتى اليوم؟

كم من المرات مات الرشيد؟ وكم من المرات سيموت بعد؟

***

ساعة واحدة قبل شروق الشمس

كانت الشمعة على طاولة اليمامي الصغيرة قد قاربت سطح الطاولة وأوشكت على النفاد ثم الانطفاء.

اليمامي شارد صامت صمت المكان من حوله في شرود نور أزرق خافت يخالط أركان الظلمة. شبح السكون والجمود وعبث الصدمة يخيم على كل شيء في المكان. سؤال واحد يتردد في العقول: كيف؟

وجملة واحدة خرجت من فيه اليمامي المنطبق:

- عليك أن ترحل!

قالها هامسًا بها لينعدم أثرها على مسمع تقي الجالس أمامه في مثل شروده أو يزيد إلا من إيماءة هادئة لفظت بها الشمعة المجاورة أنفاسها الأخيرة ثم انطفأت.

لأن النور الأزرق خارجًا كان ينتشر يعقب الليل الطويل، تمتزج فيها أول أضواء الشمس بخواتيم الظلمة.

نور طالعه من نافذة غرفته التي وقف فيها مروان وقد ارتدى من أثوابه أحسنها يرمق العاصمة وقد حجب جذعه المنتصب المظلم بظلام الغرفة أغلب النافذة. ثم لم يلبث أن تحرك وقد حانت اللحظة التي انتظرها لساعات. كما تحرك سليم ومهاجر يجاهدان إيقاظ أعين شاهد المؤصدة لتشهد بزوغ النور، لكنه غط في نوم عميق استحالت معه اليقظة، كأنه لم ينم منذ سنوات. ليغادروا غرفته على مضض وقد عجزوا عن إيقاظه تمامًا منصرفين تاركينه وكأس البابونج المطروحة على الأرض إلى جواره غائبين كظلمة الليل.

تحركت الجموع عن سكونها ما إن انفتح باب القصر واندلع منه جثمان الرشيد راقدًا في نعش خشبي مهيب تحمله أكتاف الجنود، ومن خلفه أبناؤه كأنهم الجيف تسير، ليعبروا به إلى مقدمة الجمع الذي انتظره بين أرجاء القلعة وينطلق الجميع خلفه بعضهم يُسبِّح وبعضهم يهلل وبعضهم ألجم لسانه الصدمة والبرودة والوحشة!

في غياب بدا غير مفهوم لشاهد صلُّوا عليه صلاة الجنازة في مسجده إلى جوار القلعة، ليدفن في مثواه في قبر الحاكم من جواره، القبر الذي حفر لأجله قبل سنوات كما كانت رغبته حتى لم يَبنِ قبرًا ثانيًا.

قبر حين فتح شهد منه النازلون والواقفون على مرأى من الجميع آخر ما كان في الحسبان!

***

لم ينفض الناس إنما اجتمعوا في ساحة القلعة وقد تعلقت أنظارهم بنصب واسع عال تراص عليها الجنود يشهدون لحظة انتظرها الجميع منذ سنوات، منذ أعلن الرشيد عن قرار قد اتخذه في نفس المكان.

خرج إلى مرأى الناس على النصب سليم ومهاجر يتقدمهم مروان بينما تأخر عنهما يعقوب وباقي الوزراء وأصحاب الشأن، فيما بقي حراء في مكانه على رأس الجنود قارعة النصب. توقفوا جميعًا في مكان ما عدا مروان الذي تقدم أكثر بخطوات ثابتة ارتكزت عليها أنظار الجميع.

تأمل الجمع في لحظات صامتة ثم قال عاليًا: أيها الناس!

ليفتقد ما لها من عظيم الأثر في إسكات الناس الذين كانوا صامتين منذ البداية قبل حديثه على خلاف عادتهم.

أردف مخاطبًا فيهم: أما مفتتح القول، فشَكَر الله سعي كل ساع وصلاة كل قائم ودعوة كل داع، ورحم الله خليفتنا الرشيد وأنار قبره بنور النعيم ورضوان الجنان، من عاش يعبد رب الناس يقضي حوائجهم، ويسمع شكواهم، وينصف مظلومهم، فوالله ما عهدنا أصلح منه للأمر أو أصوب للرأي، وإنا لفراق مولانا لمحزونون، جزانا الله وإياكم على ذلك خير الجزاء، ورزقنا وإياكم عظيم الصبر والسلوان فإن الله لمع الصابرين.

سكت لبرهة تعالى فيها إلى سمعه تمتمات وأصوات مختلفة اختلطت حتى فقدت معناها ثم عاد إلى حديثه يقول: وأما مقصد القول وحديث جمعنا، فتعلمون ما كان من أمر أبي أن أخفى عهده بالولاية حتى مماته، وحفظه في صندوق أقرَّنا عليه أمام الناس ألا يفتحنَّ قبل هذا اليوم وهذه الساعة، وقد أتت.

تغيرت نبرة صوته وتبدلت هيئته ثم أشار قائلًا: الصندوق أيا حراء!

ثم مردفًا إلى العامة: ذلك الصندوق، وجدناه في قبر الحاكم بينما كنا ندفن أبي، تذكرون كيف قال حين أخفاه أننا لن نصل إلى الصندوق إلا بعد مماته، وقد كان، رحم الله خليفتنا ومولانا.

ليتحرك من على رأس المتراصين حراء يحمل صندوقًا خشبيًا صغيرًا مزكرشًا تعلقت به الأنظار كافة، بينما يسوقه إلى مروان.

***

غمر اليمامي قلمه في دواة حبره ثم أخرجه وأخذ يكتب بخط رفيع في ورقة واهنة بالغة الصغر..

«إنه في ليل التاسع من جمادى الأول قتل الرشيد على أيدي أبنائه بِسُمٍّ عجيب..».

أنهى كتابه على عجل ثم برم الورقة بأنامله وربطها قبل أن يتوجه إلى قفص خشبي مجاور.

في الوقت الذي تسلم فيه مروان الصندوق من أيدي حراء وراح يفتحه دون حمله بمفتاحه الخاص.

«..وبطريقة لم يخبر عنها كان يعلم بالأمر..».

أخرج اليمامي من القفص يمامة بيضاء قبضها في يده بينما أخرج مروان من الصندوق الخشبي ورقة بيضاء اصفر لونها أمسكها في يده قبل أن ينصرف حراء عائدًا ليبدأ في حل العقدة عليها..

«..وقبل أن يموت كتب كتابا أخبر فيه كل أسراره، إلا ما يتعلق منها بالأمر..»

فتح مروان الورقة في هدوء أخفى وراءه الكثير من القلق، بينما الجميع ينظر إليه مترقبًا قراءته لما وقعت عليه عيناه فيها، عيناه اللتان لم تصدر أي تعبيرات في البداية ثم لم تلبث أن تجهمت!

بقي بصره مرتكزًا ساكنًا للحظة رفع رأسه بعدها خاطفًا نظرة إلى جموع الناس في قلق. ثم استدار إلى سليم والآخرين ينظر إليهم دون كلمة واحدة في صمت أشعل القلق في نفوس الجميع.

«.. كتاب كتبه تقي الدين وأسماه سرٌّ عظيمٌ كما أمره الرشيد، كما أمره أيضًا بقتله بخنجر مسموم ما إن ينتهي، ولكنه...»

هرول سليم ومهاجر إلى مروان وأحاطوا به يطالعون معه الورقة في يده في صدمة جلية اتسعت لها أعينهم عن آخرها بينما تعج بالارتباك أجسادهم تخالطها الرهبة من أصوات الحضور المبهمة في تساؤل وحيرة.

قبل أن يتمتم سليم سرًّا: الكاتب.

ثم إلى الجنود في غضب عارم: أين تقي الكاتب؟ أحضروه في الحال!

ليتبادل بغضبه الجمع المرتقب أنظار قاطبة.

«..وبعد دفن الجثمان اكتشفنا أن العهد والذي أخفاه الرشيد في القبر قد استُبدل من الصندوق كما سبق وأخبرني تقي بعد أن أخبره الرشيد إنه فعلها وأخفى العهد الأصلي!

ليصبح الأمر كما أن الرشيد قد مات ولم يعين وليًّا يخلفه في حكمه، وهذا في دستور الرماديين يعني أنه في غضون الثلاثين ليلة المقبلة - إن لم يظهر العهد – يذهب الحكم لأكبر أبناء الرشيد عمرًا على قيد الحياة!»

على أعتاب منزل تقي الخاوي انتشرت الجنود داخلًا وخارجًا يدمرون كل شيء في طريقهم بحثًا عنه أو عما يقودهم إليه في كل مكان، بينما وقف خارجًا بالقرب منهم مروان في هدوء زائف، وعلى بعد خطوة واحدة منه مهاجر يكاد أن يشتعل ارتباكًا وتشوشًا في ارتعاد كما اشتعل سليم في غضب جم أطبق في وجهه الذي اكتسب حمرة وأعقد حاجبيه يقبض على الورقة في يده حتى سحقها!

ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم تكدس الناس يتابعون ما يحدث أمامهم في ترقب ووجس.

«.. الكتاب في حوزتي، لا أعلم ماذا قد تحمل لنا أيامنا المقبلة، ولا يعلم أحد ماذا قد يكون في الانتظار..»

بينما كان صاحب الدار المنهكة قد ذهب أدراج الرياح يشق طريقه في الصحراء ممتطيًا جواده الذي انطلق، تتطاير الرمال من تحت حوافره يتصادم صوت صهيله مع الريح المتدفقة إلى وجهه حتى تطاير بها وشاح أحاط بوجهه ورقبته، ترتكز من بينه عيناه على وجهة بعينها، تقي وقد انطلق على ظهر خيله يفر من العاصمة حاملًا قدر ما أمكنه حمله من متاع.

«.. بات تقي في خطر، حيث علم الجميع إنه لم يبرح غرفة الرشيد طيلة نهار يومه الذي قُتل فيه، وأنه بلا شك يعلم عن أمر العهد شيئًا ، لذا أمرته بالرحيل، حقنًا لدمه..».

ثم ممسكًا بحافظة قماشية في يد وعصاه الاتكائية في أخرى، سار اليمامي خارجًا من داره متقلدًا أطراف الطرقات بينما ينفضُّ الناس عن دار تقي تباعًا. يرمقهم ولا يلقي لهم بالًا، ويرمقونه ويلقون له كل بال.

«.. هو الآن في طريقة إلى هناك، حيث مقدر له أن يكون..».

بلغ بسليم الغضب أوجه حين استهل تلًا على أطراف المدينة ينظر إلى آثار حوافر جواد فارٍّ من العاصمة تمتد من أسفل أقدامه وحتى وجهة غير معلومة.

صب غضبه في صوته يخاطب حراء إلى جواره:

- تذهب الساعة إلى السجن، إلى ابن الغربي، تخبره أني سأطلق سراحه، وأني أريده!

أومأ حراء في إيجاب ثم هم بالانصراف في توتر لكل ما يدور حوله من جنون بينما في الخلف أخذ هدوء مروان يشوبه الخوف وسكينته القلق معيدًا النظر للمرة الألف إلى الورقة في يده التي أخرجها من الصندوق ممسكًا بما تبقى منها بعد سحق سليم يقرأ ما كتب فيها بخط غليظ مقتضب.

«الموت قادم إلى الجميع»

ثم نفس عميق مرتبك من غضب سليم العارم..

«..حيث مقدر له أن يكون، إلى خافير..».

وفي مكان مغاير من أطراف المدينة، تثبت اليمامي الأرض ثم فتح حافظته القماشية وأطلق العنان لليمامة البيضاء بالورقة المربوطة في قدمها لتحلق بجناحيها عاليًا تسبر أغوار الصحراء إلى وجهة خطابه، بينما تتردد في ذهنه آخر كلمات ما كتب..

« إليكم!».

ليخرج نفسه ذاعرًا منقطعًا لم يكتمل. شاهد وقد استيقظ فزعًا من ثباته الطويل على الأرض أمام النافذة وقد بدد أنفاسه هول جديد قد رأى!

ولا يبقى له إلا فحيح أنفاس مختنقة يضيق بها صدره ملتويا على الأرض يصارع شبح رؤياه المفزعة!

****

سؤال راح يتردد في غياهب الظلمة، فلا يجيبه إلا صوت الأجراس والنواقيس تنذر بالويل والوعيد.

تُذكِّر بنبوءة قديمة، وعهد منسي وصفحات طوتها السنون.

حينها أدركت العاصمة أنها بصدد ليلة طويلة، الجميع فيها -وإن كان في مأمن- بين أنياب الخطر!

الفصل الثاني

أهوال الليلة الثلاثين

البوح التاسع

الأبواب

اليوم التاسع والعشرون

خفت ضوء شمس العاصمة تشهد عربة فخمة تمر بطرقات السوق المحطمة دومًا. أرض تطؤها آلاف الأقدام كل ساعة، أنى لها بالاستقامة؟

عربة اجتذبت ببهرجتها وضجيج مرورها أنظار القاصي والداني يرمقون عجلاتها الكبيرة وصندوقها الضخم تجرها الخيول الجامحة حتى وصلت وجهتها في أمان لتتوقف خيولها وقد انتهت رحلتها الطويلة على أعتاب القصر. في موضع لا يفصله عن أقدام مروان إلا بضع درجات معدودة يقف حبيس الأنفاس مبتهج الأسارير هائم الوجه، يكشف وجهه عن لحظة طال انتظاره لها، بل لحظة فقد فيها أمله كأنها لحظة خرجت لتوها من أحلام الأمس أو عادت من الموت.. والحقيقة أنها عادت من المنفى!

هبط الدرجات شوقًا يستقبل راكب العربة بينما يترجل عنها في إطلال بهيٍّ حد أن التمعت له عيناه ترمقان وجهًا أنثويًّا متبرجًا طاغي الجمال في زي مزركش فاضح قد يبلغ ثمنه أربع عربات مماثلة، وجه يقذف في العقل باسم واحد منذ الوهلة الأولى.. اسم هو بُدور.

قال في لهفة غير سوية:

- حمدًا وصولك أميرة القلب!

***

وفي الآن نفسه لم تكن حوافر خيول العربة وحدها من توقفت، بل توقفت معها حوافر جواد تقي في أرض بعيدة.

ترجل عنه متشحًا بوشاح أسود، تحوطًا، وإن كان من المستحيل أن يراه أحد. ومن قد يراه؟ من قد يحكم على نفسه حكمًا بهذه القسوة ويمتطي شيطانًا ملعونًا حتى هذا المكان؟

من يفعل ويترجل عن ركوبه محدقًا، ثم يقترب بخطوات بطيئة شاردة يطالع النهر من أمامه تتلألأ على ضفته المقابلة رمال بيضاء تلمع تحت لفيح شمس؟

شمس صحراء الخيزران!

***

أسقط عباءته عن جسده لتغزو أطرافه برودة يسيرة، سارت حتى جوف بدنه بينما يخلع ما تبقى من ردائه ليقف عاريًا مجردًا يرتكز ببصره على بدور التي استلقت على الفراش في مجون جامح وجرأة عاتية تصفع صفعة مميتة على وجه فطرتها الحييِّة.

بقي في مكانه جامدًا محدقًا للحظات بعينين تنفجران بالرغبة يتصاعد منها لهيب الغُنم، ألسنة تلمع ببريق قاتم مخيف. حتى تحرك في برودة وتباطؤ ينساق وراء غريزة لا تنطفئ كنهر جارٍ لا تركد مياهه حتى تفيض، ليتجهم وجهه ويخيِّم عليه طيفٌ ظلاميٌّ مخيف تستقبله بدور بابتسامة باهتة متوجسة بينما يحملق متأملًا شِباكها.

أظلام بظلام، وجهه وجهها بينما يعلوها في مرقدها لتنزلق تحت وطأته كأنها تنزلق عن صراطها القويم. اخترق الميل المكحلة لتصرخ صرخة كتوم ظاهرها اللذة وباطنها غير ذلك.

إثم..

ثم إثم...

ثم آخر.....

الأول عليه هين، والثاني عليه أهون، والكل ليس بالسواء.

تناسى مروءته وتناست حياءها، وتتضاحك من حولهما الشياطين. شياطين يراقبونهما من كل مكان، من أركان الغرفة، ومن سقفها. من أعلى الفراش ومن أسفله وعن أيمانه وشمائله ينتشون. يبتسمون فرحًا في خبث ويتبادلون الأنظار في احتفاء، يتراقصون من حولهم في حال لو رأوهم عليها لتركا فعلتهما من فورهما واقتلعا أعينهما من تجاويفها، ثم لا يبرحان عويلًا وارتعادًا حتى الموت!

تنقبض جدران وتتمزق أرواح.

لإثم..

ثم إثم...

ثم آخر.....

تدب حرارة اللهيب في أجسادهما كأنما تشتعل به نفوسهم. ثم في لحظة واحدة ماكرة تختفي اللذة كأنها كانت سراب، وتندثر الرغبة كاندثار قوس قزح حين اقتراب، وكأنما نزعت كل الزينة حتى بدت لهما سوءاتهما وباتت الأمور على بعض حقيقتها، حقيقتها الموجسة الموحشة المثيرة للاشمئزاز. فاض النهر وركدت المياه وعادت العباءة، وانصرفت الشياطين مسرورة تميل، ولم يبقَ إلا الإفك وقد أسقط العفو، وهتك الستر، وأحرق الصحف.

أخذت بأطراف أناملها تداعب فروة رأسه التي تدلت على فخذيها بينما انتصب قوامها منسدلًا عليه شعرها الناعم يجلسان على أريكة طويلة تحتل جدارًا بأكمله وقد تسللت على ظهورهما أشعة الشمس. قالت في شرود:

– لو أن عرافًا أخبرني أنني سأعود إلى هنا من جديد، والله ما صدقت أبدًا، لكنها الأيام تروح وتغدو ولا تدري بأي الأقدار تعود.

بينما يستمع لها مروان الشارد مثلها، وإن كان غير منصت لحكمتها الغريبة على لسانها، والتي هي ربما أثر الانعزال في المنفى قد استحدثتها هناك أو أزاحت عنها الغبار.

- كيف مات؟

قالتها على حين غرة كأنها قد حبستها كثيرًا في صدرها، الحقيقة أنها كانت كذلك بالفعل، منذ جاء الجنود ليأخذوها إلى مروان وعرفت بما حدث وهذا السؤال يتردد على بالها طيلة رحلتها.

سمعه مروان وصمت لبرهة كأنما احتشدت آلاف الكلمات في حلقه فجأة حتى لم يخرج أي منها.

وفي اللحظة التي تجمدت فيها أناملها بين خصلات شعره قال بصوت محشرج وهن: قتلناه!

ارتعدت بدور حتى انتفض جسدها، بينما رفع مروان رأسه واعتدل إلى جوارها جالسًا يردف:

- ربما لم يأتِك العراف لكنه أتاني.

ثم مرتجفًا صوته: أتاني وأخبرني أن أبي قد جاء بالعهد على ذكري، وأني كنت لأخلفه في عهده، لكنه سيعرض عن أمره بعد ما رأى مني ومنك وما حدث من خلافنا الأخير بعد نفيك، لذا كان علي منع ذلك، جمعت إخوتي وأخبرتهم أن العراف قد جاءني وأخبرني بما فيه ضراؤنا، وذهاب حقنا، وأن أباهم ينتوي تغيير صاحب العهد من بيننا إلى رجل غريب، ليس بأخ لنا أو قريب، يأخذ حقنا ويمنع ملكنا ويخلف أبانا، وأن علينا بأن نمنع ذلك راضين بحكم أبينا من قبل، وليكن الصاحب الأول من يكن، والذي كان أنا، لكنهم لو علموا بحقيقة ما أخبر به العراف وأنه أنا من سُطر اسمي في سطور العهد لما وافقوني على هذا، كذبت عليهم وفعلنا ما فعلنا، ومع هذا تبدل العهد!

ثم جنين بكاء راح ينمو في رحم صوته يردد: قتلنا أبانا ومع هذا تغير العهد يا بدور! قتلناه وتغير العهد! فتحنا الصندوق وما وجدنا غير النبوءة القديمة.

ثم قالها متلجلج الصدر يستشعر قدر الرعب في حروفه للمرة الأولى: الموت قادم إلى الجميع! والعهد.. كأنه اختفى!

قالت ولم يزل عنها ارتعادها بعد: ولكن يا مروان.. لم يعد هنالك عرافون! هذا الذي جاءك...

ليقاطعها قائلًا: بل لم يزل.. إنهم موجودون، نحن فقط لا نراهم! ما عادوا يعيشون بيننا.

ثم عائدًا إلى جرته من القلق: لقد مررنا بأيام ثقال، ليال مروعة، ثمان وعشرون ليلة نترقب الموت، مَرَّ كل شيء كأنه فجر وضحى، لم ينفك سليم بحثًا عن العهد، ولن يرقَّ له مضجع حتى يجده قبل الليل الثلاثين، ومهاجر..

طغى عليها ارتباك شديد ما إن سمعت باسمه..

- ومهاجر ما عاد ليأمن أحدنا أو يحتمل المكوث في القصر حتى لا يفارق نافذة غرفته، لا ينتظر إلا انقضاء الليالي، وما إن تفعل ويذهب ما بقي له من أمل، سيرحل، ولن يعود أبدًا.

أما شاهد، فمن نال منا ما نال شاهد؟

تهبط بدور الأرض متوسلة: لا يزال بإمكانك الخلاص، بإمكانك ترك كل شيء والرحيل!

تبدلت على الفور ملامحه معنفًا: ويحك ما تقولين قاتلك قومك!

- أنت تعلم إلام أرمي أليس كذلك؟

ثم قائمًا عن مكانه ذهب يقول: أعلم أن ما مضى لا يضاهي شيئًا فيما هو مقبل، وأن غدًا يحمل معه عاصفة قد يحملها اليوم، وقد يحملها كل يوم، وحتى الأبد، وقد قررت أني سأكون اليوم والغد وإذا ما تداعى الأمر.. سأكون العاصفة.

كلمات ختم بها قوله وسمعتها بدور من خلفه وقد تملكها الخوف، خوف جعلها تنهض وتقوم عن مكانها وتتحرك صوبه في بطء لتعانقه من خلفه ولسان خوفها يقول: وأنا لن أدعك، إنما سأبقى إلى جانبك، أنا لديك وأنت لدي!

قالت وما كانت تقصد بقولها حقيقته، فبدور ما كانت لتكن أية حقيقة تجاه مروان، كلها مكنونات زائفة، وأول العارفين مروان نفسه، هي زائفة لكنها جميلة. لم تكن بدور تقصد إلا أن تجتنب انصباب غضبه فوق رأسها، وأمن البأس يوم البأس، تمامًا كما تفعل في الفراش حين تخبره كم كان فارسًا بينما تشفق عليه في الحقيقة، وكما تداعبه دائمًا بحلو الكلام وظاهر العشق بينما تنتظر اللحظة المرتقبة بإغداقه عليها بالعطايا والثناء انتظار الأجر.

ويبدو أن لحظة الإغداق المعتادة قد حانت حين تحرك مروان صوب ركن بعيد من الغرفة. لقد حانت ولكن حان معها ما هو غير معتاد، ما وضع تلك المسكينة على أبواب جحيمها. ولم لا؟ فيم تختلف عن بقية أهل هذا المكان حتى لا تفتح أبوابها؟

- ماذا تفعل؟

قالتها في دلال يميز هذه اللحظة دائمًا، كالطفل الأبله الذي يظن حيله تنطلي على الجميع ولا ينجح أحد في كشفها أبدًا حتى يفعلها كل مرة. لحظات وعاد بصندوق أتاها أخرج منها ما فغر بها عينها وفاها. قلادة ذهبية ثقيلة، وضعها صوب عينيها متبسمًا قبل أن تأخذها في لهفة تقول:

- إنها رائعة!

ولكنه حين قال: إنها مهرك، سوف نتزوج!

ارتعد وجهها في صمت ولم تتكلم.

***

جلس مهاجر في غرفته شاردًا في غير إدراك بأي شيء حوله، شرود بدأ يعتاده في الآونة الأخيرة منذ اعتاد المكوث بالقرب من النافذة يرمق المارة خارج القصر، لم يعد يفكر في الخروج البتة كأنه يخشى افتضاح أمره، أمر هذا الخوف البادي على وجهه. من يخشى من شيء لا يعلمه، يخشى كل شيء، والعين لا تعرف الأسرار، وقد تفصح عن سره وإخوته أو على الأقل تضع القناديل للشكوك، وفي كلتا الحالتين الخطر قريب وإن كان قربًا قديمًا.

ومن المنطلق نفسه، أخذ يتحاشى الوجوه داخل القصر كذلك، حتى بات حبيس غرفته تقريبًا لا يفارقها إلا قليلًا، مشهده اليومي من تلك النافذة هو قبر الرشيد ومرتادوه من الرعية، ذلك العدد القليل من الناس الذين اعتادوا ارتياد الضريح كل يوم منذ اليوم الأول وحتى اليوم التاسع والعشرين.

لفت نظره مرارًا أن البعض منهم لا يبرحون الضريح البتة إلا لأداء الفرائض في المسجد المجاور كأنهم يسكنونه دارًا، أمر بتفقد حالهم ذات مرة وإخراجهم من الضريح لكن ذلك لم يجدِ نفعًا، وحجة ذلك أنهم يدعون لخليفتهم الراحل آناء الليل وأطراف النهار، حتى لم يستطع إخراجهم فلا يُحدِّث الناس أن أبناء الرشيد يمنعون الناس من الدعاء له، فتكون بهذا عظيم فتنة. وبعد أيام من هذا، أرسل بينهم رجالًا من لدنه يسترقون السمع ويراقبون أفعالهم، ويبيتون معهم في جوف الليل، وما عاد به أولئك الرجال في الصباح كان صادمًا وغريبًا..

– كنا معهم نبيت حيث باتوا ونقوم حيث قاموا، حتى قبيل بزوغ الفجر، وجدناهم يطوفون حول القبر مرددين سرًّا لم نتبينه جيدًا، وحين اقتربنا منهم يا مولاي رأينا شيئًا عجيبًا..

كان أمرًا غريبًا شغل باله لأيام، لكنه سرعان ما تجاهله ظنًا منه أنهم مجموعة من أصحاب البدع يسأل لهم الهداية. وشغله الشاغل كان ما ينتظر القصر، إنها الليلة الثلاثون، لكم يخشى تلك الليلة، يعلم يقينًا لا ظنًا أن تلك الليلة قيامة قادمة، لا ينفك يتذكر ما وجدوه مكتوبًا في صندوق العهد ذلك اليوم كلما تأمل هذه الحال، ويتساءل لماذا بدل الرشيد العهد؟ من كتب فيه؟ وأين أخفى العهد الأصلي؟

وحين حمل سليم على عاتقه إجابة الأخير، تحير هو في إجابة الأول. تلك كلها علامات تؤكد الشكوك في صدره، لقد كان الرشيد يعلم بالأمر، لا جدوى من الهرب من الإجابة الوحيدة.

إجابة وحيدة مربكة عليه تدبرها وحده، في ظل عزلته، وغياب سليم عن القصر، وحال شاهد، وحتى مروان، نشأ بينهما حاجز غريب جعل الحديث والاجتماع بل حتى التلاقي العابر أمورًا غير محببة. وهكذا مرت الأيام في القصر كالكوابيس لا يخيف فيها شيء قدر هدوئها، هو ذلك الهدوء سيئ السمعة بلا شك. وهذا الصباح كان موعده مع سؤال آخر جديد، يثير في النفس استفهامات مؤججة ويوقظ جراحًا قديمة.

سؤال أتى مع عربة بدور هذا الصباح حين شاهدها تعبر بوابة القصر. وحين قفز إلى عقله الإجابة قطعها في مهدها دخول أحد الخدم يخبره بأن حاوية الطعام جاهزة، ليترك أفكاره ونافذته وغرفته ويخرج معه على الفور.

تقدم في الردهة وعن يمينه الخادم وحامل حاوية الطعام يخطوان نحو مقصد قريب، حين خطت في الردهة نفسها على بعد منهم خطوات أخرى مقابلة لضيف حديث النزول بالقصر، ضيف قديم العهد به سرعان ما قد اكتسب شحوب الوجه وشرود العينين اللذين يميزان أهل هذا النُّزُل.

بدور وقد بدا الخوف والصدمة جليان على وجهها المتجهم تتبعها خادمتان من القصر تسوقانها نحو غرفتها. وقع عليها بصر مهاجر أولًا، لكنه لم يبدِ أي ردة فعل لذلك، على الأقل حتى وقع عليه نظر بدور بدورها ليلتهمها ارتباك فوق صدمتها، حتى وصلا إلى نقطة الالتقاء بالغًا فيها ارتباك كليهما ذروته!

ثوان معدودة جمعتهما ردهة واحدة كانت تمر ثقالًا كأنها أيام، حتى انعطف كلاهما كل إلى وجهته. ردهة كاد أن ينفجر فيها كل شيء.

وصل ومن معه إلى غرفة شاهد التي تعين لها – حديثًا – حارسان تنحيا جانبًا ليفتح مهاجر الباب ويدلف ويتبعه في ذلك المصاحبون. كانت حاوية الطعام تحوي كأسًا دافئةً من شراب العسل، تلك

الخلاصة الذهبية للنحل أوصى بها الحكيم لشاهد صباح مساء بينما منعه من تجرع المزيد من شراب زهور البابونج، قطعة لحم مسلوقة دون بهار حتى كانت دون رائحة، وبالتأكيد دون طعم كذلك، ورغيفًا من خبز مألوف يذكر بليلة عصيبة ماضية.

أغلق من خلفهم البابَ حارساه، ليعود إلى الغرفة هدوؤها الرتيب من جديد. توسط مهاجر الغرفة التي ازدحمت بضوء الشمس يحاول محاولة بائسة إضفاء الراحة وبعض السلام إلى المكان، لكن أي سلام وذلك الضوء نفسه قد تسلل من بين قضبان حديدية متعامدة على النوافذ جميعها كغرفة مجنونة لسجين أشد جنونًا؟

أسرع الحامل بوضع حاوية الطعام جانبًا على الطاولة ثم انصرف تاركًا مهاجر واقفًا يرمق ذلك الكرسي الكبير أمام إحدى تلك النوافذ المُقضبنة، كرسي خشبي ضخم ساكن سكون الجالس عليه. جسد تصلبت أطرافه ووجهه كالجدار، لا يتحرك من بدنه إلا صدره صاعدًا هابطًا تحركه أنفاسه، تفجرت في عينيه حمرة اصطبغت بها أجفانه، لا يضاهيها إلا شحوب وجهه وصُفرته، اختلطت خصلات شعره ليس بأشعث أو بمهمل لكنه مُصَفَّفٌ على غير طبيعة حتى بدا كالمتناثر في انتظام، وآخر ذلك نحولة شديدة كنحولة الموتى.

- شاهد!

قالها مهاجر قبل أن يخطو أولى خطواته، انتظر إجابة يعلم أنه لن يتلقاها لكن لعل هذا الصباح يكون مختلفًا. تحرك آخذًا بحاوية الطعام واضعًا إياها على الأرض إلى جوار شاهد ثم جلس أرضًا إلى جوارهما عاكف يتأمله.

منذ تلك الليلة، لم يعرف بدن شاهد الراحة قط، ثمانٍ وعشرون ليلة بمئات الكوابيس، لا يعرف النوم ولا يعرف مضجعه طريقًا إليه، أرطال البابونج لم تشفع له، كلما غفا رأى منامًا مفزعًا جديدًا، تارة يرى مروان يأكل أصواعًا من الملح يتجرعها بقبضة يده ملقيًا بها في فمه حتى يمتلئ به! أو حبيس قفص محكم الإغلاق لا ينفك يحاول تحطيمه، وذات مرة رآه في قلب صحراء بيضاء الرمال يلد رضيعًا انتفخ بها بطنه!

وأما سليم فيراه تارة يتسلق نخلة طويلة حتى يسقط عن قمتها أو يركض خلف حصانه الهارب باحثًا عنه بين ربوع غابات كثيفة وفي بعض الأحيان تكون متاهة خضراء واسعة وفي بعض حجرية خانقة، أو يحفر حفرة في جوف الأرض ينهال ترابها فوق رأسه، حتى يدرك بعدما فات الأوان أنه يصنع لنفسه لحدًا يُدفن فيه، وليس حفرة يَدفن فيها. أما مهاجر، فيراه يهرب دائمًا، يهرب ويلوذ بالفرار من مطارد ما، ثم لا ينفك يكتشف أنه مغطى بأكمله بالدماء حتى إنها تملأ جوفه ويستيقظ في النهاية مختنقًا بها!

امتنع عن الطعام والكلام والحركة وهجر النوم حتى كره اليقظة، ليصبح بين نيران أرق هنا وكابوس هناك، كابوس مفزع إذا ما نام، وآخر مؤلم إذا ما تيقظ.. إنه الموت حيًّا بعينه!

جنون سكن كل شيء، يفسر وجود تلك القضبان.

قال مهاجر في شفقة: لقد جلبت لك الطعام يا أخي، أستحلفك بالله لتأكلنَّ منه. كُل يا أخي وإلا هلكت!

لكنه لم يحرك ساكنًا، أخذ الحاوية ثم وضعها على ساقيه الواهنتين وقال في توسل: تزود ببعضه حتى تبرأ.

شاح شاهد ببصره إلى الحاوية في غير اشتهاء ثم شرد فيها أكثر دون حراك، بينما أخذ مهاجر إلى جواره نفسًا عميقًا حتى يسعه القول بصوت يحتشد به بالألم: عُد إلينا يا أخي! عُد أرجوك!

تساقطت من عينيه الدمعات بينما يردف: أنا مرتعد، أحتاجك إلى جواري، أرجوك أن تعد عفا الله عنا وعنك، والذي أمرُ الرشيد بين يديه لو أنك طلبت نفسي على أن تعود سالمًا لفدتك بها.

سكت ليتحرك وجه شاهد ببطء رافعًا بصره عن الحاوية ناظرًا في عيني مهاجر المدمعتين، ليخرج أنين متقطع من صدره قبل أن يقول: أنا.. أراه!

تجهم وجه مهاجر للحظات يطالع شاهد وجهًا إلى وجه بعد قوله، ليتقابل رعب وجهيهما دون حديث. بقيا ساكنين لوهلة قبل أن يُخفض مهاجر رأسه كأنه قد سئم هذا الحديث وأخذ قرارًا بعدم الخوض فيه من جديد فقال رابطًا على كتف شاهد في شفقة: كُل يا أخي، كُل.

قال شاهد في ارتعاد ارتجف به صوته: غدًا تشرق الشمس ومعها القيامة، وتغرب ومعها الجحيم!

صمت مهاجر للحظات يخفي ضجره وكيله الذي قد فاض من هذا الحديث، بينما لا يزال يحدق إليه شاهد مرتعدًا خائفًا، ثم حزينًا باكيًا.

- لن ينفعكم الفرار إن فررتم!

قالها ثم التفت إلى حاوية الطعام وراح يقتطع من رغيف الخبز ببطء شديد بينما يبصره مهاجر في حاجبين منعقدين. ولوهلة شرد في كلماته متأملًا وقد أدرك أنه بدأ يباشر طعامه أخيرًا، وهلة كانت كافية لأن يلقي شاهد في فمه بغتة قطعة ضخمة من الخبز ويبتلعها!

صُعق مهاجر لفعلته ثم سرعان ما قفز من مكانه منقضًا على وجه شاهد في فعل أطاح بحاوية الطعام لينقلب الكرسي أرضًا إلى الوراء ساقطين كليهما على الأرض تخالط صيحات مهاجر المذعورة نزاعه فم شاهد ينتزع قطعة الخبز من فمه، لكنه كان سرعان ما أودي بها في حلقه، لتقف عالقة في موضع بين الابتلاع وعدمه، موضع ممتاز للاختناق حتى الموت!

وبينما رقد شاهد يتلوى اختناقًا على الأرض اعتلاه مهاجر يضغط على رقبته تارة وعلى بطنه أخرى، هرول الحارسان دخولًا إلى الغرفة على أصوات صياح مهاجر واحتضار شاهد المرعبة الذي سرعان ما دبت في جسده رجفة قوية راح يهتز لها أرضًا بعنف.

صاح له مهاجر في غضب: شاهد! شاهد!

ثم في وجه الحارسين المرتبكين: أسرعا إلى الحكيم في الحال!

أخذ يدب بقبضته على بطنه وظهره صائحًا باسمه في هيستريا بينما تغزو شاهد التشنجات والاهتزازات العنيفة ملتويا في حال من الارتباك الشديد الذي عجز معه مهاجر عن التفكير قبل أن يهتدي إلى أن يضع يده في فم شاهد، لتنقبض أحشاؤه على الفور بقوة كأنها تُعتصر، ليفغر فاه عن آخره محدثًا

ألمًا لا يحتمل بانقباض أحشائه الخاوية سرعان ما أخرج به قطعة الخبز من حلقه مفسحًا الطريق للهواء في اللحظات الأخيرة، ليقتحم الهواء صدره آخذًا نفسًا عظيمًا بدأت بعده نوبة شديدة من السعال بلا توقف.

ذهب بعض روع مهاجر وإن كانت لا تزال أنفاسه أسرع من تقافز الفزع في عينيه يتناقل بصره في المكان من حوله بسرعة خاطفة محدقًا في جمود الصدمة.

أخذ برأس شاهد بين ضلوعه في عنف، وبينما يسعل الأخير بشدة استمر هو في التحديق بعينيه، وقد بدأ أخيرًا يدرك شيئًا فشيئًا مما هو مقبل!

***

انفتح باب قاعة المجلس ليدلف منها مروان مطالعًا كرسي الخليفة في جانبها البعيد، تباطأ قليلًا وأخذ يتطلع إلى المكان من حوله. لم يتبقَ الكثير من الوقت، لكن كذلك لم يعد من سبيل للتراجع، أو مكان للضعف ، ليلتان فقط تفصله عن تقلد الحكم، وعليه أن يحسم أمره، إن ظفر بالخلافة سيكون قد انقضى الجزء السهل، وبقي له الصعب، وهو الحفاظ عليها والأمان فيها، وفي سبيل هذا عليه التخلص من كل من يعرف بالأمر دونه وإخوته، كل من ساعدهم على فعلتهم، ولم يشاركهم فيها عليه الخلاص منه، وعلى رأسهم ذلك العجوز، العراف صاحب النبوءة والخطة والأداة، عليه الخلاص منه لزامًا قبل تقلد الحكم فلا يثير حادثه سؤالًا يتهمونه فيه أو مأخذة يأخذونها عليه.

لا بد أن رسالته في طريقها إليه الآن، لقد انصرف رسوله للتو، يدعوه إلى مأدبة على عشاء الغد في الليل الأخير، سوف يصرف كل من في القصر ويلعب اللعبة ذاتها من جديد، ولكن هذه المرة لن تشرق الشمس على كابوس طويل، إنما ستشرق على الخلاص ونهاية كل شيء.

جلس على الكرسي في اعتزاز، أصابته رهبة في الوهلة الأولى، لكنه سرعان ما استمد منه القوة والثقة. تأمل المكان من حوله كيف تغزوه أشعة الشمس، المشهد من هذا الموضع مهيب لكنه بديع. قطعه في شروده دخول حارس إلى البلاط لينحني في استئذان ويقول: شمس الدين اليمامي يطلب الإذن لحديثكم يا مولاي.

ليقطب مروان حاجبيه، ويرفع رأسه متعجبًا، ثم يعود بظهره إلى الوراء قائلًا: شمس الدين؟

***

تقدم متكأ على عصاه كعادته، تظهر عليه آثار إرهاق بخلافها، بدا متنازع الأمر، منشغل البال كأنما يتراجع في خطوة ويقدم على أخرى، متأرجحًا في ارتباك سرعان ما اندثر وحل مكانه ثقة كأنه أعدها خصيصًا، ليضاهي بها ثقة مروان الطاغية.

قرأه أول ما قرأ السلام قائلًا: السلام عليك أيها الأمير.

ليجيبه مروان في تباهٍ: وعليك السلام.. كيف حالك يا شمس الدين؟

سكت قليلًا متأملًا سؤاله قبل أن يقول: انتظرت لكثير من الوقت حتى ألقاك، أسأل الله لك العون وأسألك العذر أني أثقلت يومك بقدومي في غير موعد.

– لا تقل ذلك، أنت مرحب بك في كل وقت، إنها فقط أمور الرعية كما تعلم.

– ولهذا أنا هنا، لأجل أمور الرعية.

بدا مروان متفاجئًا حتى تبدلت تعابير وجهه إلى أخرى أكثر جدية قال بها: هات ما لديك.

تلفت اليمامي بحثًا عن مقعد قريب لكنه لم يجد، التفت إلى مروان ليرى على وجهه كيف فطن إلى الأمر، لكنه تجاهله، رسالة خبيثة منه بأنه لا يرغب في أن يطيل الحديث.

جال بها اليمامي قليلًا في خاطره قبل أن يقولها: هل سمعت قبلًا أيها الأمير عن أرض تدعى أرض اليمام؟

ذهل مروان وقال محتجًا: ألهذا جئت؟

تجاهل اليمامي سؤاله الاستنكاري وصوته الحاد، على كل هو يعلم أنه ما قال ما قاله ليسأله الإجابة عنه فقال: أرض اليمام يا مولاي، هي أرض بعيدة خلف وديان برهوت، يعيش فيها اليمام مع الناس جنبًا إلى جنب، يبنون أعشاشهم بين بيوت الناس، ويحلقون بأجنحتهم فوق رؤوسهم وينشؤون فيهم كما ينشأ المرء في أهله، لذلك ترى الأناس منهم أحرارًا، على خلقتهم كما وُلد آدم، يقولون الحق ولو على رقابهم الحسام، لا يسألون عليه حاجة ولا يخشون فيه خشية، تلك هي الأرض حيث ولد شمس الدين والربع حيث نشأ.

مروان قاطب الحاجبين وكأنما فطن إلى نيته: ما أتى بك هذه الساعة يا شمس الدين؟

ليباشره اليمامي قائلًا: لا ترد المنجاة أيها الأمير!

ثم مردفًا: قوت الشدة، ليس بعد كل ما عانيناه لسنوات في جمعه، والله إن فعلت لتبددنَّ دماء قومك ولتجلبنَّ عليهم بئس ما جلب أمير على قومه وراع على رعيته، بأس عظيم لن يدع حيًّا ولن يحفظ حقًّا.

قال مروان ناكرًا عليه: لكنها غلال الناس، سألوها ورأيت ردها إليهم، عقلت الأمر وتدبرت، ثم رأيت أن ما هو للناس فأمره للناس، وأن يأخذ كل منهم حصته قسطًا وعدلًا، لا يظلمه فيها أحد ولا ينازعه فيها أحد. هو حقهم! أفنبخس الناس حقهم يا شمس الدين؟

– خرق السفينة ليس من حق أحد أيها الأمير، وإن رأى قبطانها ذلك.

– أنت لا تزال تقول بتلك النبوءة أليس كذلك؟

– النبوءة حقيقية، لا ريب في هذا.

ليجيبه مروان منفعلًا: عن أي نبوءة تتحدث؟ تلك التي اعتُقد في قدومها دهرًا ولم تقع؟ تلك التي عاش بها الرشيد ومات ولم نر منها حتى يقينًا يقطع الظن بها، أنت حتى لا تدرك ما هو ذلك الموت الذي تتحدث عنه النبوءة! تلك النبوءة لم تكن إلا هراءً في مخيلة أبي، ووالله لا تحَدَّث الناس أن مروان قد تتبع خطى أبيه فيها وأجاعهم، لهراء تحَدَّث به عرافون، وبيننا في هذا الناس، أخبرني من منهم يقول بالنبوءة

اليوم؟ أما كنت تسمع ما يقولون في أمرها وأمر المنجاة وأمر أبي؟ لكني كنت أسمع! أسمع ولا أقوى على الرد، واليوم يوم الرد!

أومأ اليمامي شفقة في غير رضى سكت بها للحظات ترك فيها مروان حتى يهدأ بعض روعه وتسكن هائجته.

ثم قال: لبئس ما قلت أيها الأمير!

لكن مروان لم يهدأ وقاطعه قائلًا في نبرة التحدي مشيحًا بسبابته: تقول النبوءة أن وقوعها سوف يكون في حياة الرشيد، فهلا حدثتني أين النبوءة وموت الرشيد؟ أين هي والرشيد قد مات؟

– ما قالت النبوءة بمثل هذا قط!

– بل قالت!

– كلا، إنما كان اعتقاد اعتقد به بعض العرافين وحمله الناس على النبوءة افتراءً عليها!

– وإن كان اعتقاد بعضهم، فقد تبين خطؤهم فيه، فلماذا يتحتم علينا تصديقهم في أمر النبوءة وقد أخطؤوا في غيره؟

– لأنهم العرافون! ما جربنا عليهم كذبًا قط.

زفر مروان هازئًا وقال: وقد جربنا!

سكت لحظة ثم أردف: اسمع يا ابن اليمام، للناس أمر المنجاة، ولي أمر الناس، وقد عهدت إليهم بردها ولا رجعة لي فيما عهدت، كما لا دخل لك به.

اليمامي في لسان المحذر: بل إنك أخرق، لا تريد إلا شراء ولائهم بها وإن هلكنا بمثل ذلك! خطأ تقترف أيها الأمير، خطأ عظيم!

ثارت ثائرة مروان، تفجرت في عينيه حتى اشتعلتا بلهيب كتمه في جوفه يقول في غيظ بلسان محذر ضاهى لسان اليمامي: تعسًا لك! لعمري لو أنك قلتها وأنا الخليفة لما برحت موضعك حيًّا، اذهب فما غفرتها لك قط!

ليجيبه اليمامي في ثبات: ما أنا إلا لك ناصح وعلى قولي أمين، وإني لا أبرح مكاني حتى تخبرني حجتك في هذا إن فعلت!

– حجتي في ذلك لنفسي، لكني مخبرك بها فلا تظن أني أكتمها لضعف فيها أو بأس مني، لقد رأيت فيها مصلحة العامة ومرضاتهم، لا أحبس قومي حقهم وغلالًا تكفيهم من السنين عشرًا من أجل نبوءة لا نعلم بها يقينًا.

– رد المنجاة لن ينفع وحبسها عن الناس لا يَضُر، ما داموا يجدون طعام يومهم، وإن كان حبسها ضرٌ فضر ما حذر منه العرافون أشد وأعظم، وإن كان ردها نفع، فدرء الضر خير من جلب النفع! أفلا بئس المفسدة ذي؟

ألجم قوله لسان مروان ليجيبه وقد فاض به الكيل: أراك قد أطلت جدالًا يا شمس الدين وإني لأكرهه، فدع هذا لولاة أمره نحن أدرى به منك، وإني لغفار لك تطاولك في حديثك هذا، إن قدمت الولاء، وأعلنت البيعة، وأشهرت الطاعة، ثم أسفت عن هذا.

ابتسم اليمامي ابتسامة باهتة وقال: أخبرني أيها الأمير.. أما تساءلت قبلًا ما اسم هذه الأرض؟

قالها دابًا بعصاه موضع قدمه في رفق ليبدو مروان وقد بُغت بسؤاله حتى أجاب مرتبكًا: هي بلا اسم!

- لماذا؟ لم هي بلا اسم؟

عجز مروان عن الإجابة لتتسع ابتسامة اليمامي ثم يعاجل:

- لهذه الأرض أسماء كثيرة، كل من جلس في مكانك هذا كان يتخذ لها من أهوائه اسمًا غير سابقه حتى كثرت أسماؤها وتعددت، وعام بعد عام يتبع اسم اسمًا، حتى ما عاد يهتم لأمر ذلك من أحد، ونسيت الأرض فنسيَ الناس. إن كل من جلس في مكانك ظن أن تلك الأرض خاصته لا يبرحه ولا تبرحه، تأبد له ويأبد لها، ويبقى حاله على هذا حتى يشهد بنفسه ويشهد الناس خطأه فيما ظن.

اعلم يا بني أنك راع ومسؤول في أمر رعيتك، وتدبر كيف هي، وكيف أنت، وكيف الدنيا، قبل أن تسقط المقصلة ويسبق السيف العذل، اسأل عن اليوم الذي لا مرد له من الله.

ثم تلاشت ابتسامته فجأة..

وأردف: حين يضع الحكم العدل والميزان، ويكن لكل حكمه وعدله، وحكم طابخ السُّمِّ.. تجرعه! فحاذر أيها الأمير!

قالها ليشتعل مروان ارتباكًا كأن صاعقة قد حلت به، وتتسع عيناه في توتر أخفق في إخفائه كل الاخفاق، توتر رمق به اليمامي الذي أدار ظهره منصرفًا يرتجف انتشاءً، بينما يرتجف هو رعبًا ورهبة!

ألجم التوتر لسانه وعقده حتى عجز عن التفوه بنصف حرف، ورغمًا عنه ساقته حركاته يقوم عن مكانه مرتعدًا ثم قدماه يتبع اليمامي بخطى قصيرة بطيئة ومتخبطة.

تبعه حتى خرج من قاعة المجلس ليقف على أعتابها يرمق خطواته المبتعدة في تحديق، صدمة أيقظت فيه قلق خمد لأيام، عجز حتى عن التساؤل، إذ تضاربت الأسئلة في رأسه، لا يدري أيسأل هل يعرف بأمر السم حقًّا أم كيف عرف!

هل يملك من الوقت ما يكفي للبحث عن إجابة؟ أم أنه بالكاد يكفي لإيجاد حل؟

إنه مشوش، مرتبك، وخائف...

لا يفعل إلا أن يتأمل خطوات اليمامي المبتعدة مستندًا على عصاه، تلك الخطوات، الكلمات والنظرات، وحتى العصا! كيف أصبحت مرعبة فجأة؟

أما نظراته هو، والجحوظ في عينيه فكان متخمًا، مخيفًا، ومليئًا بالإشارات الخطيرة!

***

الليل التاسع والعشرون

أقبل الدجى وانسدلت الزرقة الظلماء تكسو رحاب الصحراء، صحراء انطلق بها خيل مهيب يقوده فارسه بمهارة يشق به الطريق كالشهب، تبعه خيل آخر بدا أكثر خمولًا عن الأول حتى تقهقر دونه.

سارا في وديان الليل حتى كان عند خيمة عظيمة في موضع مرتفع من الصحراء أحاطتها مشاعل النيران المثبتة في الرمال ليظهر على ضوئها وجه سليم يترجل عن ظهر دابته في مهارة عالية، وحين فعل مرافقه المتقهقر ووقف به جنبًا إلى جنب تبادلا بعض الحديث يتأملان موضع الخيمة.

كان ومرافقه تلك الليلة هو عقبة بن المقدام، أقرب رفقائه وأكثرهم ولاءً له قد وصلا إلى خيمة معزولة على تلال صحراء بالقرب من العاصمة خرجا إليها قبل أيام وقد ابتغاها وجهة تهديهما إلى طريق ضالتهما الغائبة.

قال سليم رامقًا الخيمة متمسكًا بوشاحه في وجه الرياح بصوت جهوري عال بغى به التغلب على صوت الريح: ألم نقترب كثيرًا من العاصمة؟

ليجيبه عقبة: بلى، ولكن دع عنك تلك المخاوف فجنود مروان ليسوا بوجود ها هنا.

– لا أخشى إلا أن يكون فخًا من تدبير مروان، فيقبض علينا ثم لا يطلق سراحنا حتى تتم الليالي الثلاثين، ويصبح الخليفة، وحينها لن ينفع عهد أو يضر، ولن يُمَكِّن لنا سبيلًا لإدانته بحبسنا وسجننا.

تنهد في تشاؤم ثم قال مشيرًا بقوله إلى صاحب الخيمة: لا يعلم بقدومنا أليس كذلك؟

– كلا، كما أمرت، فنأمن وشايته بنا لمروان وجنده.

– نعم الصنيع.

تركًا دوابهما ثم تناقلت أقدامها تنازع الرمال حتى وصلت إلى أعتاب الخيمة، وقبل أن يدخلا أشهر سليم عن خنجره وعقبة عن سيفه ثم وقفا يسترقان السمع قبل الدخول.

ليقفز إلى أسماعهما صوت من داخل الخيمة كأنه أدركهما على خفية: لا داعي لهذا.. هلمَّ أيها الأمير!

قالها لتتخطف الصدمة وجه سليم وعقبة يتبادلانها في حذر بينما يتعالى صوت الرياح تشتد أكثر فوق رؤوسهما..

رؤوس شغلها السؤال!

حقًّا ما يقوله الناس إذًا!

ترددا في الدخول إلى الخيمة لولا أنهما سمعا ذات الصوت من جديد يقول: لا أحد إلا من قدمت لأجله، ادخل ولا تجزع أيها الأمير!

نظر عقبة إلى سليم سائلًا ليشير له بالدخول على أن يتقدمه، فدخل عقبة مستلًا سيفه وخلفه تبعه سليم بخنجره.

دلف كلاهما ليجداه جالسًا بانتظارهما على وسادة قطنية كبيرة، متربعًا أمام رقع من الأحجار مبعثرة كتجاعيد وجهه، صلبة كقامته، تضاهيها عيناه بشحوب الشقاء عليه حدة، له ندبة في عينه اليمنى. قال عقبة مشيرًا بسيفه: كيف علمت بقدومنا؟

ليجيبه الرجل: إن كنت لا أعلم وأنتما قدوم علي، فما حاجة قدومكما هذا؟ ضعا عنكما أسيافكما ثم اقعدا.

وقبل أن يفعلا جهر سليم محدقًا إلى وجهه: أما والله قد صدق ما يقولونه عنك!

- وما يقولون عني؟

- يقولون إنك عراف في غير زمان العرافين، لا يعلمون من أين قدمت أو كيف جئت أو متى؟ لكنك لست ممن يسكنون الأرض، إنما أنت مرسل من عند الله تقضي حاجة الناس، تجلب لهم الرزق وتدفع عنهم الضر، وتذهب عنهم بأسهم والأغلال التي كانت عليهم.

إنك النُصرة، ولا نُصرة إلا بك!

جلس في مقابله وقد وضع خنجره في غمده لا تنصرف عن عينيه عيناه بينما أخذ عقبة يحدق إلى وجهه وهيئته أكثر، شيء ما في وجهه يثير مخاوفه، أهي تلك الندبة في عينه اليمنى يا ترى؟ عينه كأنها باب لعالم آخر بعيد، عالم أزلي واسع، أوسع من رقعة كل هذه الأرض، وأقدم من عمرها، كأنها باب من أبواب الجحيم!

- ما حملك إليَّ أيها الأمير؟

سأل ليجيبه سليم: لدي عهد غائب، في لقياه حياتي وعليه مماتي، أخبرني عن مكانه أين مخبأه؟ ومن بدله؟ أو دلني إلى من على أمره بعلم يظفرني به قبل شروق الشمس الثاني.

لم ينبس الرجل ببنت شفة. فقط شرع في تقليب أحجاره وتلاوة تراتيله ثم أخذ يتأملها كأنما يبحث من بينها على حجر بعينه حتى وجده، رفعه إلى أذنه مطبقًا عليه بكفيه كأنما يهمس إليه الحجر.

وضع الحجر مكانه ليعاجله سليم قائلًا في لهفة: بم تبوح الأحجار؟

- الأحجار لا تبوح يا مولاي، إنها فقط تشير!

ثم مستطردًا: فالغيب لا يعلمه إلا الواحد، بمثل هذا جاء العرافون.

أسرها عقبة في نفسه ولم يبدها لهم قال: لكنك لست عرافًا، لقد ذهب العرافون منذ زمن، إن كانت الأحجار تشير ولا تبوح، فما حاجته بالسمع؟ قلبي لا يحدثني إلا بالسوء!

بينما جهر سليم: وإلام أشارت إذًا؟

- إنها تشير إلى أخيك.. مروان!

قالها ولسماعها بُهِت سليم.

***

وعلى النقيض كان الليل في القصر هادئًا هدوء اللحود، كعادته في الأيام الأخيرة. وفي هذا الهدوء جلس مروان في غرفته مفكرًا كيف سيكون يوم غده، كلما تفكر كيف بنهايته سوف يكون الخليفة وكيف سيقيم مأدبة عظيمة لتوليه الحكم وزواجه من بدور في آنٍ واحد، يبدو الغد كأنه منام جميل.

لكنه كلما تذكر غيبة سليم الغامضة، واختفاء العهد حتى الآن الأكثر غموضًا، حديث اليمامي المخيف، وخطته لعشاء الغد، يبدو في نظره يوم كابوسي طويل، لا يخطر على باله مهما بلغ في أسوأ توقعاته وأشدها سوادًا ما بِالفِعْلِ يخبئه الغد من أهوال!

كاد أن يلقي بجسده على الفراش لولا أن انفتح فجأة باب الغرفة بعنف.

***

رددها خلفه سليم محدقًا: مروان؟

ثم مردفًا: إياك ومراوغتي والكذب.. أقسم بالذي نفسي ونفس الرشيد بين يديه، لئن لم تصدقني القول لأصلبنك على جدران القلعة حيًّا حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين!

قبل أن يعاجله: على رسلك أيها الأمير فاسمع.

سكت سليم ليقول هو: اعلم أن لا حاجة لي بالكذب، وعلامة على قولي لن آخذ منك دينارًا ولا درهمًا، لقد جئت تسألني العهد، لكن لا حاجة لك بالعهد!

- ماذا تقول؟

- أقول إن ذلك العهد حق، وإنك لا تريد الحق أيها الأمير، إنما تريد الخلافة، والخلافة في غياب العهد أيسر وأقرب منالًا، ثم إنك إن بلغت العهد ما أدراك أن فيه ذكرك؟

- إلام ترمي؟

- أرمي إلى أن الخلافة دونه تؤول إلى أكبر الأبناء سنًا.

همَّ أن يردَّها عليه قائلًا: وهو مروان.

لولا أنه قطع في حلقه كلمته قائلًا: على قيد الحياة!

***

أخذ مهاجر نفسًا طويلًا تنهده بعمق أمام النافذة قبل أن يخلد إلى فراشه بلحظات، همَّ أن يعتلي الفراش لولا أن تعالى صوت دقات ذاعرة على الباب..

***

خرج مسرعًا سليم من الخيمة على عجل، وقد تبعه عقبة يلاحقه قائلًا: أستحلفك بالله، أن تعدل عن هذا يا مولاي.

ليرده قائلًا دون أن يتوقف: ابتعد عني يا عقبة وإلا قاتلتك! بالكاد أبلغ العاصمة قبل فوات الأوان، إن شئت قدمت معي وإن شئت فرقت.

قالها ليومئ عقبة في غير رضى مستمرًا في ملاحقته وقد عزم على مرافقته، غافلين عن ذلك الجندي المتربص بهم من خلف الخيمة اختباءً، جندي يظهر على زيه أنه من جنود القلعة.

ركب سليم وعقبة دوابهما وقد حلا رباطهما لينطلقا في طريقهما في جهة دون الجهة التي قدما منها.. جهة تقود نحو العاصمة!

وما إن أمن انصرافهما حتى خرج الجندي من مخبأه محدقًا إليهما من مكانه متمتمًا في عجب: الأمير سليم؟

ثم رامقًا الخيمة ورسالة الأمير مروان إلى صاحبها بين يديه.

***

خرج مروان من الغرفة إلى الممر متعجبًا انفتاح الباب من تلقاء نفسه أو أن أحدهم فعلها ثم اختفى!

كان هذا ليثير غضبه، لكن في هذا الهدوء وفي تلك الليلة بالتحديد، ما أثار شيئًا إلا الخوف.

لمح طيفًا ظلاميًا سريعًا عبر راكضًا من خلفه في نهاية قريبة للممر ليلتفت في ذعر تعاظم أكثر حين لم يجد أحدًا!

ليقف موضعه مرتعدًا وحيدًا بين الجدران.

***

- من بالباب؟

قالها مهاجر مقتربًا من الباب في حذر لكن طارق الباب لم يجب فقط اكتفى بالمزيد من الطرق!

ذهب وغدا بخنجره في يده، ثم فتح على حين غرة. نَظَرَ متفاجئًا تغزو وجهه علامات الحنين والفرح بلقاء وجه غاب عنه لسنوات لم تلبث أن انقلبت إلى غضب جم في نظرات حادة عنيفة.

كاد أن يغلق الباب في وجه بدور لولا أنها أوقفته بيدها ثم بلسانها:

- أنا ومروان سوف نتزوج!

ليتوقف بقولها كل حراك.

***

انعدم الضوء في غرفة شاهد المعتمة إلا قبسًا من ضوء القمر الأزرق تسلل من نافذته أمام كرسيه الخشبي الكبير الذي جلس عليه ساكنًا دون حراك، ليسقط على وجهه المائل نفحة من ضوئه تظهر قلقًا ورعبًا عظيمين باديين عليه، متأملًا ساحة القصر وصرح القلعة وقبر الرشيد والسوق وبيوت الرعية وطرقات المدينة، كل شيء هادئ الآن، يرمقه تأملًا كأنه يعلم بأنه هدوء أخير لن يراه مجددًا، وأن تلك الليلة هي آخر ليلة تنعم بهذا الهدوء.

حتى ترجم ما يشعر على الكرسي خاصته، إذ بين هذه الحلكة الظلماء لم يكن الرعب في وجهه هو الشيء الوحيد الذي كشف عنه القمر التاسع والعشرين.

ففي حركة مرتجفة عنيفة ممسكًا بساق ملعقة الطعام النحاسية التي سرقها من الحاوية قبل أيام أخذ يحفر نقشًا لم يكن بالإمكان تبيانه حتى فرغ منه ونزع عنه يده ليتسلل إليه الضوء أخيرًا..

نقش لعدد من دوائر متداخلة بعضها فوق بعض..

نقش كأنه لضباب.. أو عاصفة قادمة.

***

جذبها مهاجر من يدها إلى الداخل ثم مسرعًا أغلق الباب.

طالعها في غضب جم وقال: وما تريدين مني أن أفعل؟

لتجيبه في قلق: لا أعلم، افعل أي شيء! ليس بمقدوري الرفض، ليس بيدي الخيار حتى، إنه لم يسألني عن رأيي!

تشوشت أفكار مهاجر واحتبست في رأسه الدماء مكتفيًا بالتوتر الجم دون أدنى كلمة بينما أردفت بدور في انفعال: افعل أي شيء، أنت تعلم أني أحبك دونه، أخبرتك مرات عديدة منذ أن علمت بحبه إياي أن تفعل شيئًا ولم تفعل، فافعل هذه المرة إلا وانتهى كل شيء!

سكتت لبرهة ثم استطردت: حتى تلك المرة حين حذرتك ألا تخبر أباك بالأمر، لكنك أصررت إلا وأن تفعل، وما كانت النتيجة إلا نفيي إلى أرض بعيدة! فهلا تستمع لي هذه المرة؟

بلغ بمهاجر البأس أن جلس على موضع قريب وراح يهتز بجسده ويضيق بجبهته من فرط القلق، لتقترب منه بدور وتقول: علمت منه أنك لا تريد البقاء في القصر.. وكذلك أنا.

شردت للحظة تقول كأنها تفكر بصوت عال: ولا سبيل آخر إلى ذلك. ينتبه إليها مهاجر ليقول: أي سبيل؟

لتفصح عنها من وثاق صدرها: الهرب!

***

تقدم مروان في أحد الأروقة وقد تتبع طيفه الغامض ينعطف خلفه من رواق إلى رواق ومنعطف إلى منعطف وممر إلى آخر كلما نظر إليه لم يجده شيئًا ويعود عابرًا في مكان آخر.

إلى أن اختفى فجأة ولم يعاود الظهور.

وقف باديًا عليه انزعاج شديد وشعور بالإعياء.

همَّ بالعودة إلى غرفته لولا أن سمع صوتًا مألوفًا يخرج من خلف أحد الأبواب يقول: كيف؟

اقترب أكثر من الباب منجذبًا إلى ذلك الصوت الخافت في غرفة مهاجر ليضع أذنه على الباب حتى لم يعد كذلك.

صوت أنثوي: أنا في غاية القلق.

ثم صوت مهاجر يجيب:

– بدور أنصتي لحديثي جيدًا، أنا لن أخسرك من أجل مروان من جديد، سبق وفرق بيننا الرشيد لأجله، وإني لفاض كيلي هنا، وليس أمامنا إلا فرصة واحدة لهذا، عند زوال شمس الغد سوف أكون في انتظارك

عند الخزائن الغربية خلف مدرسة المازني، الحقي بي إلى هناك، ولنذهب بعيدًا ثم لا نعود أبدًا!

- وأخوك شاهد؟ قلت إنه ليس بإمكانك تركه!

- سوف أتحدث إليه وآخذه معنا على أني سوف أخرج به في نزهة خارج القصر لبعض الوقت، وتلك ستكون حجتي في الخروج.. لنبقى معًا.

- إلى الأبد؟

- إلى الأبد!

***

الليل في الصحراء عاصف بريح شديدة محملة بالرمال والأتربة وينبئ بعاصفة في طريقها نحو العاصمة.

عاصفة عبرت ضفاف النهر الذي يفصل صحراء الخيزران بينما في الجهة المقابلة انحنى جسد عظيم بركبته اليسرى على الأرض يتفقد آخر أثر أقدام يتتبعها منذ أيام طويلة، قبل أن تمحوه العاصفة هو الآخر وقد محت كل الآثار بعده!

غارت رأسه في وشاح أسود ثقيل احتمت به، رأس رفعها نحو النهر وقد حلت بها الصدمة ما إن أدرك وِجْهَةَ طريدته، إذ لا شيء دونها بعد النهر..

تجهم ابن الغربي وقال في ارتعاد جم:

- إلى أين يذهب هذا؟

*****

البوح العاشر

القيامة

اليوم الثلاثون

شمس اليوم شاحبة.

البرودة أشد من أي يوم مضى، والسماء برغم خوائها من السحب إلا أنها امتلأت بغبار كثيف، ضباب برتقالي قاتم ومخيف اصفر بها لونها. يحجب رؤية الوجهات البعيدة، والبدايات الأكثر بعدًا.

كذلك كان الطريق الذي حاذته المساحات الزراعية الخضراء المعبأة بالغبار على كلا جانبيه تنطلق عليه عربة مألوفة راحت تشق بها الخيول ذلك الطريق، حين أسدلت بدور ستار العربة وقد عجزت للمرة المائة عن تحديد معالم الطريق أو موقعه، ومع صمت مروان الدائم، وجهالة الوجهة لا يبعث الأمر على الاطمئنان أبدًا.

تنهدت قائلة: ما عدت أذكر طرقات العاصمة جيدًا.

ثم حالت ببصرها إلى مروان مردفة: إلى أين نحن ذاهبان؟ لِم تأبى أن تخبرني؟

ليجيبها مروان متحاشيًا النظر إليها كما يفعل منذ خرجا: لسنا في العاصمة، لقد ابتعدنا كثيرًا، ستعرفين كل شيء ما إن نصل. لا تتعجلين فقد اقتربنا.

استمرت بالنظر إليه برغم سكوته تسأل نفسها عن سر تلك الرحلة المفاجئة وتبدل حاله معها المفاجئ أكثر والمثير للقلق كذلك، لكنها آثرت الصمت والانتظار خوفًا من أن تزيد إجابته من قلقها أكثر. راحت تفكر في أمر مهاجر، ماذا إن تأخرت عن الموعد؟

قالت في نفسها: ما العمل الآن؟

ثم عادت إلى مروان:

- هل سنطيل مكوثًا في وجهتنا التي نذهب؟ لدي الكثير من العمل لأقوم به من أجل العرس.

قبل أن يقاطعها قائلًا: سنناقش كل شيء ريثما نصل، تحلي بالصبر.

وقعت في مفرها الذي فرت منه وأثارت إجابته خوفها وصمتها مرتبكة شاحبة الوجه بينما استمرت العربة في الابتعاد يتضاءل حجمها شيئًا فشيئًا حتى ابتلعها ضباب الوجهة البعيدة.

توقفت فجأة في مكان ما بدا أنه الوجهة حين سكنت العجلات.

لحظات وانفتح بابها ليظهر من خلفه السائق معلنًا الوصول ليترجل مروان من فوره، ثم يمد يده إلى بدور سائلًا منها النزول، رمقته في لحظات جامدة تعرب عن قلق جم قبل أن تأخذ بيده مترجلة حتى وصلت إلى الأرض.

نظرت حولها لتجد في مرآها بنيانًا حجريًّا عظيمًا حَدَّ الأراضي الزراعية من نهايتها، بينما حَدَّها على الجانب الآخر غابة مهيبة كثيفة الأشجار. بنيان ضخم شديد الارتفاع ليس له أبواب، لكنّ له درجًا مهيبًا في أحد جانبيه كأنه مائتا درجة أو يزيد.

سار بها حتى وصلا إلى الدرجات الصخرية ليسبقها بصعود أولى درجاته ثم يمد إليها يده للمرة الثانية يطلب يدها دون كلمة في أمر مباشر لها بالصعود.

وعاليًا انتهى الدرج إلى سطح ذلك البناء، أرض صخرية واسعة يتمركزها فناء عميق بارتفاع الدرج يصل إلى الأرض، كأنها أرض واسعة يعلوها ذلك السطح من جوانبه الأربعة. يحد السطح خارجًا حاجز صخري قصير بينما لا يحده شيء من داخل جهة الفناء. وأما الفناء فكان أرض صخرية واسعة تحيط بها جدران البناء وقد حفر فيها فجوات شتى، أغلقت بقضبان حديدية متعامدة دون أقفال، لا يصل إليها الضوء فلا يكشف عن أسرارها المخبأة ما لم تَبُحْ بها.

نظرت إلى مروان الذي أخذ يسير عن يسارها إلى يمين الحاجز متأملًا الضباب من حوله ثم أخذت تلاحقه قائلة في خوف: ما هذا المكان يا مروان؟ وما أتى بنا إليه؟

ليجيبها مطالعًا الأرجاء: هذا المكان بناه الخليفة الذابح قبل ست سنوات من الحريق العظيم وتولي أجدادي الرماديون حكم البلاد، يقولون إنه كان رجلًا صالحًا عابدًا يحكم بالعدل والحق، وكان الناس يلقبونه بالخليفة الذاكر، حتى اكتشف ذات مرة خيانة إحدى أزواجه مع عبد كان له. كانت أقربهم إلى قلبه.

دبَّ الرعب في بدور ما إن سمعته حتى ارتعدت واقفة في مكانها.

– بنى هذا المكان بحجة أن يكون قاعدة للجنود لمراقبة الغابات الغربية وحراسة الأراضي الزراعية من اللصوص والنهابين بعدما اكتشف من أمر زوجه، قالوا إنه ضاجعها حتى ماتت، والعبد كأنه اختفى!

اختنق حلقها باسمه مرددة في خوف: مروان!

– ثم كأنما قد جن جنونه، وبدأ في قتل رعيته يومًا بعد يوم، يختفي الناس واحدًا تلو الآخر، ثم يخرج هو على الناس قائلًا فيهم إنه من يذبحهم ويدفن جثمانهم في جوف الصحراء، وكل من تُسول له نفسه سوءًا سوف يلقى ذات المصير، لذلك لقب بالخليفة الذابح، حتى كان الحريق العظيم وبيعة الأعيان لأسلم واحتراق القصر بالذابح ومن معه، وبعد سنوات، اكتشفت الوقائع الأصلية والحقيقة المروعة بعد إفشاء سر ذلك المكان، كان الذبح صورة محسنة للطريقة التي كان يقتلهم بها بالفعل، كان ذلك المكان هو المصير الحقيقي لزوجة الذابح وأولى ضحاياه، ثم العبد ومن تتابع من بعدهما من العبيد والفقراء والمشردين والخونة، وأكثرهن العاهرات!

قالت صارخة في جنون: كفى! هذا يكفي! مروان اذهب بي من هنا لا أريد رؤية هذا المكان أو البقاء فيه!

التفت إليها على حين غرة ممسكًا بيدها ومعصمها. حدق إلى وجهها للمرة الأولى في ثبات بينما انهارت به حتى أخذت في البكاء من فرط الوجس وقد تعاظمت مخاوفها. قبل أن يقول لها في هدوء: لم البكاء؟

سكت لبرهة ثم أردف: ما لطخ الوجه دمعًا إلا أظهره على حقيقته!

باكية راحت تسأله: لماذا أتيت بي إلى هنا؟

ليجيبها وقد اشتدت قبضته على معصمها: لماذا مهاجر؟

قالها ثم صفعها على وجهها صفعة أسقطتها على الأرض صارخة من هولها. أمسك برأسها مردفًا في غيظ : لقد سمعت حديثك ومهاجر ليلة البارحة، سمعتكما بأذني تخططان للرحيل معًا!

استطرد في غضب: بينما كنت أخطط للزواج منك كنت تخططين لتركي والهرب، وأنا من دفع عنك الذل وجلب لك العزة، جئت بك من المنفى وكنت لأجعلك على رؤوس النساء لكنك لست إلا أذل الناس، وأدناهم، وشرهم منزلة!

ثم صفعها على وجهها صفعة ثانية صائحًا: لماذا مهاجر؟!

ثارت عليه ثائرتها وقالت في غضب جم صارخة: كف يديك اللعينتين عني يا قاتل أبيك!

ضربها بقدمه في ثديها على فوره ضربة قوية حتى أشاحت بوجهها بعيدًا تختنق على إثرها يخرج منها صوت أنفاس ثقيلة متقطعة بينما أخذت في الزحف بعيدًا نحو الحاجز تتمتم كأنها تحتضر.

بينما تسمر مروان واقفًا في مكانه دون حراك تشتعل عيناه بالغضب. كانت قد استقرت عند الحاجز حين قطب حاجبيه والتفت متجهًا إليها. أمسك بثيابها ورفعها عن الأرض إليه في عنف وقال: منذ متى تتقاربان؟ منذ متى؟ وكيف وأنت في أرض بعيدة؟

أرادت الحديث وودت لو أنها تخبره، أنها ومهاجر عشيقان يبتاع منها الهوى قبل حتى أن يعرفها مروان أو يراها، ولهذا نفاها الرشيد حين علم بنزاعهما عليها بعد أن جاءه مروان يسأله الزواج منها، وعلم مهاجر بذلك فأخبره بحقيقة تبادلهما الحب قبل رؤية مروان لها فأمر بنفيها بعيدًا، ولكيلا يتنازع الأخوان أخبر مروان أنه فعل ذلك لحمايته من الزواج بعاهرة بينما هو – وإن كان يرفض هذا حتمًا – يحميه وأخاه مما هو أكبر من ذلك، كانت لتخبره بكل هذا لكن الكلمات اختنقت في حلقها تأبى الخروج بضيق صدرها. وهنا خرت قواها وسقطت أرضًا على قدميه تتوسله العفو باكية تريد ولو أن تقبل قدميه في سبيل ذلك.

وخرجت كلمة واحدة مطموسة متقطعة: أرجوك.

راحت تجهش ببكاء حاد تتخلله صرخات مستغيثة. حتى رقَّ لها قلب مروان!

رفعها عن الأرض برفق، وعانقها عناقًا طويلًا، وبينما لا تزال تسترسل في البكاء أخذت تهمس في أذنيه: أحبك..

وترددها مرارًا على أذنيه تنجيها، أغمضت عينيها حتى لطخت بمدامعها منكبه وقد بدا العالم أمامها صغيرًا بالغ الصغر كأنه لا يتعدى منكب مروان.

ارتجفت أقدامها حتى خف حملها، ولوهلة من الزمن اقتحم قلبها شعور مقبض، وغزت جسدها برودة شديدة فتحت عينيها من جديد لتجد الحاجز الذي كانت تستند إليه يقبع خلف مروان ببضعة أذرع!

توقف بكاؤها فجأة ورفعت عن منكبه رأسها لتجد مروان وقد اقترب بها من الفناء ووقف بها على حافته، وقطع صدمتها في أوجها همس مروان لها: في تلك الأقفاص ميتة تستحقها عاهرة! ميتة تستحقينها! هل أخبرتك ماذا أطلق الناس على هذا المكان حين علموا بحقيقته؟

نظر في عينيها الذاعرتين ووجهها المرتعد وأردف:

- الجحيم!

قالها ثم دفع جسدها بيديه وأزاح قدمها عن الحافة بقدمه دفعة وجدت بها بدور نفسها تقف في الهواء!

وبعينين جاحظتين مصدومتين متخمتين بالرعب، وفم متجمد، وقلب صارخ فارقت السطح في غضون لحظات لتهوي في الهواء بذراعين متراجعين كأجنحة الطير وأقدام رخوة كأستار أطلق لها العنان حتى طارت في الهواء.

كل هوان الدنيا غمر قلبها فجأة تحدق بالرعب إلى وجه مروان الغاضب. وبصرخة قوية ارتطم جسدها بأرض الساحة حتى خالط صوت صرخاتها أصوات عظامها تتهشم وأحشائها تعتصر بينها قبل أن يخرج من خلف قضبان التجاويف المحيطة لجحور كالكهوف أصوات أنين مخيف، واشتهاء مرعب!

رمقها مروان عاليًا من مكانه بوجه متجمد وجسد متسمر في مكانه تناطح رداءه أنسمة الرياح، يمر بعينيه طيف لشبح الندم ظهر في عينيه لبرهة ثم عاد واختفى من جديد.

الحب غير الناضج ثمنه باهظ دومًا، سلعة بخيسة القيمة نفيسة الثمن، وهذا ما يطلقون عليه اسم الفتنة.

على الأرجح أنها لم تمت، إذ بقيت عيناها مفتوحتان وإن تلطخ كامل وجهها بالدماء وتهشمت كل عظامها، لكنها وإن كانت مفتوحة إلا أنها لم تكن تبرح موضعًا واحدًا لا تقوى على مفارقته مع أنفاسها الأخيرة، موضع انصب على أحد تلك القضبان التي أخذت ترتفع ببطء. لا يصل إلى مسمعها شيء، فقد امتلأ مسمعها بالدماء حتى غُمر بها، ليفوتها ذلك الصوت الأنيني الذي أخذ يرتفع شيئًا فشيئًا لكنها ترمقه بعينيها اللتين وإن كانتا غير قادرتين على الحركة إلا أنهما لم تفقدا ذلك الذعر الكامن فيها، بل إنه تعاظم حتى امتلأت برعب لا كفء له ولا مثيل ترمق به ذلك الشيء الخارج من جوف الظلام في الجحور.

تسارعت أنفاس مروان في العَليِّة وقد ذهب جموده أدراج الرياح بينما يتدارك مسامعه أصوات النباح قبل لحظات يسيرة من انطلاق سرب من الكلاب البرية المتوحشة شديدة النحالة تعدو نحوها في نهم.

عاث الهياج بمروان فسادًا تتقطع أنفاسه كجثة بدور التي رمقها تتكالب عليها الأنياب تقتطع من لحمها وتخلعه من حطام عظامها، احتبست الدماء في رأسه حد أصابته بالجنون، جنون دفعه إلى أن

يصيح غضبًا في الهواء صيحة واحدة بلغت أسماع القاصي والداني، عبَّأت الفضاء من حوله حتى زاحمت الضباب.

صيحة هجرت لها الطيور في الغابة الغربية أعشاشها!

قبل أن تنقطع صرخته فجأة في ذروتها مستديرًا إلى الجهة المقابلة معرضًا عن الساحة!

مال رأسه جهة اليمين واقفًا في صدمة بلا حراك. ثم كأنما فقد كامل إدراكه بما حوله تهيأ له الضباب كدوامة عظمى هوى فيها حتى لم تبرح عيناه موضعها. ولمرة أخرى التمعت بها عيناه الشاردتان بالإشارات الخطيرة!

***

جلس متجهمًا في العربة ينتظر شيئًا ما عليه العودة به، يفكر في الخطوة التالية، اللحاق بمهاجر في اللحظة التي ينتظر فيها مُوَاتَاةُ بدور له ولحاقها به، أي بعد بضع ساعات خلف مدرسة المازني لدى الخزائن الغربية، في هذا.. عليه بالإسراع في العودة إلى العاصمة.

انفتح باب العربة ليظهر قائدها وقد حمل بين يديه صندوقًا خشبيًا متوسط الحجم أخذه مروان ووضعه إلى جواره، رمقه للحظات أسفل ضوء الشمس الباهت المتسلل من النافذة، ثم فتحه..

اشمأز بعض الشيء للوهلة الأولى لكنه واصل التحديق فيه، كان آخر ما تبقى من بدور، رأس الجسد الذي تهشم ثم التهم بأكمله بوحشية لا مثيل لها، فلحسن الحظ أن الكلاب ما كانت لتشتهي الوجه بلحمه القليل، فقط بعض الماء كان كافيًا لإعادة الملامح إليه من جديد، وصاحب تلك الهدية الرائعة لن يحتار كثيرًا على كل حال إذ يعرف صاحبة تلك الرأس حق المعرفة.

أغلق الصندوق من جديد ثم دون كلمة أقلعت العربة في طريقها إلى العودة بأقصى ما أوتيت من سرعة!

***

بينما بعيدًا عن العاصمة وما يدور فيها، وفي الأطراف النائية لها، عانق الضباب قمم الخزائن السبعة التي تخزن فيها المنجاة تحت حراسة عدد ليس بالقليل من الجنود الذين خولوا بحراستها من النهب أو السرقة أو أي مضار قد تلحق بها.

والذين تحولوا فجأة تحت إمرة أمين الخزائن يعقوب السقري إلى سارقين، يحملون على عجل أَشْوِلَة من القمح والغلال من داخل الخزائن إلى عربات قريبة تحمل عشرات من الأشولة نهبها يعقوب، لاختلاسها وبيعها والتربح منها.

وقف في قلق وارتعاد يراقب عملية تحميل الأشولة إلى العربات المرتصة بعضها خلف بعض وقد وعد الجميع من حوله حصة من ربح البيع، يخفي فعلهم الدنيء السور الضخم المحيط بالخزائن وساحتها.

أو أن هذا ما ظنوه. إذ غفل وغفل جنود النهب عن هذين الشابين المذهولين اللذين يطالعونهما من ثقب أحدثاه عمدًا في السور وقد استبدت بهما الشكوك أيامًا، حدقا في غضب جم ثم سرعان ما انطلقا يعدوان بأقصى ما واتتهما أقدامهما يمتطيان الريح بما يحملان من خبر.

***

كان الجميع منشغلًا بأحاديث التجارة الرتيبة، جدال هنا وسباب هناك، يسمع به القاصي والداني، لكن أحدًا ما كان ليلتفت إلى شمس الدين يصعد إلى صخرة عظيمة في منتصف السوق مطبقًا ملامحه، بدا وقد اعتزم أمرًا قد حسمه قبل قليل، بين أضلعه كتاب مألوف!

اعتاد أن يسمع اسمه يتردد من حوله أينما حل بمكان ينتظر الجميع حديثه بإنصات، لكن في الآونة الأخيرة اندثرت تلك العادة لدى الناس وقد علموا ما يريد الحديث بشأنه، وهم ليسوا على أمره بوفاق. لكن هذه المرة لم يكن الشأن شأن كل مرة.

نادى في الناس بأقصى ما أوتي من قوة قائلًا: يا أهل الأرض وأبنائها!

التفت الجميع بادئًا إليه ثم إلى الكتاب بين أضلعه حتى حملهم هذا على الاقبال تساؤلًا بأي جديد قد أتى؟

قال مجاهد يُسمِع بقوله أقاصي البلاد إن أمكنه: أرأيتم إن كنت مخبركم بأمر من أمور دينكم أكنتم مُصدقي؟

تعالت من حوله أصوات الإيجاب قبل أن يبرز صوت أحدهم: ما عهدناك فينا إلا أمينًا صادقًا!

ليجيب: هذا والله ما لا أراه منكم، وقد مكثت فيكم عمرًا تعلمون مالي عليكم من عهد ومن عظيم المحبة وجليلها، لا أبخسكم حقًّا ولا أكتمكم سرًّا في علمه نفع لكم أو جهله ضر عليكم، فما بالكم أنكرتم عليَّ جميعكم قولي في وقت الشدة وعصيتموه من بعد وأنتم تعلمون، حتى عهدت فيكم غلظة وإعراضًا ما عهدتها من قبل منكم وما ألفتها.

ليقول أحدهم خرج من بين الناس: هذا ما عهدناك في شؤون ديننا، فما شأنك وأمور دنيانا يا شمس الدين؟

أطبق اليمامي ملامحه هولًا لما يسمع وقال: وما الدين إلا لاستقامة أمور الدنيا، فيستقيم بها حال الآخرة، إذ كانت الأولى بالثانية، والثانية بالأولى لا يفرقنَّ بينهما إلا خبيث أو مضل! وقد أخبرتكم يا قوم..

نظر إلى الجمع من حوله ثم أردف: أخبرتكم بشر عظيم متربص أنتم على شفا حفرة منه، في رد المنجاة.. هول له، وهوان لكم!

قبل أن يعاجله رجل آخر بدت عليه المسكنة: يا شمس الدين لقد مسنا وأهلنا الضر، إن بطون أبنائنا جوعى وأجسادهم عراة، وإنا لفي شقاء وشقاق، الفتيُّ فينا عليل، والكهل فينا سقيم. فهلا وافقتنا ورَحِمت؟

قالها لتشتعل من حوله أصوات التأييد والموالاة تتقافز من حوله في كل مكان في الوقت الذي تربصت فيه مجموعة من الناس يندسون بين الجمع في خفية، لم يجمعهم زي واحد قدر ما جمعتهم نية واحدة.

صاح اليمامي مناديًا: ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع، أفتريدون في دنياكم نعيم الجنان وهي الدار الدنيا وجحر البلايا؟! فقط لو أنكم سألتموه بعد جهد لأعطاكم! فاسألوه الرزق واسألوه النجاة قبله.

قاطعه الأول نفسه قائلًا: قلتها وأصبت! النجاة من الله، ولا دخل للغلال فيها فلا داعي من حفظها للأبد حتى تتعفن ولا نصيب منها مقدار حبة.

– ذلك فعل الله فأين فعلك؟ أين ما تستحق به النجاة؟

ثم تنهد قائلًا: أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، قبل أن يموت الرشيد عَمِدَ إلى كاتبه تقي الدين الخازندار أن يكتب ما بين يدي هذا!

رفع الكتاب عاليًا ثم أردف: كتاب أسماه سرٌّ عظيمٌ، فيه خلاص أمركم وحيرتكم، وحقيقة ما حدث وراء النهر قبل سنوات، خليفة اليوم الواحد مروان وجنده، ونبأ من الأرض البعيدة كان فيها مهلكتهم التي ما نجا منها إلا الرشيد وحده!

حدقت إليه وجوه الجميع ذاهلة ودبَّ فيهم الصياح يتبادلون الأنظار فيما بينهم قبل أن يصيح واحد من بينهم: أو فيه نبأ من خافير؟

اليمامي مجيبًا: فيه نبأ من خافير!

ثم أردف: فيه بعض من الحقيقة.. ما يمكن البوح به.

ثم صاح عاليًا: لكن في هذا البعض حجة على صدق النبوءة، ودليل لمن أراد الحق وضل سبيله، دليل يرشد، ويقي، ويعصم، ويهدي السبيل. فيه النور الذي هجر عيونكم فما برحت إلا غنم الرد، وتكذيب النبوءة.

حتى خرج أحدهم وقال في مثل صياحه ما ألجم الألسنة جمعاء:

– على رسلك يا شمس الدين فقد كفى!

قالها ليسكت الجميع إنصاتًا له بينما يردف: لقد خرج إلينا عراف!

شمس الدين وقد حلت به الصدمة كأنها الصاعقة: عراف؟

– أجل! لا يجرؤ أحد على قول هذا، ولكن.. قد فاض الكيل وبلغ السيل الزُّبَى. لقد خرج إلينا عراف أنكر علينا النبوءة وما نحن فيه من أمرها.

أنصت له اليمامي في أعين محدقة ولسان متجمد بينما يردف: لقد خرج إلينا من كهف العرافين، وقال إن هذه النبوءة ما هي إلا محض خرافة، أما ترون أن الرشيد قد مات ولم نر ما أخبر به العرافون إلا كذبًا وإضلالًا.

أقبل عليه شمس الدين مرتعدًا فوق صخرته: محال! هذا محال! لقد مضى زمن العرافين وانتهى عهدهم!

ثم مناديًا: أيها الناس، هذا ليس إلا كذابًا مُضلًا، لا يُكذب العرافون بعضهم بعضًا وإن اختلفوا!

ليقاطعه الرجل صائحًا: بل إنها الحقيقة! إنه هناك يسكن خيمة على تل مرتفع في قلب الصحراء، جهة الشرق الشمالي، وله أتباع كثر يشهدون أنه ما قال أمرًا إلا صَدَق فيه! بينما أولئك العرافون الذين تحكي عنهم، ما سمعنا بصدقهم إلا في حكايا تتناقلها الناس وتحكيها.

صاح به اليمامي في موجة من الغضب العارم: ما صدق! والله ما صدق، لكنه قال ما فيه مرادكم وعليه أهواؤكم، وإن تبعتموه خسئتم في كل أرض ولعنتم في كل سماء، إن خافير لَحَقٌّ وإن النبوءة لواقعة وستعلمون بعد حين من الكذاب الأشر!

وفي مثل غضبه خرج أحد أولئك البعض المتربصين قائلًا في الناس: لا تصدقوه! ذلك الرويبض الخبيث، إن كان قد كتب الرشيد ما يقول، فلم لم يخرج لنا ويخبرنا بنفسه؟ وأنى لليمامي بهذا الكتاب وقد مات الرشيد واختفى كاتبه؟!

هاجت هائجة عارمة دبت تموج في الأرجاء وقد أخذ الناس يتجاذبون فيما بينهم، يصيح هذا ويسب هذا، وفي خضم هذا النزاع راودت اليمامي نفسه تحدثه بالنظر من حوله، حدق إلى ثنايا الجمع من حوله يشعر بسوء متربص وشر يقترب اختفى بينهم واندثر.

حتى أخذت تلك المجموعة المندسة تجمعهم حركة واحدة لاحظها اليمامي قبل لحظات من انطلاق موجة مباغتة من السباب تقصده، تنعته عيانًا بما ليس فيه ثم طوفان من الحجارة ينهال عليه من كل حوب وصوب يصيبه في بدنه من رأسه إلى أخمص قدميه، سباب باللعن ورمي بالحجارة والقاذورات ما تلطخ بها وجهه وارتبكت بها خطاه.

جن جنون من وقف من الناس يتمادى بعضهم بالرمي والرجم بالحجارة ويندد البعض الآخر بما يحدث من جنون، حتى توافد المزيد من الناس وقد هجروا كل موضع من السوق، وتضاعفت الأعداد ونشب عراك ضخم كأنما نيران قد اشتعلت فيهم، تشابكت فيه الفرق جمعاء، ليضحي الأمر في غضون ثوان كساحة ضخمة يعجها الهرج!

***

في الوقت الذي بلغت فيه عربة مروان العاصمة تدور عجلاتها على أرض السوق من طريق مجاور للطريق حيث تدور عجلات العراك، حتى كان قرب بوابة القلعة ذات الجنود على دفتيها حين توقف السائق فجأة وقد هلع إليه البعض من الطريق على الجانب يعترضون سير العربة.

استل السائق سيفه فورًا ما إن أوقف العربة في اللحظة التي هرول فيها بعض الجنود عن بوابة القلعة تأهبًا للدفاع عنها.

وصلوا إلى العربة في لمح البصر، وعلى الفور كانوا بحذاء معترضي طريق العربة مشهرين أسيافهم.

صاح أحدهم والأنفاس تلاحقه: على رسلكم! إنما جئنا نستغيث بالأمير!

بلغ الاضطراب المباغت مسامع مروان داخل العربة ليشعل في نفسه بعضًا من لهيب خوف كان قد خمد.

ليعاجل صديقه: أدركوا شمس الدين فإن الناس قد جُنوا، يرجمونه بالحجارة في قلب السوق ثم يتكالبون عليه قتالًا! والله لئن لم يغيثنَّه أحدكم لهلك! هلك!

بلغ حديثهم مسامع مروان في العربة ليدب فيه الارتباك. فتح الباب ثم ترجل عنها على عجل. رمق الجنود والرجال بأعين حادة ثم بآذان مصغية أنصت إلى صوت العراك العارم قادم من السوق من جهة الطريق المجاور، التفت إلى جهة الصوت محدقًا ثم سكن للحظات.

عاد بالنظر إلى الرجال المستغيثين بين يديه ثم قال إلى الجنود: خذهم إلى داخل القلعة، وسوف أنظر في هذا الأمر. ثم عاد يَهُمُّ صاعدًا إلى العربة، ليردد أحدهم في ارتباك: ولكن يا مولاي!

قاطعه الجندي إلى جواره قبل لحظات من انطلاق عربة مروان إلى داخل القلعة ومن خلفها الرجال يقودهم الجنود، بينما يقود الجنون أهل السوق، لا أحد يسمع لمنادٍ أو ينتبه لواعظ أو يلتفت إلى فتى باكٍ أو كهل جريح، الجميع في خضم العراك يحتد ويكفهر وجهه. لم يحتمل اليمامي الوقوف على مرتفعة الحجري لتزلَّ قدماه هاويًا على الأرض مسقطًا الكتاب من بين يديه إلى بين أرجل الجمع المحتشد.

فغر فاه من هوله وصائحًا لولا أن تكالب عليه من خلفه نفر من الفرق الباغية!

***

دلفت العربة إلى ساحة القصر وقد ترك الجنود الرجال المستغيثين خارجًا بين رحاب القلعة يتبادلون الأنظار في ريبة مما فعل مروان، وقد بدت أنفسهم تحدثهم بالسوء.

انفتح باب العربة وخرج منها مروان، ليهرول أحد جنود الساحة إلى العربة مخرجًا منها الصندوق الخشبي الصغير، أنصت لأمر مروان بشأنه وقد همس إليه بأذنه قبل أن يومئ إيجابًا ثم ينصرف. بينما تنهد مروان بعمق ما إن أدرك مراقبة تلك الأعين له من خلف النافذة. رفع بصره إلى حيث هما، لتتلاقى أعينه بأعين مهاجر يطالعه من نافذة غرفته في نظرات جامدة مرتبكة قابلها مروان بنظرات حادة هادئة كفوهة بركان يثور قاعه ويفور.

ولمرة أخرى كانت هي نفسها في عينيه.. الإشارات الخطيرة.

ابتعد مهاجر عن النافذة في شرود ثم توجه إلى مقعد قريب يفكر وقد أثارت نظرات مروان جزعه، والصندوق حيرته، يتساءل فيم يفكر مروان، وماذا سيفعل هو؟ وأين سليم، واليوم هو اليوم الأخير؟ ما الذي ستحمله الساعات المقبلة وقد أشرفت الشمس على زوالها؟

توقف عن التفكير فجأة، وعزم الرحيل على الفور، مَرَّ على مخيلته سريعًا وجه شاهد كيف بدا سعيدًا حين أخبره هذا الصباح بالرحيل عن القصر، وأنه تحمس حين أخبر الخدم بحزم أغراضه في التو. نظر حوله ثم عكف من فوره على صندوق حاجياته وأخذ يحزم الأمتعة على عجل، يأمل لو أن بدور قد فرغت من متاعها وعلى استعداد للحاق به.

***

بينما تسارعت خطى مروان بين أروقة القصر يتجه إلى قاعة المجلس الكبرى يسبقها لسانه مخاطبًا حراء وقادة الجند وكبير الخدم من خلفه قائلًا لهم: مُرهم فليعدِّوا لي الخيل، فإني مغادر به في الحال، وحين أعود أود أن يكون العشاء جاهزًا، أريد الليلة عشاءً من أفضل ما يُعده الطهاة الماهرون منهم، ولا

أريد حين عودتي أحد من الجنود أو الخدم داخل القصر، أي أحد، مُر الجميع فلينصرفوا حتى آذن لهم بالعودة، أريد جميع الجنود هنا على مداخل القصر والقلعة ومنافذهما، لا أريد جنديًا واحدًا في موضع غير القلعة، لا في القصر ولا في أي مكان، حتى وإن اشتعلت المدينة اشتعالًا. لا أريد أن يدخل أحد أو يخرج بعد عودتي إلا ضيفنا على العشاء حين يصل ويحين موعده، أي أحد مهما كان.

ليجيبه الحاشية من خلفه: أمرك يا مولاي.

ثم سائلًا قال: أين يعقوب السقري؟ لم أعد أراه منذ مدة.

ليجيبوه: منذ تولى أمانة الخزائن وهو يقضي أغلب الوقت لديها يا مولاي يباشر عمله، أعانه الله وأعانكم.

كان يعقوب هو خيار مروان لتولي أمر رد الغلال إلى أصحابها، والذي عينه عليها بناءً على كونه رئيس التجارة وأثرى من عاش في العاصمة، وحجته في ذلك أن من أمكنه حفظ كل تلك الأموال في أحلك ظروف الأرض هو خير من يحفظ الغلال ويجيد توزيعها كل إلى حقه.

ولرجاحته اعتقد أن كون اسمه يعقوب يعزز من نظريته في أمره، إذ هو اسم كريم، لكريم أنجب خير من ائتمن على خزائن الأرض، النبي يوسف بن يعقوب. ويا للسذاجة ما ظن.

أومأ في عجالة وقد تسارعت أنفاسه من فرط الإسراع قبل أن يتوقف فجأة دون خطوات من الباب.

التفت إليهم وقال في ارتباك: ألم تصل أي أخبار عن سليم؟

تقدم حراء وأجاب قائلًا: ليس بعد يا سيدي، كما أن مراقبي الأبراج لا يمكنهم رؤية أي شيء يبعد ولو بالقليل عن الأبواب، الضباب كثيف منذ الصباح وهو يتزايد ساعة بعد ساعة، ولو أن جيشًا بأكمله خرج علينا ما رأيناه إلا وصفوفه على أبواب العاصمة! لكن الجنود على تربص به في كل مكان يا مولاي ولئن رآه أحد ليفعلنَّ به ما أمرت.

أثارت كلماته بعض المخاوف الجديدة لدى مروان، وأضرمت بقلبه لهيب القلق حتى لم ينبس ببنت شفة، فقط ولى معرضًا بمخاوفه نحو باب القاعة. ثم فتحه ليقع بصره على آخر ما كان ليدور في باله في خضم تلك الساعات.

***

كان ومرافقه عقبة على مقربة من أبواب العاصمة في هذه الساعة، الضباب تزايد على ذي قبل، والرياح قد اشتدت حتى أخذت تطيِّر بأثوابهما في كل حوب ساعة. وحين تباطأت سرعة جواده أخذ يخال اقتراب نفر من الناس عليه يسيرون باتجاهه على أقدامهم، كما أن شيئًا من الضجيج والجلبة يحومان حول آذانه، احتاج إلى المزيد من الوقت ليميز بين الضباب عددهم وهيئتهم، إنهم رجلان في حلة أنيقة يبدو عليهما الثراء، ثم ميز أنهم لا يسيرون نحوه.. بل يركضون.

أوقف جواده دون خطوة واحدة أخرى ما إن مر الرجلان إلى جواره ليسألهما: يا هذا! من أنتما؟

ليصيح أحدهم وقد هلع إليه: الأمير سليم!

ثم مردفًا: نحن يا مولاي من تجار سوق المدينة، فررنا من القتال فيه، لقد نشب عراك بين الناس في قلب السوق يتقاتلون فيما بينهم، أدركهم يا مولاي! فإنهم إن لم يردعهم رادع عما ينوون، أخشى عليه من الهلاك!

صاح سليم فزعًا: ويحك هلاك من؟! وعلام ينوون؟

ليجيبه الرجل على عجل من أمره: شمس الدين يا مولاي.. ينوون قتله!

قالها ثم ولَّى تاركًا سليمًا وعقبةَ يتبادلان الصدمة للحظات قبل أن يهلعا ذعرًا نحو ما تبقى لهما من القليل عن أرض العاصمة. ما الذي أصاب العاصمة أيام غيابه؟

***

عاصمة تعالت في سوقها صيحات الرجال يخالطها نواح النسوة وصراخهن يبلغ كل سهل ووادٍ حين تَكَتَّلَ المعتدون على شمس الدين وقد ظلمتهم أنفسهم يبرحونه ضربًا، بينما تكتل على المعتدين من حولهم الفئة الأخرى تذيقهم البأس، وتجاهد نزعه عنهم أو نزعهم عنه بينما أحاط بأولاء وأولاء الجمع من كل مكان.

وعلى هذا الحال، أخذ شبح الاختناق يعصف بصدور الجميع على حد سواء، تختلط النية الحسنة بالخبيثة اختلاط الصيحات بالصرخات، تهترأ أثواب هنا وتتلطخ أثواب هناك ومن ترفع عن خوض ذلك وقف بعيدًا محدقًا وقد أخرسته الصدمة وأثلجت قدميه.

***

انعطف مهاجر عن رواقه وقد أعد نفسه للرحيل مسرعًا الخطى، يلتهم ممرات القصر ممرًا تلو الآخر وصولًا إلى غرفة شاهد، وما إن وصل حتى انعقد حاجباه في قلق يرمق الباب وقد خلا عن حارسيه!

دلف إلى الغرفة مسرعًا في فزع، ولم تكن إلا لحظات حتى خرج مجددًا في فزع أكبر، يهلع بين الممرات يتلفت يمينًا ويسارًا تلتهمه الممرات في ذعره كأنما يفر من قسورة. تاركًا باب الغرفة مفتوحًا وقد خلت عن شاهد كما خلا الباب عن حارسيه وخلا كل شيء عن عهده الأول!

***

بلغ سليم وعقبة أبواب العاصمة، ليجدا الطريق من حولهما فارغًا، كأن الساعة قد قامت فيه، أو أنهما بلغا مدينة خاوية على عروشها لولا أصوات الجلبة في أسماع الطريق.

تبادلا الأنظار المتسائلة عمَّا حل بالعاصمة ثم هَمَّا باللحاق بأصوات الضجيج يَتَتَبَّعَانِها وصولًا إلى السوق؛ إغاثة لشمس الدين لولا أن خرج عليهما فجأة عدد من الجنود ظهروا من العدم كأنما قد حملهم الضباب أو أنهم أشباح نُزعت عنهم عباءة الخِفْيَة. ودون كلمة واحدة تراجعت حوافر الجياد تتجنب السيوف المشهرة في وجوهها كنوع خاص من الترحيب شديد الخصوصية.

***

راح مهاجر يركض كالمجنون بين الممرات يسأل كل من قادته إليه خطاه وصادفه في طريقه عن شاهد، لكن لا أحد امتلك إجابة أو شبهها أو ما يهدي إليها، كأنه اختفى كالعهد!

إلى أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ ولم الآن بالتحديد حيث لا وقت لأي شيء؟

لكنها النوائب دائمًا، تقع وقت لا يجب أن تقع. آلاف من الأفكار تماطرت في عقله في غضون غضة طرف كخلية نحل تدور فيها أصحابها وتجول يركض بها على رأسه بين الممرات.

***

تسمر مروان في مكانه وانعدمت حركته بسقوط ذراعيه عن دفتي الباب. التفت ببطء إلى حراء ومن معه والذين بدت عليهم علامات الدهشة والتساؤل كذلك، كأنما يسألهما عن هذا أو أنه يسأل نفسه عن سره الآن بالتحديد. أعاد النظر إلى الداخل حيث يقف شاهد في ملابس توحي بالرحيل يميل برأسٍ مرتجف تتساقط عنه الدمعات. يقف في حال يُرثى لها متمركزًا قلبَ القاعة، حال أخذ لها مروان خطوة مرتبكة إلى الأمام وأغلق من خلفه الباب في هدوء.

***

تقدم عقبة على حصانه وقد أشهر سيفه وراح يصيح غضبًا في الجنود: ويحكم! على من ترفعون أسيافكم يا أَرْوَاث الغنم؟!

أشار إليه سليم من أعلى حصانه قائلًا: على رسلك يا عقبة، دعهم فإنها رأس مروان.

قال أحد الجنود وقد بدا قائدهم: تقدما طوعًا تحقنان دماءكما، وإلا عصيتما وأرقنا!

احتبست أنفاس سليم في حنق، ثم لم يكن منه إلا أن تحرك وعقبة في استسلام على مضض محاطان بالجنود يقودونهما إلى القلعة حيث سيزج بهما مروان في السجن على أغلب الظن، أو يقتلهما إن كان قد فقد ما بقي من عقله ومروءته.

وعلى أصوات العراك في السوق تحركت الحوافر جمعاء، ستة من الجنود يمسك كل منهم بسيفه يحيطون بسليم وعقبة اثنان على كل جانب وقد أغمدا سيفاهما دون أن يتركا المقابض..

يد تمسك باللجام وأخرى تشتد على المقبض قبل أن يشهراهما بغتة ويباغتان بإعلان المقاومة والقتال دبرًا إلى دبر.

***

قاطب الحاجبين تقدم مروان في القاعة حتى بات على مقربة من شاهد تتوسطهما نافذة تشهد اللحظات الأولى من زوال الشمس وقد اصطبغت أضواؤها المتداخلة مع الضباب بلون أحمر على شحوبه مُقْبِضٌ وعلى شدته مخيف.

ليظهرا كلاهما وما حولهما كأطياف سوداء من حبر لطخ صحيفة حمراء قاتمة كلوحة باهتة أصابها الجمود. لم يتحرك فيها إلا لسان شاهد يقول مرتجفًا بقوله صوته: إنه لم يمت!

قالها لتظهر على وجه مروان علامات التساؤل في ثوب القلق.

***

بينما على وجس خرج مهاجر من القصر ومعه نفر من الجند وانطلقا بين أرجاء القلعة بحثًا عن شاهد في كل مكان في رحلة بحث مضنية لا يدري إلى متى قد تستمر، بينما ترك للبحث عنه داخل القصر من ترك. شعر ولأول مرة حين خرج وأخذ يدور حول نفسه بمدى اتساع القلعة الرهيب، وتعدد الاحتمالات المخيفة فيها، الهينة منها والمفزعة.

لم يكن يفكر إلا في إيجاده فورًا والرحيل بأقصى ما تواتيه أقدار شاهد وبدور وأقداره!

ليلحظ خوفه الشابان أصحاب نبأ اليمامي يغزوهما عظيم البأس.

***

لم يعد أحد ليرى ما أمامه أو ما هو خلفه أو دونه، لا أحد يرى موضع يده، إذ تكاتل الجمع المختنق على نقطة بعينها كقطعة حجر تغمرها المياه من كل جانب. الجميع يغمره الغبار وتغشاه الأتربة عن بكرة آبائهم. حتى كان أوسطهم وأكثرهم قربًا حين شعر ببرودة تقتحم يده والتي مدها للصد عن اليمامي الذي غمره الناس متدافعين عليه حتى اختفى.

أخرج يده لتصرخ بما رآه بعينيه!

أصابته نوبة من الجنون أخذ يصيح بها في الناس ويدفعهم عنه بكل ما أوتي من قوة..

قبل أن تظهر على أثواب من دفعهم من حوله دماء من أثر يده..

***

- من هذا الذي لم يمت؟

تقدم مروان نحو شاهد متسائلًا، ليجيبه شاهد على الفور: أبونا الرشيد لم يمت يا مروان!

تنهد مروان في ضجر وقد سَئِم من هذا الهراء الذي يعج به حديث شاهد. قبل أن يعاجله شاهد قائلًا: إنه لا ينفك يأتيني في المنام، يخبرني عما حدث، وما سيحدث، بثيابه ذاتها التي مات بها تلك الليلة، على وجهه ندبة عظيمة.

لتستوقف كلمته الأخيرة مروان مرددًا: ندبة؟

- صدقني أقسمت عليك بالله، إنه لم يمت!

قالها ثم ألجم الخوف لسانه للحظات وأردف في ذعر: علينا الرحيل من هنا الآن، جميعًا أنا ومهاجر سوف نرحل بعد لحظات، ارحل أنت أيضًا يا مروان، الموت قادم إلى الجميع هنا ولن ينفع أحد فراره بعد ذلك، لقد أشرفت نهاية كل شيء!

وبينما لطخ الشحوب وجه مروان وقد سكنه خوف عظيم يسكنه للمرة الأولى تقدم مقتربًا من شاهد أكثر يقول: على رسلك يا أخي فاهدأ!

ثم راح يربط على كتفيه المرتجفتين شاردًا في قلق، بينما يحدق إليه شاهد بعينين مكتظتين بالخوف وقال متأنيًا كما يلقي أحدهم بآخر ما لديه: لقد كان يعلم بأمر السُّم..

أفاق مروان عن شروده وحدق إلى شاهد.

قال متخوفًا: ماذا قلت؟

ليواتيه شاهد بالإجابة التي خشيها قائلًا:

- لقد كان أنا، أنا من أخبرت الرشيد!

لتقع كلماته على مروان وقع الصاعقة تهتز لها الأرجاء من حوله.

شاهد وقد أخذته نوبة من البكاء: في تلك الليلة، بعد افتراقنا، كنت خائفًا، أرتعد من الخوف، لم أذق النوم، ذهبت إليه، وأيقظته من نومه، ثم أخبرته بكل شيء!

كان يلقي بكلماته في أذن مروان الذي استقام واقفًا في هول عظيم من الصدمة.

قال: ويحك ما فعلت؟ كنت قد وافقتنا!

لينفجر فيه شاهد قائلًا:

- ما وافقت، لكني خشيت إن أعرضت أن أكون قد فرقت بيني وبينكم، وأعلم من الأمر ما تخشون أني أبوح به، فتكونون عليّ بأسًا وعدوًا!

أردته أن يردعكم على ما أقبلتم عليه، وما برحت غرفته ليلتها حتى أخذت عليه العهد أن يكون هينًا عليكم رحيمًا بكم!

ألجمت الصدمة لسان مروان حتى تسمر في مكانه واقفًا دون حراك بينما أخذ شاهد يقول مسرعًا في توتر كمن أصابه الصرع: لكنه لا يزال على قيد الحياة، علينا أن نخرجه من قبره! وليعلم بالأمر من يعلم، علينا إخراجه، وإن علم الجميع بما اقترفنا، ثم سنرحل بعيدًا ولن نعود أبدًا، أرجوك يا مروان، لقد قاربت الشمس على الزوال ولم يعد هناك الكثير من الوقت!

وهناك، لاح في عيني كليهما..

إنه الجنون، الجنون ورائحته، أخذت تفوح في كل مكان في القاعة وخارجها.

في السوق.. في الخزائن.. في القلعة..

في الطرقات.. وفي كل مكان!

أخذت البرودة تسري في أجساد الجميع، والذعر يفتك بشاهد فتكًا، حتى تلاحقت أنفاسه محدقًا إلى وجه مروان المتجهم. برودة العلامات، كل شيء قد طاح عرض الحائط، كل الخطط والاحتمالات تلاشت فجأة كأنها كانت سراب، ولم يبق إلا الاحتمالات المفزعة، والإشارات الخطيرة باتت واقعًا، والجميع بلغ نقطة تضارب الأحجية، نقطة اللاوصول اللاعودة!

- حراء!

صاح بها مروان فجأة في غضب جم!

***

تجهمت الوجوه وتنافرت فيها الأعين يصيح بينها الرجل ذو الدماء على يده. قبل أن تغزوه فجأة صدمة عارمة لم تلبث أن تسللت إلى الجميع من حوله يرمقون اليمامي وقد رقد على الأرض بثياب ممزقة غارقًا في دمائه!

انهار كل شيء في المكان حتى اختفت كل الأصوات دفعة واحدة. سقطت كل القلوب مواضعها وارتجت العقول من فرط الصدمة. صاح الرجل في غير تصديق: لقد مات!

ثم نظر إلى من هم حوله مرددًا: لقد مات!

وللحظة وقف الجميع بُكْمًا يدورون حول أنفسهم.

***

تأججت الدماء في عقل مروان تتقدم نحوها أقدام حراء مقبلة قبل أن يصل إليه ليجده واقفًا شارد النظر إلى شاهد دون حراك. سكت للحظات تأملها شاهد في ارتباك ثم لم يلبث أن تحدث قائلًا: نادِ جنودك!

دبَّ الذعر في شاهد، والصدمة في حراء من قبله ليقف مصدومًا عاجزًا عن الحركة للحظات قبل أن ينطلق إلى جنوده تاركًا شاهد يهوي في مكانه على أقدام مروان متوسلًا يقول: أخي، لا...!

ولم يكن ليتم كلمته حتى كان حراء قد عاد ومعه نفر من الجنود. أثار الجنود وجسه حتى صاح في هيستريا: لا، دعوني! سوف أرحل!

وفي رعب لا ينتهي تفجرت به الحمرة من وجهه ما إن أمسك به الجنود وأقاموه كأنها بعض الجنون المتدفق إلى رأسه يصيح مستغيثًا بمروان المتسمر في مكانه دون التفات تقوده الجنود حتى مع عظيم مقاومته!

قبل أن يرفع مروان يده ليسرع إليه حراء فيهمس له في أذنه ما فَجَّرَ الصدمة على وجه حراء. صدمة حدق إليها مرتعدًا في وجه مروان المتجهم بينما يخترق صوت مقاومة شاهد مسامعه. التفت متوجسًا إلى الجنود الذين أخذوا يقودون شاهد المستغيث قبل أن تتبعه أقدامه، يُحكِم الوجس قبضته على وجهه كما أحكم هو قبضته على السيف في غمده. لقد جن جنون مروان، لا شك.

***

اصطبغت الشمس في خواتيم الأفق باللون الأحمر الكامل تشهد الجميع على مقربة من الجثمان الغارق بالدماء على الأرض. البعض يفر في هدوء، والبعض يفر على عجل والكثيرون يختفون فجأة.

بينما بلغ أحدهم ذلك الجمع راكضًا يتصبب منه العرق. وقف في موضع بعيد ثم محاولًا مجاراة أنفاسه، أخذ يصيح عاليًا: أدركوا يعقوب، فإنه يسرق غلالكم عند الخزائن!

أدركوا منجاتكم يسرقها وزير الخليفة!

***

وقف في بهاء يباشر متابعة تحميل الأشولة إلى العربات ثم متبسمًا راح يحسب ما قد يجنيه منها، ومن أعظم ما فعل الرشيد أنه يأمر الجباة بجمع خير السنابل وأحسنها إلى الخزائن. في هذه الأشولة أفضل محاصيل الأرض على الإطلاق.

مر وقت طويل والعمل يسير على نحو جيد، حتى كان وقت أن اصطبغت الشمس بلون أحمر كامل، راح يرمق الشمس الراحلة بعينيه قبل أن تتعالى أصوات صيحات غاضبة قادمة من بعيد!

تحرك في وجس واقترب نحو بوابة السور المحيط بالخزائن وراح يتدبر النظر من فوق بطنه الكبير. الضباب الأحمر كان يخفي كل شيء، حتى اهتز فجأة واهتزت معه الأرض من أسفل قدميه، وخرج من بين ذلك الضباب آلاف من أناس يصرخون كالشياطين، يركضون نحوه.

صاح في ذعر وقفز مبتعدًا عن البوابة حتى أشرف على السقوط بينما استوقفت الهزة والصوت الجنود النهابين من حوله كذلك، وما إن اقتربوا من البوابة حتى أصابهم الذعر نفسه!

تهاوت الأشولة من أيدي حامليها، وتضاربت الخطى، وارتجفت الأرجل وسرعان ما استل الجنود أسيافهم، ثم هلعًا إلى إغلاق البوابة عليهم صارخين في وجه الصراخ يواجهون مصيرًا هو مفزع في أهون احتمالاته!

ليكن ذعرهم هو آخر ما شهدته الشمس قبل زوالها، وأضواء النهار الأخير قبل أن يرحل في هدوء..

هدوء بدا معه كأنه لن يعود مجددًا..

غروب يصيح عاليًا: لن تشرق الشمس من جديد على هذه الأرض فلا تنتظرها.. لا تنتظر شمسًا جديدة بعد غروب شمس الدين!

***

الليلة الثلاثون

غمر السكون كل شيء على ضوء القمر الأزرق المتسلط حتى بدا كل شيء كبركان هادئ خمد بعد انفجار أفرغ به كل ما يحوي من حِمَم. طرقات المدينة خامدة تجتاحها البرودة، خاوية كأنها مدينة للأشباح، والسوق كساحة خربة خلفتها معركة ناحرة ذاق كلا فريقيها الوبال.

تحول الضباب ليلًا إلى اللون الرمادي المائل إلى الزرقة من ضوء القمر يغشى جدران القلعة وما حولها، بأبوابها المؤصدة وميادينها الممتلئة بالجنود في كل مكان يباشرون أمر مروان بحذافيره حتى بدت دون المدينة كحصن منيع ينتظر قيام حرب لاذعة.

أما القصر في قلب القلعة فكان خاويًا خواء الكهوف في ليل حار. أوامر أخرى من مروان، وهدوء ممراته الشاغرة وأروقته الصامتة لا يجيبه إلا صوت احتراق المشاعل على الجدران يتساءل عن سر ذلك الهدوء العجيب. إلى أين ذهب الجميع؟

لا شيء في القصر ينبض بالحياة إلا طاولة العشاء في غرفة خاصة وقد استعدت وتجهزت وتزينت كهدية ثمينة، يضمها مقعدين على رأسيها ينتظران أصحابهما في كلل وقف به مروان إلى النافذة يراقب

الجنود في رحاب القلعة، تتقافز عيناه بين الحين والآخر إلى أبواب القصر ذات الحراسة الكثيفة من الجنود دون أولئك الجوالة من حولها على طول الجدران.

لا يشغل باله إلا كلمات حراء الأخيرة قبل انصرافه للانضمام إلى الجنود حين سأله عن سليم.

- لم يظهر بعد!

تترد في عقله برهة، لكم تثير لفظة بعد جنونه، وكم ثقيلة هي تمر لحظات الجنون.

لحظات من جنون كانت تمر كذلك على حراء الذي وقف بين جنوده في القلعة في انتظار وصول ضيف العشاء.

وقف شاردًا يضع كلتا يديه خلف ظهره، يختلس نظرة بين الحين والآخر إلى واجهة القصر، نحو غرفة شاهد بالتحديد، في قلبه مما فعل به شيء عظيم، شاهد لا يستحق ذلك المصير، ولم يكن كذلك أبدًا، لا بد وأن ما حدث سوف يزيده جنونًا فوق جنونه.

تتسلل إلى مسمعه أحاديث الجنود عن معترك السوق، وخواء الطرقات من الناس، عن النبوءة وشمس الدين، وذلك الضباب وهذه الليلة، وسليم ومروان وشاهد ومهاجر وما ينتظر الأمراء الأربعة فيها، عن الخزائن التي أرسل إليها حراء بعض جنوده بعد ما سمع من أخبار عن ارتباك الأمور لديها، لم تكن حقيقة الأمور وما يقع في الخزائن فعلًا قد بلغته بعد، لكنها كانت في طريقها إليه.

نظرة أخرى اختلسها إلى واجهة القصر بتعابير متضاربة على وجهه، شيء واحد يجول بخاطره، كيف صنع منه مروان مجرمًا دون أن يلحظ ذلك؟ كيف عليه الانصياع التام والطاعة الكاملة لأوامر كل من يطلق على نفسه لقب الخليفة، وإن كان مجنونًا لا يعقل وإلا كان متمردًا حلال الدم حتى يموت، وحلال اللعن حتى الأبد.

ثَمة هذا الشيء في عقله، مروان ليس الخليفة بعد، ليس قبل أن تشرق الشمس، حينها ارتبكت عيناه قافزة نحو مروان نفسه الواقف في النافذة.. ذلك المتغطرس، لماذا يخلي كل من في القصر كل حين؟ ما الذي ينوي فعله يا ترى؟

رمقه بعين البغض يحدث نفسه بما سيفعله به إن لم يصبح الخليفة بعد كل ما فعله منذ أيام الرشيد الأخيرة!

الرشيد.. هل حدث حقًّا في تلك الليلة ما تساروه نفسه بالشكوك حوله؟

إن كان ذلك.. فالقتل لن يكون كافيًا لمروان أبدًا. على كلٍ لن يكون عليه الانتظار كثيرًا، فقط حتى تشرق الشمس. وكم هو مخيف أن تتوقف العديد من الأشياء فقط على شروق الشمس!

وفي واجهة القصر، كانت غرفة واحدة مشتعلة المشاعل لم يأبه لها حراء أن يرمقها بعينه، غرفة وإن كانت شاغرة إذ هجرها صاحبها لساعات يبحث عن أخيه في كل موضع قدمٍ من القلعة الواسعة إلا أن قبع على طاولتها ما هو كعاصفة تنتظر على الأبواب. صندوق مروان الذي جلبه معه يقبع وحيدًا في

الغرفة في انتظار مهاجر تفوح منه رائحته النتنة. ولسوء الحظ أنه ينتظر وصول مهاجر فقط، لا ينتظر شروق شمس أو زوالها!

***

ولدى أبواب العاصمة ارتجف الضباب الكثيف!

ثم اشتد كأنما محور هذا الضباب قد وصل. محور خرج من بينه أول ما خرج عصا غليظة، ثم تبعها صاحبها، بهيئته اليافعة وجسده الهزيل ووجهه دامس الظلام تعلوه قلنسوته الزيتونية!

لكنه لم يدب الأرض هذه المرة، إنما أخذ يخطو خطواته الباردة المتوجسة، والضباب من خلفه يتحرك كأنه يتبعه إلى وجهته!

ضباب ما أخفاه لم يكن ليدرك بالعين، وإن كانت لتنقبض له القلوب وترتعد، لكنه كان يرى تمامًا كصاحبه، يرى هو وقَبِيلِه من حيث لا يُرَون. أخذا يتحركان في الطريق نحو أبواب القلعة؛ يريد بلوغ قصرها حيث لديه موعد عاجل على العشاء!

***

- لقد أتى! أتى!

حان الموعد.. إنها ساعته...

الليلة سوف ينتهي كل شيء!

تدفق الهواء إلى صدر شاهد مستيقظًا من نومه فزعًا على فراشه في غرفته الباردة، خرج على دفعات متقطعة يجانبها شعور مقبض غريب. لمحت عيناه آثار دماء جفت على فمه وألم شديد في كلتا يديه، يدان جاء ليرفعهما إليه، لتتفجر عيناه بالذعر!

صاح حلقه بصياح مؤلم مخيف بفم فاغر، لم يظهر فيه لسانه كما لم تظهر لدى رسغيه يداه!

صيحة مرعبة ارتجف لها قلب مهاجر حتى تسمر أقدامه أرضًا ممسكًا عن هرولته عند باب الغرفة. رجفة امتدت إلى سائر بدنه قبل أن يدلف بها إلى الغرفة تحمله أرجل متخبطة ترتعد تاركًا الممر يعود إلى خوائه من جديد.

***

اشتد به الألم عتيًّا يتحرك به زاحفًا على أرض الطريق الخاوي من حوله وقد غرق في دمائه. يجاهد المضي قدمًا، تقدم ببطء في ألم أفقده صوابه كأنه يجر من خلفه أحشائه، الذعر والغضب لم يفارقا وجهه منذ شهد ما شهده لدى الخزائن، وبالنظر إلى مصائر غيره من الجنود هناك أو مصير يعقوب السقري يعد هذا نجاة كانت أقصى آمال ذويه، وفرارًا نادوا به في السماء قبل أن يلقوا حتفهم بتلك الطريقة المفزعة.

هو وبكل إصابته وحجم الألم الملم به قطع مسافة كان يحسب بلوغها معجزة، صحيح إنه بالفعل أشرف على الهلاك ولم يعد يقوى على العدو كأول الطريق أو المسير كمنتصفه أو حتى الحبو ليتحرك

زاحفًا ما بقي له من الطريق، لكنه قد شارف على الوصول، على بعد خطوات معدودة من إحدى بوابات القلعة.

***

في الآونة التي وقف فيها حراء بين جنوده متوجسًا..

شيء ما غريب كان يجول في القلعة منذ وصلها ذلك المدعو على العشاء، هذا الهزيل منذ دخلها وتوجه نحو القصر، وشعور مريب يخيم على الجميع في المكان. هدوء شديد غير عادي، وضباب ازدادت كثافته. جنوده سيطر عليهم صمت مريب وسكون مقبض تلبس كل شيء. يشعر كأن شيئًا يقف خلف ظهوره يهمس إليه في آذانه، أو يتربع على أكتافه يضيق بحلقه خناقًا حتى تكاد تحتبس أنفاسه. شيء خطير يتحرك في كل مكان دخل مع ذلك الرجل، شيء شديد الخطورة!

***

ارتسمت الابتسامة الباهتة ذاتها التي في تلك الليلة التي جمعته بالرشيد في عشائه الأخير على وجه مروان. رفع كأس الخمر من على الطاولة مشيرًا بها إلى ضيفه على الجانب الآخر منها في غرفة لم تجمع سواهما يقول: حمدًا وصولك يا صاحب الندبة!

ليبتسم بقلنسوته الزيتونية وندبته في عينه اليمنى يبادله الابتسامة ذاتها!

***

حال وجس حراء وشعوره الغريب إلى ذعر مندلع حين انفتحت بوابة القلعة على مصرعيها يدلف منها جنديان ممن كانوا يحرسون البوابة من الخارج بجندي يحملانه بين أيديهما كأنه قتيل!

هلعا به إلى الداخل ليهرول إليهم الجميع الذين سبقهم حراء إليه يحدق على مقربة منه إلى جروحه في رعب. ما الذي أصابه؟ وأين الآخرون الذين خرجوا معه إلى الخزائن؟

أحاط به الجميع يسألونه في جزع يترقبون لسانه الدامي يقول ما ارتعدت له آذانهم، وأخذت تميد به الأرض من تحت أقدامهم كأنما وقعت عليهم صاعقة!

***

تنهد بعمق في إرهاق شديد كأنه نفس أخير..

نظر أمامه يرى ما أمكنه رؤيته على ضوء القمر الأزرق المشتعل في السماء. لم يكن ليتمنى أبدًا أن يصلها في ليلة اشتدت فيها الريح، أو يبلغ أبوابها في جوف الليل لكنه ما حدث!

أخذ صدره يعلو صاعدًا ويهوي هابطًا وقد نال منه الوصب، ووقعت في نفسه الواقعة ما إن شهدها بعينيه خافير الذي سمع عنها الكثير!

ثم تنهد متأهبًا؛ نَفْضَ الغبار عن الحقيقة، وإزاحة الستار الأخير عن خبايا الخيزران.

****

البوح الحادي عشر

حكاية آن الأوان أن تعرفها

تقدمت تبدد الظلام من حولها بما حملت في يدها من شمعة غليظة أمسكتها من قامتها بين أصابعها البريئة وقد انصهر بعضها، ووقع من صهارته على كفها الصغير، راح الضوء البرتقالي المنبعث يداعب خصلات شعرها اللامع.

فتاة في طور الطفولة يتسع وجهها من فرط تبسمها، راحت بقامتها القصيرة، وخطواتها الحذرة تقترب من الفراش في ركن الغرفة البعيد، بينما تموج خارجًا الرياح موج مياه البحر في يوم عاصف يتسلل صوتها إلى أسماعها فلا يثير فيها شيئًا من الخوف.

سارت في ثبات وحزم حتى خالط ضوء شمعتها ضوء شمعة أخرى رقدت إلى جوار الفراش ليتحد الضوءان اتحاد أصابعها بالجسد الراقد أمامها. جسد صلب لكنه ذابل، نحيف كأنه خاوي، يرقد في ثبات كأنه جيفة، مع هذا شعر بلمستها ونهض من فوره كأنما قد سبقها إليه شعور بقدومها. اجتمع الابتهاج والارتعاد معًا ينسجان صوت كلماتها تعانق ضوء الشمعات: لقد وصل تقي الدين يا جدي.

سمعها ولم يتحرك ولم يتحدث ولم يكن ليقوى على كليهما. فقط راح يداعب بكفيه عينيه المدمعتين فوق لحيته الحمراء في صمت مهيب..

***

ارتجفت أقدام تقي على الأرض يخطو أولى خطواته داخل القرية وقد فارق دابته بعد أن أودعها أبوابها، أبواب عبرها ينظر إلى المكان من أمامه في وجس كأنه يعجز عن تحديد ماهية ما يراه.

المكان كأنه قرية هجرها أهلها وتركوها حتى رحلت عنها كل مظاهر الحياة فيها كأنها أشلاء حرب ماجنة لم ينتصر فيها أحد. لا تبعث على النفس بالسكينة قدر ما تبعث عليها بالسكون والحذر كأنها تُسَمِّر الأقدام موضعها على الأرض. الزمان كأنه مائتا عام مضت أو يزيد، ساعة في أول النهار وآخره في آن واحد، كأن فوق أفقها فقط يجتمع شروق الشمس وغروبها معًا.

تقدم في بطء وحذر، في كل خطوة يخطوها تتداعى إليه خاطرة من ذكرى بعيدة سكنت بداخله عن هذه القرية منذ الصغر. كل ما قيل وكل ما سمع وكل ما قرأ عنها. لا تزال فكرة أنه هنا الآن، على أرض خافير البعيدة تثير لديه بعضًا من الوجس والارتياب.

وحيدًا كان، منفردًا يسير في الأرجاء يتلفت حوله بين الحين والحين، على مرمى بصره لا أحد في المكان سواه والرياح والبيوت من حوله على قارعة الطرقات. طرقات ظلماء دامسة، أحاط بها من الخواء ما أحاط بها من الظلمة عدا من نفحات خافتة من ضوء القمر الشاهد في الأفق.

الأرض تحت قدميه فريدة، هي ليست باللينة ولا بالرخوة، لكنها يابسة قاسية كأنما لم تخطُها أقدام منذ مئات الأعوام حتى رتبت الريح الشديدة ترابها فنظمته، تترك أقدامه آثارها في موضعها أينما حلت. منازل فقيرة مبعثرة على الجنبات، وخاوية، بعضها بابه بارد صلد تجمد في مكانه وبعضها مهترئ محطم يميل، نوافذ متساقطة مفتوحة تسكنها العناكب وتقتات على أركانها وجبات دسمة من غبار السنين.

تجمدت في أطرافه النهايات العصبية كما ألجم البرد والخواء لسانه، وأطبق شفتيه مستندًا على عصاه يجول كالمشدوه. ببطء وحذر راح يسلك الطرقات لا يعلم إلى أين يقود أيًّا منها؟ لكنه يعلم ما يبحث عنه، وما أتى إلى هنا لأجله.

إنها الإجابة كما أخبره اليمامي.

حتى توقفت خطاه أمام أحد البيوت على القارعة، واقترب منها حتى دنا، ثم راح يحرك بابه ببطء يصدر أزيزًا باردًا. البيت خاوٍ كذلك كأنه عش مهجور، تحرك الرياح نوافذه وترطمها بالجدار إلى جانبه، بينما يقبع في الأركان آنية طعام وقدور وكؤوس مغمورة كلها بالتراب والسكون لم تحركها يد لم تلمسها منذ زمن. خرج من البيت خائفًا يترقب عائدًا إلى الطريق من جديد يخطو وحيدًا بين الدروب الباردة. أرهبه هدوء المكان، ما سمعه عن خافير وما يردده الناس في الجانب الآخر من النهر، حمل التوقعات على غير الهدوء الذي يرى، وإن لم يحملها على خلافه كذلك.

استمر في المسير يجول بينما يتغير في نفسه شيء ما كلما خطا، شيء يعجز عن تحديد كُنْهِ لكنه يشعر به، يربو بداخله ويزيد، شيء كأنه رغبة في البكاء!

حتى كانت حركة سريعة خاطفة مرت من خلفه وشعر بها فتوقف!

استدار من فوره فلم يجده شيئًا، نظر إلى الآثار على الأرض فلم يجدها إلا خاصته، لم يخالطها غيرها. بدد الظلام السائد فكره، وأوقع في قلبه شيئًا من الرعب، هذا الظلام يحمل كل الأمور على نحو أسوأ. جال في خاطره أن لعلها أفعال الرياح، لكنها خاطرة كذبها في قرارة نفسه وإن نازعته على تصديقها حتى لم يحرك موضعه مقدار قدم واحدة.

أدرك بطرفه حركة أخرى مشابهة في مكان بعيد، كانت هذه المرة في جوف الظلام، وبالرغم من كونه قد شاهدها هذه المرة إلا أنه عجز للمرة الثانية عن إدراك ماهيتها.

مرت لحظات تأرجحت فيها التعابير على وجهه بين اليقين والارتياب جيئة وذهابًا، بين الخوف وإيقاظ الشجاعة عن خمولها. ابتعد بضع خطوات إلى الوراء يشهده بعينيه يخرج من الظلام عابرًا الطريق أمامه، كلب أسود كالظلام، يتناقل بخفة غريبة كأنما تتقافز أقدامه على الطريق دون وطئها، حتى بلغ أن كان في مقابله، حين استرق تقي النظر إلى الأرض موضع أقدامه ليجدها سوية لا يخلف عليها ولو بقعة واحدة من آثار أقدامه. أوجس في نفسه خيفة أوقفته في مكانه عاجزًا معها عن الحراك، خيفة تفاقمت حين التفت الكلب إليه يرمقه بعينيه الغائرتين. ثم توقف عن الحراك مثله ليقف محدقًا إلى تقي تمامًا كما يحدق إليه.

انتصبت أذناه وذيله كأنما قد تجمد في موضعه تلتمع عيناه أسفل ضوء القمر بينما يطالعه تقي بعينين متسعتين وحاجبين محلقين وآذان متأهبة يرقب خطوته القادمة. وفي لحظة، تراءى لتقي شيء غير ملموس، شعر به كأنه وقف ينتظر شيئًا ما. قفزت إلى عقله فكرة شرع في تنفيذها على الفور متخذًا خطوة أولى نحو الأمام. خطوة أخرج لها الكلب لسانه متدليًا عن فمه يلهث..

وحين أخذ خطوته الثانية، ثم الثالثة، انطلق الكلب مكملًا طريقه إلى وجهته.

لقد فهم.. إنه يريده هو، يريده أن يتبعه!

تبعه بخطوات حذرة من طريق إلى طريق يقوده وخطاه نحو وجهة يخيل إليه أنها قلب القرية، ويوقن أنها الوجهة حيث عليه الذهاب. تأمل مرتعدًا في مواضع أقدامه حيث يخطو، متسائلًا أنى له بخفة كتلك لا يخلف بها آثارًا على الرمال؟

هيئة الكلب تثير في نفسه سؤالًا آخر أكثر تعقيدًا عن الأول.. هل سبق له أن رآه من قبل في مكان ما؟

وبينما كان يسير تعالت تباعًا أصوات نباح قريبة وبعيدة بدأت تصدر من أماكن متفرقات. وحين تباطأت حركة الكلب، أخذت أصوات النباح يخالطها صوت آخر في مهده غير معروف، صوت اقترب منه بخطاه التابعة حتى ميَّز فيه شيئًا من الأنين، أنين طويل وثقيل، كأنه صوت بكاء قادم من مكان ما.

تأمل الصوت جيدًا؛ فإذا به صوت بكاء أنثى!

وفي اللحظة التي ميزه فيها اختفى الكلب من حوله كأنما قد ابتلعه الظلام ليقف في مكانه حائرًا في وجس.

ارتجف قلبه بوحشة المكان كما ارتجف بدنه ببرودته. انتظر للحظات يفكر حتى قرر أن يتبع صوت البكاء، ليأخذ بخطاه سيرًا خلف الصوت، من درب بارد إلى درب أكثر برودة، ومن زقاق مهشم إلى زقاق أشد تهشمًا، كلما خطا خطوة ازداد بها الصوت نحيبًا وازداد البكاء حرقة ووضوحًا وازدادت البيوت والمنازل دمارًا وخرابًا!

البكاء مرعب ومخيف عن قرب، كأنه لإحداهن تحترق من الداخل أو يفتك بها شيطان. وباقترابه اشتد الصوت حتى أدركت أذناه منبعه. نظر إليه فإذا به عند ضوء أزرق وهَّاج في نهاية الزقاق، ضوء للقمر ينتشر في مكان فسيح. أخذ خطواته الأخيرة في حذر بالغ خرج به إلى ساحة عظيمة عند نهاية الزقاق.

وفي الساحة وجدها!

دبت في جسده لوهلة برودة قارصة أشد من أي برودة مضت، بينما يقف متأملًا المكان من حوله حيث تتراص البيوت في دائرة تتمركزها الساحة وتتخللها الممرات والدروب، تتوسط تلك الساحة بئرٌ عظيمة تضم إلى جوارها جسدًا عاكفًا على الأرض لامرأة تُكَبُّ على وجهها، يصدر عنها صوت البكاء المخيف.

اتشح الجسد باللون الأسود يغشاه ستار عظيم بالٍ انسدل من حوله يكسوه الغبار، عكفت به تحترق بكاءً أمام البئر كأنها تبكيه. أصابه منها نصيب من القلق حتى تجمد في موضعه يراقبها حبيس الأنفاس. ثم ببطء راح يقترب منها شاردًا في الساحة نحو البئر. وخطوة تلو خطوة، أخذت أشياء أخرى تتحرك من

حوله في جوف الظلمة من خلف صفوف البيوت، وتخطو كذلك خطوة تلو خطوة. يقترب منها ليقتربوا منه، لكنه كان يترك أثر الخطوة من ورائه، بينما هم لا يتركون ذلك الأثر.

حتى كان خلفها مباشرة استقرت به أقدامه ينظر إليها متسائلًا للحظات قبل أن يجهر بسؤاله متحدثًا للمرة الأولى منذ أسابيع:

- ما بكِ؟

وما إن قالها حتى أمسكت عن البكاء فجأة وسكنت عن الحراك كأنها ترقبته، ومعها سكن العواء والبكاء والرياح وكل الشيء.

ارتجفت أقدامه تتراجع نحو الوراء وقد أوقع ذلك في نفسه شيئًا من الوجس.

وفجأة بينما يتراجع، عادت إلى بكائها من جديد!

ابتلع ريقه الجاف جزعًا، ثم عاد يهمُّ بندائها من جديد لولا أنها التفتت إليه فجأة ليرتعد في ذعر!

أخذ يرمق وجهها البني المحترق يلتمع بالدمعات على وجنتيه والجبين بينما تنظر بعينيها اليابستين المحاصرتين بالماء ينبضان بالدم والحمرة. تراجع نحو الوراء يطالعها في فزع بينما تصرخ باكية في وجهه بحرق أشد وأكبر من ذي قبل. صراخ يحبس الدماء في عروقها!

عزم الرحيل في الحال، ليستدير مهرولًا على الفور ينتوي العودة، لولا أن وقع عليهم بصره من حوله في كل مكان حتى تسمر في مكانه من هوله.

عددهم كبير وأعمارهم شتى، أكثر من أن تحصيهم عينان وحيدتان خائفتان، وقفوا في الساحة وعلى جوانبها، وعلى عتبات البيوت وفوق الأسطح، رجال ونساء وشيوخ وفتيان، فتيات صغيرات وكلاب شاردة، عن اليمين وعن اليسرة وفي كل مكان.

يتقدمهم صاحب اللحية الحمراء تعلقت أنظارهم بتقي في جمود بينما تطيح الرياح بملابسهم وأوشحتهم ولحاهم.

كيف خرج كل هؤلاء دون أن يراهم؟ ومن أين خرجوا؟

أخذ يرمقهم في صدمة عجز معها عن الحديث أو التفكير..

أو الوقوف..

حتى سقط مغشيًّا عليه.

***

تراقص فتيل الشمعة نفسها إلى جوار الفراش ذاته بينما سيطر الهدوء على كل شيء عداها.

جلس الشيخ صاحب اللحية الحمراء ممسكًا بعصاه على مقعد خشبي مُرَمَّمٍ إلى جوار تقي الراقد من أمامه على الفراش بعينين مغمضتين وجسد ساكن. عيناه الخمريتان ووجهه المرمري المتصلب يشيان بسر مكتوم في صدره لسنوات. بدا في هذه الساعة من الليل وعلى ضوء تلك الشمعات، سر في إحرام البوح.

بينما يرمق تقي اللاشيء بوعيه الغائب وعينيه الخاويتين على عروشهما، راح يرمقه الشيخ بأعين مترنحة، وفاهٍ يابس، ترمق كلاهما أعين ثالثة من داخل وشاح كبير على جدار قريب، أعين دون غيرها التمعت بالدموع!

لم يوجد سواهم في الدار بأكملها، بينما كان الجميع خارجًا على صفائح الانتظار الساخنة، وكؤوس الصبر المرة يتحملون ليل خافير البارد وشمسها الغائبة. جمع وإن كان كبيرًا إلا أنه هادئ، هادئ إلى حد يثير الخوف.

حتى تقدمت بينهم الفتاة المتبسمة ترتقي الخطى تحمل كأسًا نحاسيةً لامعة عبرت بها بين الجموع بينما ترمقها الكلاب من بعيد وقد اجتمعت على بعد أذرع تطالع المنزل الوحيد، تتكدس الناس من حوله، بينما تدلفه الفتاة صاعدة درجاته الخمس ثم يغلق من خلفها الباب تاركًا الهدوء خارجًا يعود من جديد.

تناول منها الشيخ الكأس في حذر وقد وقفت إلى جواره ترمق الغريب الراقد في مهابة، بينما ممسكًا بالكأس نظر الشيخ لتقي للحظات تأهب فيها ثم شرع يسقيه منها، أغمض عينيه وتمتم بذكرٍ ما، ثم أعاد وضم فاه تقي من جديد بينما تراقبه الفتاة في فضول عانق نظراتها الصغيرة مثل عمرها.

قبل أن تسأله:

- لماذا ماء البئر يا جدي؟

وللمرة الأولى منذ زمن خرج صوته في إجابتها. خرج كبيت عتيق أو مدينة منسية، أو لوحة يُنفض عنها الغبار.

قال:

- بهذا سوف يرى الحقيقة.

أعاد الكأس إلى الفتاة دون أن يفارق بصره تقي يطالع الاضطراب الذي ظهر على وجهه بعد أن سقاه، اضطراب أخذت تتأرجح فيه أجفانه كأنها تتبدل وتتكتم أنفاسه كأنها ستزول. التفت إلى العينين الباكيتين على الجدار للحظات نهض بعدها ببطء عن مقعده ثم رحل يغزوه وجس وحزن غريبان، تقدم بهما ذاتهما الشاب على الجدار نحو تقي بخطى ثقيلة مترددة. وبما جال في خاطره، اشتد في عينيه الدمع وسال، قبل أن يرحل به والفتاة متبعان الشيخ خروجًا من الحجرة. ليبقى تقي وحيدًا على الفراش يشتد النبض في عينيه من أسفل الأجفان، قبل أن ترتفع فجأة كاشفة عن عينين ذاعرتين لا تظهر عليها آثار الحياة أخذت تحدق إلى مرآها في ثبات.

***

تراقص بريق الشمعة في عينيه جالسًا على مقعده على مائدة الطعام يرمق ضيفه على الجانب الآخر من الطاولة.

أسهب مروان في ابتسامته بينما يؤجج في نفسه ذلك الهدوء الرهيب الجاهز به عليه، نظرته المريبة وسلوكه الغريب، الذي لا يعلم إن كانت عينه الواحدة هي السر فيه أم أنه بالفعل أغرب مما يبدو عليه،

وجدير بذلك الارتياب.. حتى كاد أن تكلم..

خرج صوته قاطعًا أوصال الصمت يثير في النفس مخاوف غير واضحة، كأنه يبعث بذكريات قديمة أو حكايات عتيقة عن ماض بعيد، صوت عاد وقعه في نفس مروان من جديد مذكرًا له بآخر مرة حدثه فيها.

– القصر بأكمله خاوٍ، يذكرني هذا بليلة ماضية.

قالها لتضطرب ابتسامة مروان كأنما أدرك ما يرمي إليه وأربكه، قال:

– ما بالك لا تقرب الطعام وقد أُعد على شرف وصولك..لا إخالك من ذوي الحياء.

تبسم ضاحكًا من قوله وقال في استهجان: حياء؟

سكت لبرهة رمقه فيما مروان في ريبة تظاهر بغيابها بينما يردف: أنا أعرف هذه الأرض جيدًا، أعرفها أكثر منك، أنا أقدم منك فيها.

بهتت ابتسامة مروان وبقيت ريبته جلية واضحة، بينما يستطرد: وأما القصر فأنا أحفظه، كما أحفظ أهله.

همَّ مروان بالحديث لولا أنه قاطعه رادًا الكلمات إلى صدره قائلًا: دعنا لا نطل حديثًا أيها الأمير ولتخبرني فيم دعوتني إليه في ليلة كهذه؟ ما الذي لا ينتظر حتى تصبح الخليفة؟

تبدلت آخر بقايا الثقة الحقة في عين مروان حتى امتلأت بالريبة والزائف من الثبات يقول عابثًا بالطعام: العهد.. أين هو؟ ومن الذي كتب فيه؟

– العهد؟ وما سؤلك فيه وأنت الخليفة ما إن تطلع الشمس؟

– لهذا أريده، لأني الخليفة ما إن تطلع الشمس، لا أريد أن يصل إليه أحد بعد أن أتولى مقاليد الحكم.

– ومن أين لي بالعلم؟ إن كان الرشيد من أخفاه فلن يصل إليه أحد.

– من يعلم إذًا؟ أولست عرافًا.

– لا يعرف العرافون كل شيء.. وإلا لما تركوا الناس يحتارون في أمر النبوءة.

– أتقول أنت أيضًا بالنبوءة؟

– إن كذبت النبوءة.. فكيف تكذب العلامات؟

قاطعه مروان فجأة قائلًا: بحقك.. لسنا هنا لأجل هذا الحديث .

ليجيبه: ولا لأجل العهد!

أثارت كلماته دهشة مروان ليحدق إليه. أردف في ثقته الغريبة: سألتني أيها الأمير سبب امتناعي عن الطعام.. وها أنا مخبرك.

ثم تابع في ابتسامة تثير الوجس: قديمًا.. قبل أن تولد.. كان ثمة حكمة يتناقلها الناس قديمًا، كانوا يقولون: على مائدة الأمراء لا يُؤمَن الأكل إلا من أطباقهم.

ثم تبدل بها صوته:

- دعنا نتبادل المقاعد أيها الأمير!

***

صعد إلى أعلى التل.

من هنا اعتاد أن يطالع كل شيء، أن يتنبأ ببعض مما يقبع في الانتظار، كأن ما هو مقبل يناديه فيراه من هنا، بالتل أو دونه قد يسمع النداء، لكن من دونه لن يتمكن من الرؤية البينة. آخر رؤية بينة رآها، كان الرشيد يتقيد بالأغلال على مائدة طعامه!

وقف على القمة حيث يتكئ على عصاه كاشفًا جزءًا كبيرًا من صحراء الخيزران حول خافير على ضوء القمر الأزرق الساطع حد أن بهتت على أثره حمرة لحيته، أطاحت الرياح العاصفة بردائه ووشاحه حتى أن بدا جسده الرقيق الذابل جسد فارس يقود حرب، هي حرب، وإن كانت تختلف أساليبها.

بينما وقف في مكانه على التل ينتظر صحوة تقي الغافل تقدم من خلفه الشاب الذي تبعه خروجًا من خافير، الشاب نفسه الذي رافقه وتقي في الغرفة وبكى، لم تجف أجفانه بعدُ، بل إنها اصطبغت بحافات حمراء كأنما تغرب فيهما الشمس. شاب أدرك وصوله حين سكنت أقدامه خلفه ببضعة خطوات أعلى التل.

قال محاولًا مؤازرة قلبه:

- لا تبتئس.. سوف يعرف، ولكن ليس الآن، ليس منك، وليس منا، إياك وأن تخبره. إياك وآثار ذوي الأثر.

بدا الشاب يحاول تمالك نفسه والإمساك عن الارتجاف بينما حدق الشيخ إلى الأفق بأعين شاردة.

قطب حاجبيه في قلق..

قال:

- إن ليل الأرض هذا سوف يطول، أرى الكثيرين قادمين من العاصمة يتدافعون عبر النهر.

- إنهم لا يبرحون النزاع.

- بلى هم كذلك، لكن هذه المرة ليست ككل المرات، إن عددهم كبير، على وجوههم رعب وهول عظيمان!

سكت لبرهة ثم أردف بصوت مرتعد: أخشى أن يكون هو!

تبدل حال الشاب من خلفه كأنما سكنه شيء من الرعب معاجلًا: أبلغها؟

ليجيبه الشيخ: كيف وفيهم شمس الدين؟

قبل أن يتجهم وجهه فجأة!

اكتظت عيناه بالدموع ولسانه كأنما قد تجمد حتى مخمصه. اقترب الشاب مستفهمًا يقول: ما هنالك؟

ليجيبه الشيخ في ارتعاد ارتجف به صوته ووجهه وكلَّ بدنه: أرى بين من يعبرون شمس الدين!

سمعها الشاب ليغزوه بأس شديد حتى بمثل تجهمه بُهت قافزًا في عينيه رعب عظيم. بينما ارتفع حاجبا الشيخ قائلًا وقد انقبضت ملامحه: أراه يعبر وحيدًا منهكًا...

انقبض قلبه حتى عجز عن الحديث للحظات ثم أردف: كان آخر شمس في أرض الظلام. أجهش بالبكاء وانهمرت أدمعه تسيل مردداً لسانه: رحم الله شمس الدين.. رحم الله شمس الدين.

ثم أردف في قلق عارم تراجع به نحو الوراء قائلًا بينما لا يفارق بصره مشهده: على الفتى أن يسرع، ليس لدينا الكثير من الوقت.. إنه هو! لقد بلغ العاصمة!

راحت الريح من حولهما تدور كأنما تعصف بقلبيهما، هرولا بينها هبوطًا عن التل في فزع أخذا به عودة إلى خافير. اشتدت الريح أكثر حين اقتربا من قاع التل لتدركهما الفتاة ذاتها أتتهما مسرعة وقد ارتدت وشاحًا داكنًا تلاشت فيه ابتسامتها وحل محلها قلق عاتي، تقول لاهثة:

أدرك الغريب يا جدي فقد قام!

***

بدا المقعد الجديد أكثر برودة، وأحمل على القلق الذي دب في وجه مروان يلتهم منه كما راح الضيف يلتهم من الطعام. قال بفم مزدحم وبرغم هذا لم يتغير صوته المريب: سمعت أن شمس الدين قد قتل!

أجابه مروان في جمود: مات.

- كان رجلًا طيبًا.. لم يستحق ما فُعل به.

- قدر الله.

أتمها مروان ليسعل الفم المزدحم بشدة طاردًا الطعام، هلع يستقي من الماء من فوره بينما يرمقه مروان في جمود. وضع الكأس على الطاولة ثم قال بعين حادة ونظرة غير سوية: الموت والقتل فِعلان متغايران، لا تقتل ثم تقول قد مات أيها الأمير!

قالها ليعاجل مروان في حدة: ما تقول؟

ثم في بعض الانفعال: لست أنا من قتله، إنما فعل الناس، احتد العراك فيما بينهم ومات على إثره، وحاذر من ترمي بالقتل أيها العجوز!

- ومن أرسل المرتزقة يرمونه ثم يضربونه حتى نشب العراك؟ من الذي أطلق الشرر؟

- ولم سأقتله؟ فيم زاحمني حتى أفعل؟

- لأنه كان يعرف ما فعلتم بأبيكم من قبل، مثل بدور، المسكينة، تستحق الجحيم بالفعل لكنها تستحق الشفقة كذلك، شاهد هو من لم يكن ليستحق ما فعلت به، إخال أن إخوتك لن يوافقوك في هذه الفعلة، ليس كل مرة.

سكت لبرهة متأملًا الانفعال في أعين مروان متبسمًا يقول: إنه التمادي، لا أحد يرأف بصاحبه قط.

ثم في نبرة محذرة: بهذا عجلت بكل شيء أيها الأمير!

أصاب مروان نوبة من الانفعال إثر خوف شديد راح يفتك به تراكم فوق مخاوفه وقلقه وأهواله التي صحت في نفسه لحديثه حتى فاض به الكيل مطيحًا بآنية الطعام من أمامه صارخًا في وجهه: صَهٍ!

تلاحقت أنفاسه محدقًا في غضب ترتجف عظام وجهه.

عاد الصمت يسود المكان من جديد، لكنه هذه المرة صمت مشتعل يعج بالضجيج. صمت قطعه هذه المرة مروان في هدوء قائلًا: أنت على حق، أنت لست هنا من أجل العهد.

تحسس مقبض خنجره فوق خصره وأردف: كما أنها تشبه ليلة ماضية بالفعل. تحجم انفعاله وقد جاهد فيه نفسه بينما يتابعه العجوز بنظره راسمًا على وجهه ابتسامة لم تكن زائفة البتة. إذ لا يضاهي حقيقتها إلا قدر الرعب الذي تبثه في النفس منها.

***

انطلق الثلاثة يعبرون ربوع الخيزران بالقرب من خافير تتطاير أوشحتهم وأقدامهم يتسابقون نحوها، تنكشف السكينة عن قلوبهم كما تنكشف عن وشاحها الرؤوس. ما عرفه يعني أن كل شيء قريب، قريب إلى حد يثير الرعب.

ليظهر بعدوه الشاب من بينهم على حقيقته بعد أن انقشع عنه الوشاح وانقشع عنه الحزن كاشفًا الذعر على وجهه عن عينين قديمتين. عينان مميزتان لا تشبهان غيرهما من الأعين!

تنقلوا عدوًا بين الطرقات المظلمة حتى بلغوا البيت الذي تركوه فيها وازدحم من حولها الناس والكلاب فيما تقدم بينهم الشيخ مسرعًا، ثم تاركًا مروان بن الحاكم والفتاة خارجًا دلف بمفرده إلى البيت.

***

قال مروان رامقًا الطعام من أمامه كأنما يتذكر ليلة مقتل الرشيد بحذافيرها: كلاكما كان يعرف بأن مهلكته هنا ومع هذا أتى!

ثم غلب عليه النزاع يردف: وبما أن الرشيد قد مات، دعني أسألك أنت.. لماذا أتيت إذًا برغم أنك تعرف؟

تمهل قليلًا قبل أن يجيبه: أتاكم الرشيد وهو يعلم لأنه لا يخاف الموت، بينما أتيتك أنا.. كي أحكي لك حكاية.

- أي حكاية؟

- حكاية آن الأوان أن تعرفها.

***

خرَّ على الأرض في موضعه آويًا إلى الجدار بينما تتخلل قطرات من الدمع لحيته الحمراء إلى جوار تقي الجالس على الأرض مستندًا إلى الجدار نفسه تنهمر عيناه بالأدمع جاهشًا بالبكاء.

بكى في حرقة كفتيل الشمعة إلى جواره يرتجف صدره ارتجاف شعلتها. بينما انعقد حاجبا مروان وقد خيم عليه الهدوء وتصلبت تعابير الضيف من أمامه يقول في ثبات:

– قبل مائتي عام، نشب بين أخوين نزاع كبير احترقت فيه العاصمة عن بكرة أبيها، تولى به الأخ الأصغر حكم البلاد بعد أن أحرق أخاه ومن والاه من الرعية. جلس على كرسي الحكم على ثوبه حفنات من الرماد، اصطبغ به شعره حتى موته، حاكم أسماه أبوه أسلم وأسماه الناس الرمادي.

أجبرته على فعلته فئة من الناس ما كان ليصل إلى الحكم لولاهم، فئة اسمها الأعيان، ولفعلته هجره مناصريه وقد أنكروا أمره وجحدوه، وجحدوا اسمهم (الأسلمون) الذي أطلقوه على أنفسهم ورحلوا عن العاصمة ومن فيها، وبعدها، قيل إنهم سكنوا أرضًا بعيدة حيث يبكون كل ليلة حتى طلوع الفجر وأطلقوا عليهم اسم جماعة (البكاؤون).

ذلك ما يعرفه الجميع ويظنون أنه فقط ما حدث ولكن هنالك ما لا يعرف به أحد، وهو أن البكائين خرجوا بالفعل من العاصمة وعبروا النهر، لكنهم لم يسكنوا أرضًا.

تجهم وجه مروان بينما يردف العجوز:

– إذ لحق بهم أسلم وبعض الأعيان في أرض الخيزران، وعلى ما أجبروه في المرة الأولى أجبروه في الثانية.. أحرقوا قوافل المهاجرين بمن فيها!

ولئلا يعلم بأمر ذلك أحد، أشعلوا النار فيما جمعوا من الجيف حتى أمست رمادًا جمعوه، وألقوا به في قاع النهر ثم عادوا.

وعاد معهم أسلم خائبًا حسيرًا، قضى ما تبقى من حياته نادمًا حتى مات، لم يعرف بأمر ذلك أحد ولم يسمع أحد عن نبأ القوم الذين رحلوا حتى كان أن شهدهم بعض الرحالة في أرض بعيدة خلف النهر، تقع في صحراء الخيزران نفسها، أرض تدعى خافير!

***

لم يوقن إن كان تقيًّا يسمعه أو إن كان لحديثه فائدة أم لا، لكنه أيقن أن لديه تلك الرغبة العارمة في الحديث، فقال باكيًا:

– عانينا الكثير، وحيدين في أرض الخيزران لا يشهد يومنا أحد، ولا يسأل عن ليلنا أحد، نرغب في الحديث ولا نجد من يستمع إلينا، إلى شكوانا، صراخنا، وبكائنا، مائة عام نرتقب قدوم مسافر أو عبور صاحب سبيل، نسأله عن حال الأرض كيف عهدها بنا أو أثرنا فيها، انتظرنا طويلًا، ولم يأت أحد.

حتى رأيناه ذات ليلة، قبل أن يعلم بقدومه أحد، حتى العرافون أنفسهم، شر عظيم وموت قادم إلى الجميع، صراع ولد منذ زمن بعيد، توعد بني جنسنا من البشر، له قلب واحد ووجوه شتى!

جيش خفي يعيث في الأرض الفساد، ينهب الخير ويسفك الدماء ويجلب الظلام. بلغ خافير ودخلها من كل باب، مسنا وأهلنا بالضر، قتل الرجال وذبح الصغار ونهب الحظائر وأخذ النور، فلم يوقد لنا نار أو يُطهى لنا طعام، إلا شمعة واحدة لكل قلب ينبض حين تغيب الشمس.

لأيام لم نرَ الشمس، نبكي ونصيح وننادي ونموت، لا أحد يسمع بنا في أي مكان، حتى تركنا ورحل عنا زاحفًا نحو الأرض!

خرجنا كل ليلة نصيح ونبكي حتى الفجر، لعل أن يسمع بندائنا أحد؛ فيدركون الشر المستطير الزاحف نحوهم والبأس العظيم القادم إليهم.

لكن أحدًا لم يسمع النداء..

إلا بعد مائة عام..

سمعه العرافون!

***

اشتد انعقاد حاجبي مروان منصتًا إلى الضيف المردف:

- وما أدركه العرافون، أنه ليس إلا من سبيل نجاة وحيد، همس به إليهم البكاؤون وسمعوه.

***

بينما اشتدت الحسرة في صوت الشيخ قائلًا: على المخلص أن يعود من حيث وقع في الظلام.

***

- فتاة من جماعة البكائين تخرج من نسلهم، تتزوج من خليفة الأرض، تلد المخلص في المكان والمكانة حيث يتسنى له تقديم المساعدة، كابنًا ووريثًا للخلافة.

***

- تخيرنا أجمل فتياتنا وأكثرهن حسنًا، لترحل مع العرافين الذين جاؤوا من كل مكان إلى الأرض القديمة، تحمل على عاتقها مهمة إعادة المخلص إلى أرض البشر، فتاة كانت تُدعى صِدِّيقة.

حتى كان بعد عبورها النهر، ذبل جمالها وذهب حسنها واستقبح وجهها كوجه شيطان، حال يراها الناس بها على الجانب الآخر من النهر.

حال لا مفر منه إلا بقلادة تبيت في عنقها لا تبرحه، يكتب عليها السر العظيم.

***

- تزوجت صديقة من الحاكم في رحلة صيد كانت له، وحين عادوا أدراجهم إلى العاصمة أقاموا عرسًا مهيبًا في ليلة ذكرها الناس لأعوام كإحدى أشد الليالي لعنة وظلامًا.

***

- لعنة سوداء كالليل، سلطها عليهم العدو جرادًا وديدانًا يأكلن الرؤوس، وزلزال تمتد به الأرض من تحت أقدامهم، لعنة تتابعت من بعدها اللعنات.

وكلما مضت الأيام واقتربت ولادة المخلص يومًا بعد يوم زاد العدو بأسًا فوق بأس، تلاعب بالخليفة وأهله وكل من في القصر يشهد بهم الويلات، حتى جاءها المخاض ووضعت المخلص. طفلًا يبغضه الجميع ويخشاه.

حتى كان أن نُزعت عنها القلادة أمام الجميع، وكان لصِدِّيقة المصير الذي لاحق أهلها منذ القدم في ذات الأرض، وأحرقها الخليفة في عزلتها حية ظنًا منه أنها تمارس عليه السحر والألاعيب، ومن حينها وهي تعكف على البئر تبكيه موصومة بوصم النار على وجهها، ثم لاحق الفتى يرسل عليه آفات الأرض وأسقامها تصيبه بالحمى مرات ومرات، يقتله في كل مرة دون كلل ولا ملل، وفي كل مرة يعود حيًّا من جديد يسكن الأرض.

وحين عجز عن إفساد الثمرة، سعى إلى اقتلاعها من جذورها. فكاد الحكم أن ينتقل من بيت الحاكم إلى بيت آخر فلا يصل إلى الرشيد مهما مر من الزمن، لكن ذلك لم يكتمل، وكان ثمنه الكثير من الرماد من جديد، ودماء كل الأعيان والرماديين معهم.

***

– مصيرهم وسنتهم التي سنوا منذ القدم، لم يكونوا هم القوم أنفسهم الذين أحرقوا من قبل أهل الأرض، لكنهم كانوا قومًا نشأوا على ذات الدرب وعين النهج، لا يتغير إلا أسماؤهم والأفعال واحدة.

***

– ألقى العدو بالرعب في نفس الحاكم، رعب لم يفارقه حتى بعد أن أُخرج الرشيد من الأرض حيران جريحًا، لا يعلم لرحلته وجهة أو إلى رحله قرار.

في رحلة تبعه فيها أحد العرافين حتى لاقاه في واحة بعيدة، وأشار إليه بما يعده ويحمله على المصير الذي جلب إليه كما يقيم عليه الحجة ويأخذ عليه البينة فلا يكذبه قوله عند الخروج الثاني الكبير واللقاء الموعود في نبوءات العرافين.. أرض خافير حيث تحمله الأعاصير.

***

– وما حدث لمن هاجر من الأسلميين على يد الأعيان، حدث لمن هاجر من نساء الأعيان وفتيانهن على يد قطاع الطرق. تلك المرة التي سمع فيها الجميع البكاء.

خرج الرشيد على رأس الجيش، وخرج العرافون إلى كل مكان وتبعهم الموت حيث رحلوا. وهناك التقى الجمع على أمر قد قدر. واجتمع الرشيد بالبكائين والعرافين، بأمه وبالبئر وبالحقيقة. وهنا أدرك كل شيء.

***

– كان عليه أن يصبح الخليفة، وإلا هلك وهلكنا وهلك الجميع، كانت كل الأمور تسير كما ينبغي حتى أقبل جيش الأخ وقُتل الرشيد الذي يحمينا ويحمي الأرض من الشر ما دام ينبض قلبه بالحياة، وهنالك، كانت ساعة خافير الثانية، تشهدها تلك المرة أعين الجميع، من البكائين وأصحاب الأثر الذين عبروا إلى النهر جيوشًا مع الرشيد ومع مروان، إذ أجهز العدو على النهر والخيزران وخافير والجيش، من كل حوب وصوب، يفتك بالجميع دون رحمة، وأخذت رحى المعارك تدور في كل وادٍ، حرب ضارية عصفت بالجميع أبيدت فيها كل الجيوش، كل من كان حينها وكل من لحقهم إلينا، ولم يعد إلا الرشيد وحيدًا شاردًا نحو

الأرض، عاد حاكمًا وخليفة على المسلمين، ومن مكث في الأرض من القليل من العرافين الذين لم يتبعوا الرشيد إلى خافير ينبؤون الناسَ بالنبوءة، وما يتربص لهم في الانتظار، انتظار رحيل العرافين ثم رحيل الشمس الأخيرة، ما يأتيهم في ظلماتهم ليلًا.

ورحل العرافون، وما خبأته السنون، أن نجح في الخلاص من الرشيد تلك الليلة قبل ثلاثين، حيث سقاه السحر على أيدي أبنائه، سحرًا يحبسه حيث وقع، ويعيده حيث كان، فلا هو بتاركه فيعيش أو بقاتله فيعود إلى الحياة!

أمسك عن الكلام فخيم صمت شديد على المكان. صمت تهاون به روع تقي وتروضت فيه نفسه. مسح وابل أدمعه وقال بصوت غشاه الحزن: وأين هو الآن؟

أحكم الشيخ قبضته على عصاه وقد توترت أصابعه التي لم تكف عن الارتجاف منذ أدرك أن الوقت قد حان وقال في حزم: في البئر..

ثم في وجس:

- في انتظار صاحب الأثر!

***

انفتح الباب أمام الناس كافة، وخرج تقي يقتاد الخطى بين الناس يتبعه فيها الشيخ متكئًا على عصاه. تعلق به نظر الجميع بينما تشتت نظره بينهم، نظرٌ تبدل وقعه في نفسه عن المرة الأولى فلم يعد يثير لديه الوجس قدر ما يثير الألم. لم يعد البكاؤون يبعثون على الخوف قدر ما باتوا يبعثون على الحزن.

ابتعد الجميع من أمامه مفسحين له طريقًا راح يسلكه في شرود، طريق قاده وشروده نحو الوجهة يتبعه فيه الجمع عدا مروان الذي التصق بالبيت متأملًا تقي والحركة من حوله في قلق تلطخ بالحزن في قلبه كما لطخ الخوف دمع عينيه.

بلغ البئر كأنها تناديه، إلى حافته تركن صِدِّيقة لا تزال تبكيه. وبينما شهد القمر البالغ مشهده، بلغ الشيخ السائر مبلغه أسماع تقي من خلفه يناديه أن ليس هنالك الكثير من الوقت.

بينما حدق هو إلى البئر لا يدور برأسه إلا قول الشيخ الأخير في الداخل على أعتاب البيت قبل الخروج.

قولٌ إن أعدْ إلينا المخلص يا تقي الدين!

***

خيم نظير الصمت ذاته على الطاولة، وفي حين تلعثم لسان مروان انطلق لسان الآخر يردف:

- هل تظن أن الخنجر الذي تستعد ممسكًا به في يدك سوف يجدي نفعًا؟ أكنت تظن أن السمَّ في الطعام الذي وضعته لي سوف يفعل؟ لم يمت الرشيد بالسم، لم يكن هذا سُمًّا، ولم يكن ليقتله شيء، أنت تجهل أكثر مما ينبغي.

تلعثمت التعابير في عيني مروان تلعثم الحروف على لسانه، بين الخوف تارة والقلق تارة والانفعال والارتباك أخرى، بينما تبلغ كلمات الضيف مسمعه كجراد يطير من حوله عبر الطاولة: هل تظن نفسك أذكى من الجميع؟ أو أنك سوف تنتصر في النهاية؟

ثم مردفًا:

- أنت مهزوم منذ اللحظة الأولى، منذ صدقت قولي ثم أوقعت بالرشيد في قبضتي وحتى كذبت نبأ خافير أمام الناس كافة، وقطعت لسان وأيدي المطلع الوحيد منكم والشاهد أخوك، لن يمكنه أن يحكي لأحد ما رآه أو يكتب عنه، ثم دعوتني بنفسك إلى القصر، أنا والرشيد لا نموت، لا يقتلنا سمٌّ أو سيلان دم، فقط البئر، غياهب البئر، على أحدنا أن يبقى في ظلمته، وبفضلك وإخوتك كان الرشيد.

إن رعيتك الآن عند الخزائن يتقاتلون، يسفكون دماء بعضهم بعضًا، وجنودي لهم بالمرصاد في كل مكان، وأنت وإخوتك الضعفاء وحدكم داخل القصر مشتتون، تتوقون لقتل بعضكم بعضًا، لا جنود في المدينة ولا جنود في القصر، لا أحد في البيت، ولا أحد في المحراب، فقط القليل جدًا ويبدأ الجميع في المسير نحو حتفه.

أخبرني.. أي هزيمة أَشَرَّ من تلك أيها الأمير؟

تردد السؤال في صدره تنازعه خشية الإتيان به، حتى أفصح عنه متمتمًا بحروف ترتجف في ضيق صدره:

- بحق الله.. من أنت؟

راحت بسؤاله الطاولة تميد، والأطباق كأنها تندثر عنها، حتى بات لا يرى في مرآه إلا الظلام في عينيه يقول:

- أنا هو الموت القادم إلى الجميع!

قالها لينضب الضوء فجأة وتنطفئ كل المشاعل على الجدران والشمعات على الطاولة ويحل ظلام دامس انعدمت فيه كل الرؤية إلا القليل من ضوء القمر المتسلل من النافذة ليهب مروان عن مقعده منتفضًا، وقد استبد به الفزع لا تبرح عيناه مقعد الطاولة على الجانب الآخر مكذبًا لهما!

لقد خوى المقعد من أمامه تمامًا! لا أحد عليه، لا أحد حوله، لا أحد في أي مكان!

لتشتعل في نفسه أحطاب الرعب وتموج في عقله أبواق الفزع.

***

فزع وقف به مهاجر حائرًا أمام شاهد الذي راح يردد في جزع مقدمًا إليه أوصاده في رقبته متوسلًا الحرية!

عجزت كلماته عن الخروج من فمه مقطوع اللسان فخرج كل شيء سواها، صاح في غضب، في حزن، في ألم جم!

أربك مهاجر حتى أفقده صوابه يتلفت حائرًا عاجزًا عن التصرف عجز خروج الكلمات من جوف أخيه. حتى رشد أخيرًا يقول ممسكًا بالسلاسل: ابقَ هنا.. وسأعود.

ثم انطلق بارتباكه منصرفًا وإثر انصرافه انصرفت النار من المشاعل على الجدران والقناديل على الحاويات وانصرف الضوء من كل الغرفة غاشيًا عليها ظلام بارد مخيف لا يذر عينًا ترى أو دفئًا يجول. ظلام غمر كل شيء.

انقبضت له التعابير على وجه مهاجر الذي توقف بين جدران الأروقة بفزع راح يرمق به المشعل على الجدار من أمامه وقد جف زيته، وانطفأ دفعة واحدة من تلقاء نفسه. تقدم بخطوات بدا لم يفهمها، وقد بدا له كل شيء حوله يسير على نحو غريب يعجز عن مواكبته.

بلغ غرفته ودلفها يدور حول نفسه إثر سيطرة الظلام والبرودة على كل شيء عدا من بعض ضوء قمر متسللًا، رائحة غريبة اقتحمت صدره على عجل. رائحة مربكة ومخيفة، بدت تنبعث من الصندوق الغريب على الطاولة، متى جاء هذا الصندوق إلى هنا؟

راح شاردًا يتقدم إليه، تقدمًا تعيقه رأسه بدوار شديد أوقع بالصندوق عن الطاولة. ليتهاوى على الأرض صارخًا بدفتيه بما فيها وما أخذ يتدحرج منه خروجًا في الظلام على أرض الغرفة الباردة حتى استقر قرب النافذة يتسلط عليه مباشرة ضوء القمر.

قمر كشف عن رأس البدور.

***

خرج مروان هلعًا إلى الأروقة وأخذ يعدو في هول نحو طريق الخروج، كلما أفضى إلى ممر وجده يظلم في وجهه. تشتد به الظلمة من حوله ويفتك به رعبًا أشد يبحث عن ملاذ في جوف الرعب.

حتى تسمرت أقدامه فجأة في موضعها عند آخر أحد الممرات. وقف في ذهول يرمق من أمامه سليم وقد تغشته الدماء ممسكًا في يدٍ برأسٍ كانت لرفيقه عقبة وفي الأخرى بدماء اتخذت هيئة السيف.

- سليم؟

قالها بكل ما واتاه من قوة بينما لم يحرك سليم من شيء، فقط اكتفى بالهدوء والسكون يرمقهما به يلمعان على الدموع في عينيه. بينما اشتعل في مروان الارتباك إلى جوار خوفه في الممر المظلم متلعثمًا: لقد ارتكبنا خطأ يا أخي! خطأ عظيم.

لم يكد يتم جملته حتى سكت وقد قاطعه سليم برميه رأس عقبة تحت أقدامه في أسى لم يحرك فيه ساكنًا. رأس! حدق إليه مروان في ذعر وغشت بالسكون كل متحرك. ليبقى كلاهما في الممر جامدين بلا حراك.

***

صاح يريد النداء، والحديث، والفرار والهرب، لكن لم يكن شيئًا بمقدوره. إلا الصياح الطويل عديم الفائدة، يملأ به سماء تلك الغرفة الملعونة بالغضب والأسى. مكث بسلاسله وحيدًا، ينازع مخاوفه ويواجه

كوابيسه يقظًا، يريد الصراخ على مهاجر الذي غاب، ومروان، والجنود، وكل من تواتيه الفرصة للقائه. سيطر الظلام على نفسه سيطرته على كل مكان من حوله.. حتى رآه عند الباب!

إنه نفسه!

توقفت أعاصيره وتراجعت التعابير على وجهه، تثير الندبة على وجهه الرعب في نفسه تمامًا كما كانت تفعل في المنام، هي نفسها لكنها الآن هنا في القصر، أمامه وفي غرفته، ويقظة لا منامًا!

أخذ يقترب إليه دانيًا منه يميل، وخطوة تلي أخرى كأرجوحة تعدو خلف أرجوحة.. أخذ يتوسل إليه بالأسف، ثم بالبكاء، ثم بالصياح والغضب! حتى بلغه لدى الفراش!

وللحظة ما عاد يشعر بشيء من حوله إلا بالأصفاد حوله تنفك وتزول مطلقة العنان لحريته..

***

البوح الثاني عشر

بكاء الفجر

كانت خافير.. يتلبسها شبح صمتها الباغي. حين اجتمع الجميع في الساحة حول البئر، جالسين على الأرض لا يفارق أعينهم، وصديقة التي لم تبرح حافته وإن برحت البكاء، تستقبل البئر بوجهها الشاخص إلى الأرض الباكي في جمود مولية الظهر إلى الجمع البعيد من خلفها.

الوقت يمر ولا شيء في الوسع سوى الانتظار، وربما التهامس سرًّا في خفية بين الحين الآخر. وفي مقدمة تلك الصفوف كان الشيخ الكبير جالسًا إلى جواره مروان والفتاة الصغيرة عن اليمين واليسرة يرمقان البئر البعيدة في ترقب دون همس أو التفات. هدوء تام مربك ومخيف انتشر حول البئر واكتظ بالبئر كأنه بؤرتها التي ينبعث منها ويسكن فيها حتى حدق إليه الجميع.

أما تقي، فحين نزل إلى البئر حسب أن تكون بئرًا دون كل الآبار، من الحماقة أن يتوقع غير هذا. وقد كان ما حسب، تمتد المياه من الجب داخل الأرض كأنها أنهار تسير في سراديب تنيرها المشاعل على جدرانها، وجد فيها إذ نزل قاربًا صغيرًا له مجدافان يرسو عند الحافة في انتظاره. أكاليل من الوحشة أحاطت برقبته ما إن خطى داخل القارب، وارتعاد مربك يهيم حوله في المكان يسير معه حيث يسير ويجدف معه حيث يجدف، يربو معه ويزيد، ويتنفس كما يتنفس، يسبح في المياه ملازمًا كالأشباح.

جال بخاطره بضع كلمات من حديث الشيخ له خلف الباب قبل الخروج بينما يمنحه سيف الخلاص، كلمات لا يكف ذهنه عن ترديدها منذ نزل، التي حذره بها مما ينتظره داخل البئر.

مال مروان برأسه إلى أذن الشيخ جانبًا، ثم همس في تخوف: ماذا سيلقى الفتى داخل البئر؟

سأله ليتداعى على عقله الشارد السؤال بصوت تقي حين سأله خلف الباب ليجيبه كما أجابه من قبله قائلًا: الرشيد تحبسه نُهمة!

ليعقد مروان حاجبيه متوجسًا، قال: وما النهمة؟

قال: آفة عظيمة، تلتهم أصحاب الأثر، بها خاب السابقون.

ليبتعد عنه شاردًا معانقًا إجابة لا تبعث على السكينة. وبينما فارق رأس مروان الشيخ لم تفارقه كلمات تقي له خلف الباب إذ ذكرت بها سؤال مروان.

– لم أنتم فقط؟ لم دون البقية؟

وإجابته همسًا: حين نعبر النهر، لا نختار أي أرض ننزل، لا نسأل عن الغائبين أين ذهبوا أو البقية أين سكنوا، حتى وإن عبرنا النهر معًا، الخيزران أرض شتات.

ثم تحول إلى شرود جديد، هذه المرة ليس إلى البئر، بل إلى مصير الفتى.

***

بينما يجدف الفتى ويسير، كان يطالع الأرض الصخرية تحفُّ دروب المياه كنهر يسيل في كهف، تتخطفه المشاعل الغريبة على الجدران تتلو تراتيل النور وتنشد أبيات التراحيب. ثم رامقًا السيف الذي أعطاه إياه الشيخ من جديد..

ثم مرتعدًا راحت تسوقه تناهيد المياه.

***

قلعة الخزائن- العاصمة

لحظات قبل انقشاع النور

جيفة رقدت على الأرض كأنما ألقيت من سماء عليين، لا يكترث لأمرها أحد، حملت بعضًا من وجه يعقوب والكثير من وجه قتيل قتل بلا هوادة حتى تغلظ وجهه وبرزت تجاويفه بعد أن وطأته آلاف الأقدام. ميتة غير محببة لكنها لم تكن غير متوقعة كذلك ولم يكن من الصعب التنبؤ بها على كل حال، على الأقل قد اندرجت تحت مخاوفه في يوم من الأيام.

وبينما أوى بجيفته بعض الراحمين ممن لم يفقدوا كامل فطرتهم إلى ركن بعيد هو ومن كان معه ممن لم تواتِه الفرصة. الهرب واللوذ بالفرار عند هجوم من هاجموهم عند الغروب ولاقى مصيرًا مشابهًا تزاحم الناس في كل مكان يركض الراكضون بلا تمهل يحمل كل منهم ما أمكنه حمله من غلال وشوالات قمح وأرز وشعير وما وجد من متاع له ثمن.

وابل من الفوضى نشب في كل موضع قدم، يتزاحم فيه الناس الظفر بالغنم ثم الفرار به والهرب، فوضى الاعتراض فيها ليس إلا ببعض الجلبة، والنصيحة الحسنة ليست إلا تغريدات جميلة عديمة النفع.

الأعداد تعجز كل الحواس عن إحصائها وإدراك حركتها. الغلال تتساقط عن صدور حامليها إلى جوار ظلالهم على الأرض من فرط الحماسة فلا يأبه إليها أحدهم لكثرة ما بين يديه.

هو الحال عند الخزائن منذ غروب الشمس، خزائن ارتجفت المشاعل على جدرانها تشهد نهبها وسلبها، في لحظات من ظلام على نور المشاعل، ارتجفت بشدة حتى انطفأت كلها دفعة واحدة ليمسي ظلامها كاملًا!

شلت الحركة في الداخل بينما اضطربت الحركة خارجًا تحمل ريحًا من الارتباك. توقفت لها أقدام أحد الفارين يتطلع حوله في شعور غريب، قبل أن يتسلل إلى أسماعه صوت أكثر غرابة، بدأ يتعالى فور أن تبدد النور عدا ذلك النور الباهت المتسلط من القمر على الساحة وما حولها. ثم لم تلبث أن تجمدت أقدامه وسقطت نهيبته كلها عن صدره هاوية على الأرض حين شهده يقف قرب البوابة!

جسده كجسد البشر بعينين مغايرتين تمامًا، أكثر طولًا لكنه أقل تناسقًا، يشبهه ولا يماثله، يرتدي زيًّا كزي الجنود ولكنه أكثر فوضى، على وجهه ابتسامة كبيرة بلهاء يرمق بها العابرون من حوله في نهم، بلهاء حد أنها تثير الخوف.

تبدد الدفء في جسده فجأة كما تبدد النور حوله فور أن أدرك حقيقتين مفزعتين، حقيقة أن ابتسامته الكبيرة هذه سرها أنه يملك فمًا كبيرًا. أكبر من أن يكون لبشر!

والثانية أنه ليس الوحيد من نوعه!

وقبل أن يدرك الثالثة، وهي وجود أحدهم في موضع قريب حد أنه يقف على يساره، فغر هذا القريب عن فمه الكبير!

لتحلق الخزائن في الظلام بين صيحات ذاعرة!

***

هكذا بدأ الأمر.

بدأ أول ما بدأ، بين أسوار القلعة وأركان الخزائن ومنه إلى كل المدينة بعد أن تبدد النور، يتفشى كالطاعون أو كما يتفشى الحبر في دلو المياه. وبين القلعة والخزائن كانت الطرقات..

راح ينطلق فيها مجموعة من الشبان بينهم فتى واحد ميزهم رابط يجمعهم دون الفوضى في بقية الطريق، طريق العودة من الخزائن كما يبدو. كانوا في منتصفه ينطلقون لوذًا بالغلال كما يفعل الجميع، يتمنون بلوغ مأمن قريب بما يحملون بين أيديهم في الحال قبل أن يدركهم نفر من الجنود الذين لا بد وأنهم علموا بما يحدث بالطبع ويتجهون الآن صوب الخزائن.

قبل أن يصيح أحدهم فجأة: إنهم جنود القلعة!

ليحيد الجميع عن الطريق فرارًا من طائفة الجنود الغاضبة الذين تشبثت أكفهم بألجام جياد تتقافز حوافرها على الأرض تقافز أجسادهم من فوقها، يحملون المشاعل والسيوف والهراوات، خرجوا من القلعة بأمر من حراء بعد ما بلغهم من عظيم ما يحدث في الخزائن، متوجهة إليها على سروج خيولهم يتبعهم حراء ومن معه من الجنود على أقدامهم، مخلفًا ما بقي من الجنود لحراسة القلعة ومداواة الجندي الذي عاد وحيدًا من الخزائن بعد أن أبرحه النهابون بالضرب والأذى يعدون فيه بين أجدال الليل قبل لحظة واحدة من انقشاع النور، وإظلام المشاعل المبتعدة في أيدي الفوارس كافة لتضطرب بذلك حركتهم وخطاهم.

حادوا بينما ينمو بداخلهم شيء من الخوف، خوف من الجنود، ومن فعلتهم، ومن تلك الليلة، وذلك الطريق الجديد الخاوي.

***

ذهب في مهمة جلب الحطب لإشعال قبس من النار ما إن انطفأت كل المشاعل من حولهم وذهب نورها دون سبب بينما ترك الجنود الآخرين الذي خُولوا معه بحراسة القلعة ريثما يعود حراء ومن خرج معه من الجنود في مهمة مداواة الجندي الذي جاء من الخزائن جريحًا.

أقبل مسرعًا حاملًا الحطب بين يديه قبل أن تتجمد فجأة أطرافه في الهواء فور أن رآه يجثو على صدرٍ يلتهم قلبه ورقبته وبعض رأسه، تدنوهم بركة من الدماء بدت سوداء قاتمة بين ربوع الظلمة.

لم يفهم ما يدور للحظة قبل أن تقع عيناه من حوله على الآخرين من الجنود، جثثًا ملتهمة وأشلاء متناثرة في كل مكان على مرآه، ثم يدركه صوت في مسمعه مبرهنًا له صارخًا في أذنه: أنا صوت التهام!

هل ما يراه حقيقة؟

أهو الجريح من أمامه بالفعل يلتهم على يد دخيل لم ترَ عيناه مثله من قبل؟ هل هاتان البؤرتان اللامعتان الناظرتان إليه الآن هما عينا ذلك الشيء؟!

ارتجفت بأقدامه الأرض فجأة فور أن لحظ ذلك الدخيل وجوده وأشاح إليه بوجهه الغارق في الدماء، رجفة حالت إلى زلزلة عنيفة حين أخذ يركض مقبلًا نحوه في نهم!

***

توقف الجميع يتدارك الأنفاس الحبيسة في صدره، بينما وضع البعض أحمالهم على الأرض.

ولم يكن قد مر الكثير حين أخذته ريبة تدور رحاها بينهم تباعًا كأنما ينتبهون للشيء نفسه واحدًا تلو الآخر. في لحظة تعالت فيها صوت صيحات قادمة من بعيد.

تجمد أحدهم منصتًا أسماع الأفق قبل أن يقول: هل تسمعون ذلك الصوت؟

انتبه الجميع لقوله بعد أن أربكهم الصوت فعلًا، قبل أن يجيبه عروة في وجس: إنها تنبع من جهة الخزائن. فيستنكر أحدهم: لا تزال المسافة بعيدة، محال أن يكون قد بلغها الجنود بعد!

ثم خيَّم عليهم بعض الصمت أشاح فيه وجه أحدهم متنبهًا إلى حركة عن جوار الجميع إلى يمنة الطريق ليراه..

كان يقف متسللًا بين البيوت في حلة غريبة، جسد كالبشر تلاصقت أطرافه بجذعه في غير تناسق كأنهم ليسوا بأطراف ذلك الجسد، تعابيره المضطربة والمخيفة فوق فمه الكبير المفتوح كأنه يضحك في خبث ويبكي في حرقة في آنٍ واحد.

اندلعت فجأة أجراس النواقيس من سماء القلعة تملأ الأفق بتراتيل الخطر ترتجف من هولها الأسماع وتضطرب لأصدائها أركان القلوب. نواقيس تخبر أن دخلاء غريبون بين طرقات المدينة.

انقض على صوتها الغريب حين اندلاعها على أحدهم ليهوي به على الأرض في موضع بعيد. لينقض الغضب على الجميع هلعًا إليه يصدونه قبل أن يرى أولهم فمه الكبير الذي اقتلع به رقبة صديقه حتى تفجرت الدماء منها.

***

جمعت الأجراس الشتات، تسترق الأسماع من خلف الأبواب والنوافذ، توقظ النائم، وتنبه الغافل، وتعيد زمام المفتون. من كان في الطرقات فرَّ إلى الديار، ومن كان في الديار أوصد الأبواب والتزم القعور يحتمي في الظلام فلا يدركه ضوء القمر المتسلل. اجتمعت القلوب على الخفق بالجنون والتساؤل المخيف دائمًا.. ماذا يجري خارجًا بحق الله؟ لماذا ذهب النور؟ لماذا دقت النواقيس؟ سؤال راح يتردد في غياهب الظلمة فلا تجيبها إلا صوت الأجراس والنواقيس تنذر بالويل والوعيد.

تذكر بنبوءة قديمة، وعهد منسي وصفحات طوتها السنون.

حينها أدركت العاصمة أنها بصدد ليلة طويلة، الجميع فيها – وإن كان في مأمن – بين أنياب الخطر.

***

وقفت في توجس بعيدة عن الباب..

تراقب الحركة المضطربة خارجًا، بينما تتسلل إلى مسامعها المرتعدة أصوات الأجراس والصيحات والركض في كل مكان، ترتكز عينيها على محابس الباب تتأكد للمرة الألف أنها مؤصدة خاشية الاقتراب أو الحركة. إنها أسمى الوحيدة، لقد سمعت ما يدور خارجًا، وما أجلَّ ما سمعت!

وحيدة في تلك الظلمة لا تعرف شيئًا سوى أن القيامة تقوم خارجًا، وأن هولًا يدور صارخًا بالذعر في طرقات العاصمة.

منذ هجر النور كل شيء، القناديل والمشاعل والمصابيح والشمعات وجاهدت لإشعالها ثانية دون فائدة ثم اندلعت الأجراس تموج في رحى الظلام، لا يكف قلبها عن حديثها بالسوء. وهي العجوز الوحيدة، تلك الوحدة التي تربي الشعور بأي خطر وتزيد.

وحين فعلت تعالت فجأة تلك الطرقات على الباب!

طرقات أخذ يرتجف لها قلبها دون توقف. عنيفة غاضبة لا تشي بحسن نية صاحبها البتة. انتفض جسدها ودبَّ فيه الرعب بينما راحت تتابع الطَّرقات في جمود، طرقة تلو أخرى، تزداد كل طرقة عنفًا وغضبًا عن سابقتها. راحت مرتجفة تحارب ظلام الشمعات وتحاول إشعالها، بينما أخذت الطرقات تزيد عددًا وحِدَّة وكثافة، تتلاحق على الباب كأنما يطرقه جيش من الطارقين المشتعلين بالغضب!

حتى كانت شمعة واحدة أشعلتها ولم تنطفئ!

شمعة ما إن تجلى نورها حتى ذهبت كل الطرقات وسكت بابها كأنها تلاشت مع الظلام. أوت إلى الشمعة على الفور تذهب بها خوف قلبها الخافق.

مكثت جالسة ترتعد في صمت لبعض الوقت حتى قامت متوجسة عن مجلسها وأخذت بين أصابع الخوف تحمل الشمعة التي أهداها الظلام على حاملتها النحاسية الصغيرة الباردة. وراحت تجر خوفها والنور في يدها نحو القبو.

***

خرج من ردهة القصر يتخبط أركان الظلام، لا يزال هاجس الأصفاد يطارد رقبته، كابوس لسانه الذي فقده وأطرافه التي بُترت لا يفارق مخيلته قط. خرج تتخبط خطاه كأنه يسير للمرة الأولى. لم يخرج شاهد من القصر طيلة الفترة الماضية حتى لم يصدق أنه أخيرًا حر طليق خارج أسوار القصر، يطأ أرض القلعة.

لقد بات البقاء في القصر يبعث على الرعب، التوقف عن المسير يبعث على الرعب، الساحة تبعث على الرعب، والقلعة وما بها يبعثان على الجنون. كل شيء يعانق الرعب كأن العالم بأسره سقط في جوف جُب

بعيد.

دار حول أقدامه في هول تناثر فيه خصلات شعره الطليق الأشعث الملطخ بالويلات تتداعى على عقله أسئلة كالأحاجي دون إجابة. ما الذي وقع هنا؟ أين ذهب الجميع؟

المكان موحش كالقبر، بارد كالسماء، تتناثر فيه الجيف وتتفجر فيه الدماء. جيف اختفت أحشاؤها وطمست وجوهها كأنها التهمت، اقترب من أحدها في حذر يحاول أن يتبينه، وما تبين إلا أوسمة الهول ووصمات رعب وصراع على البقاء باؤوا جميعًا بالفشل الذريع. وجوه صارعت موتًا مفزعًا نال منهم في النهاية.

خرج من القلعة هلعًا بخطاه يركض بحذاء السور الخاوي والمظلم شاقًا طريقه نحو وجهة يعرفها تمنى الخروج إليها منذ وقت طويل.

***

بينما في داخل القصر وبين أروقته الصامتة المعتمة، ظهرت الإشارات الخطيرة على وجه جديد لها لم تعهده من قبل، لكنها هذه المرة أشد ظلمة ووعيدًا كأنها أظلمت بظلام كل شيء.

تقدم مهاجر يسوق على وجهه علامات الغضب والعجب مجتمعة، يحمل الحزن ويسير به في حلكة الظلام بين ربوع الوحدة، لا أحد في أي مكان، ولا صوت في أي موضع، أسئلة عديدة ولا إجابة على جدران مظلمة باردة.

المكان من حوله كأن العالم كله قد فُني ولم يبق سواه، لكنه لا يريد العالم البتة، لا يريد إلا مروان، لا تزال صورة رأس بدور وصوت ارتطامها على الأرض واندلاعها من الصندوق يخنقان الأنفاس في صدره، ويزيدان الكمد بين ضلوعه، وشاهد من قبلها، الرشيد واختفاء سليم، هذا الظلام والخواء اللذان جلبهما مروان، لقد طفح كيله وفاض وانسكب مثلما تنسكب المياه من دلو قديم.

لقد ثقلت كفته حتى هوت وطاحت كل الكفات الأُخر، كما طاحت أنامله تتحسس الخنجر في خصره تنشد عليه أبياتًا لم تكن في الحسبان قبل ساعات لكنها الآن أقرب إليه من أي شيء كان أو سيكون. يسير بين الأروقة على ضوء القمر المنير في سماء ليل معتم عانقته غيوم غيث تسيل مطرًا من الظنون.

منذ اندلعت أجراس القلعة قبل دقائق ووجس غير مفهوم يسير معه. راح يتابع المسير حتى كان شيء على الضوء الخافت، شيء على الأرض قرب موضع قدميه، اقترب إليه عاكفًا فإذا بها بقع من الدماء!

دماء قاتمة معتمة كالرواق باردة كجدرانه، لكنها ندية حديثة!

مخيفة كالأصوات المتعالية خارجًا. بقع تناثرت على الطريق تتبعها في قلق حتى قادته إلى رأس هاوٍ على الأرض بلغت به إليه.

وقع في نفسه منها وقع الوجس الذي عكف على قلبه انعكافه على الأرض.

بدأ يفقد القدرة على فهم ما يحدث، لقد بلغ الأمر ذروة التعقيد والبعث على القلق. وحين تَفَقَّدَ هوية الرأس القابع المقطوع تجهم وجهه أكثر وقطب حاجبيه.

- عقبة؟

ما بال الرؤوس قد كثرت؟ بدور، والآن عقبة رفيق سليم! هل يسير مروان بين جنبات القصر مستلًا سيفه يقطع الرؤوس كالمجنون؟ تساءل في خوف ثم سرعان ما تجاهل ذلك وتساءل في ارتباك.. ما الذي أتى بعقبة إلى هنا؟ هل عاد سليم إلى القصر؟

رفع به رأسه في شرود إلى الرواق من أمامه بينما أجابته ارتجافة سريعة في يده هامسة إليه.

***

سار شاهد ملازمًا السور، يترنح رداؤه ترنح خطاه التي غاب عنها الاتزان، خطوات مجذوبة شاردة يحوم حولها الظلام والجنون. حتى كان صوت خافت أخذ يتعالى من خلفه تدريجيًّا كلما تقدمت خطاه.

أمسك عن المسير متدبرًا الصوت في ارتعاد، بينما يقترب في الظلام خلف آذانه. صوت كأنه صوت نهم!

لو أن صدق ما تسمع آذانه لكانت نهايته بلا شك، وما مرت عليه الساعة وإلا وجيفته تتهاوى على السور بعد أن تناثرت عليه دماؤه. تجمد لوهلة عجز فيها عن الحراك بينما يقترب الصوت من خلفه رويدًا رويدًا، وباقترابه يتلاشى عن ناظره حلم الشمس.

دفع جسده إلى الأمام بكل ما أُوتي من قوة، ليطيح في الهواء بخطواته المتلعثمة بعد أن انقضت الآفة على ظهره لينقلب بها على الأرض.

نازعها بذراعيه يباعدها عن رقبتها يحول بينه وبينها، بينما يموج وجهه بالرعب والفزع يتصادم مع النهم المنفجر من الآفة على حافة الموت. عبر لعابها المنهمر ذراعيه سائلًا على وجهه بينما تغمره أصوات الجوع الصادرة من جوفها تناديه على مقاومة واهنة تنعدم فرصها بالكلية، أخذت تنهار لحظة بعد لحظة وصيحة تلو أخرى حتى سقط كل شيء عن حافته!

تجهم فجأة وجه الآفة وانقشع صوتها. رمقته متأملة عينيه وقد غمرها سكون عجيب لم يلبث أن فارقها ثم فارقته ورحلت تعدو جاذبة خلفها ما انهمر من لعابها. ثم انطلقت متباعدة حتى باتت ظلًا بعيدًا ابتلعه ظلام السور.

بينما مشدوهًا راح يتدارك شاهد أنفاسه عاجزًا عن فهم ما حدث، وحيدًا على أرض الطريق إلى جوار السور، دون أنفاسه، دون دفء بدنه، دون عقله، ودون أي شيء على الإطلاق.

***

تناثرت الدماء في كل مكان داخل الخزائن وحولها. الأحشاء تتطاير في الهواء وتتساقط على الأرض كأنها طير مذعور في سماء ليل معتم. تلك الأشياء تلتهم كل شيء أمامها، لا أحد ينجو من تحت وطأتها، لا أحد يلوذ من أسفل أنيابها، لا أحد ينجح في الفرار. رعب عظيم يسير بين جدرانها حتى الأركان، يتقهقر فيها حتى النخاع، يحلق في سمائها حتى الأفق، ويغمر أرضها حتى اللُّب!

كل الصراخ لا يفيد، كل النهم لا ينطفئ، وكل الآمال لا تعود. كل الأنفاس لا تنتظم.. وكل الدماء لن تكفي!

البعض أوى إلى المسجد، والبعض أوى إلى المدرسة، ومن لم يفضِ إلى داره، التهمته آفات الطريق!

***

نزلت أسمى إلى القبو تهبط على درجه كأنما يتدحرج من أمامها قلبها ليسبق أقدامها. ربما فارقت تلك الطرقات المرعبة على الباب أسماعها لكنها لا تزال تخترق فؤادها بلا رحمة. لا تذكر خوفًا مثل هذا قد مر بها منذ زمن بعيد.

راحت تتحرك ممسكة بالنبضات في صدرها تتقدم طريق القبو حتى ظهرت مليكة على ضوء شمعتها جالسة في هدوئها عينِه وإن تبدل حالها. حالها الذي ازداد سوءًا فوق سوء، إذ طغت على جسدها نحولة أشد، تكاد تظن إن رأيتها ألا مثيل لها قط.

جلست أسمى في مكانها الذي اعتادها تستند إلى القضبان وقد وضعت إلى جوارها الشمعة ثم نكست رأسها على صدرها المرتجف، وبينما لم تحرك مليكة ساكنًا غَشِي أسمى ما غَشَّى.

سكوت دون السكون وحراك دون الحركة، يرتجف جسدها كأنه على صفيح ساخن. طالعتها مليكة دون حديث. ومرت لحظات حتى أنست فسكتت وسكنت وسكن كل شيء.

سكون رهيب..

أخذ ظله يميل بينهما معيدًا إحياء ذكرى قديمة شردت بها أسمى عاليًا كأنها تراها حية من أمام عينيها تشهدها من جديد.

قالت بأنفاس واهنة، وصدر مثقل وصوت يهلك:

- أخبرته ألا يرحل!

لم تحرك مليكة ساكنًا كأن كلمات أسمى لم تكن كافية لإيقاظها من سباتها. لكن صوت أسمى لم يكف عن الحديث، فراح يدوي في أرجاء القبو صداه كصوت شارد سئم الكتمان.

- لكنه أصر على الرحيل.. قال إنها رحلة تجارة سوف تجلب لنا الخير الوفير.

هذه المرة تنبهت مليكة برأسها فأقامتها، لم تكن لترى وجهها، لكنها كانت تدرك أن هذا الصوت صوت ترافقه الدمعات. ولعل هذا ما أثار انتباهها، أن أسمى تبكي!

لقد ظنت أن وجه أسمى لا يعرف البكاء ولا يليق به، لكن الحقيقة أنه وجه عرف البكاء حتى ملَّه.

- كنت أشعر أنه لن يعود، ولم يفعل، كنت في ريعان شبابي إذ رحل، لي ولد أحمله بين يدي وآخر أحمله بين أحشائي، أردتها فتاة تحمل معي عبء الأيام التي طالت بعد رحيله، لكنه جاء ولدًا مثل أخيه، أحسن الأولاد، أسميته خويلدًا كما أسمى أبوه أخاه خالدًا، كبرا معًا، وصارا كالصبيان، صنوان لا يفترقان أبدًا، تحملنا قحط العيش في أرض الرماديين وجوع الليالي المظلمات ننتظر الغائب أن يعود.

وحين عادت القافلة إلى مهدها، لم يكن من بين العائدين، سألتهم، فقالوا إنه قد مرض مرضًا شديدًا في الأرض الغريبة أسكنه لحدًا بعيدًا!

مرت الأيام تسوق السنين، كبر الصبيان وصارا رجالًا، من خيرة الرجال، حتى جاءنا رجل غريب. قال إن زيدًا قبل موته أودعه ما جمع من مال وعهد إليه أن يعيده إلينا إذا مات، لكنه حين مات التهمه الطمع، وآثر المال لنفسه، حتى كسدت تجارته بعد عزها، وأدركته الشدة بعد اللين، فندم وعاد إلى الله تائبًا عازمًا على رد الأمانة إلى أصحابها.

مكث فينا ليلة ثم ترك لنا الكثير من المال ورحل، رحل وترك الأخوين يتقاتلان على ميراث أبيهما.

ثم أردفت تجهش بالبكاء: حتى نحرت السكين عنق خالد!

راحت تمسح عينيها بأكمامها المنسدلات بينما تراقبها مليكة في أسى.

– حفرت ذلك القبو، بمفردي، دفنت خالدًا تحت رماده وأودعت خويلدًا موضعك، وكلما سألني أحد عن أيهما، قلت رحلا إلى تجارة كأبيهما، ولم يعد منهما أحد، ومكث خويلد في مثل مكانك حتى مات ودفنته موضعه.

لست أدري كيف علم الرشيد بأمر القبو، لكنه عرف، كما كان يعرف الكثير من الأشياء.

شاردة تحرك جوف مليكة كأنه جان يهتز بينما تتابع أسمى:

– كانت توقظني الطرقات على الباب حين يأتي رسوله في جوف الليل ليخبرني إن مليكة مريضة، مليكة حالها كذا وكذا، ثم يرحل متخفيًا في دجى الليل.

تردى صدر أسمى بالأنين بينما تسابقت الدمعات في أعين مليكة طريقها إلى وجنتيها، يغمر كليهما الشرود في الخاطرة نفسها. كيف مرت كل تلك الأيام؟ كيف جميع من أحبتا ومن انتظرتا ومن كرهتا قد رحل، ولم يبقى لأسمى سوى مليكة، وليس لمليكة سوى أسمى.

تجلجل الصدر بالكثير مما يريد البوح به لكنه يخيب بالعجز، وكم مؤلم هو ذلك العجز، يطارد صاحبه حتى يستقر به الأمر بالبكاء، البوح بالغضب والخوف والأسى. بوح ضئيل مخزٍ لا يُزاح ولا يُذهب.

تأجج صدر أسمى باكية تقول: أنا خائفة!

قبل أن تندلع في رأسها من جديد الأصوات التي سمعتها لدى الباب تتداعى كما تتداعى على الجسد الحمى. وكما ارتجف صدر شاهد لدى قبر أبيه فَخَارَتْ له كل قواه عاكفًا عليه باليد والقلب، ما تبقى منهما! يفيض ببكاء لا تحتمله كل الأرض.

أخبرت مليكة عنها بصوت مرتجف بَكَّاء: تلك الأصوات.. أعرفها جيدًا.. إنها أصوات النهاية.. أصوات مدينة تحتضر.

نهاية رمقها بعينيه آخر من تبقى من جنود الاستطلاع لدى الخزائن، واقفًا بين لجج الدماء تتهاوى كفات عقله واحدة تلو الأخرى، لتغرق في بحر الدم عند قدميه.

الصيحات من حوله تربو وتتعالى مثل القمر لتدفعه نحو الجنون، وحوش تنهال من كل مكان، آفات كأنها تخرج من الأرض لتلتهم الجميع في مجون.

تتناثر الأكلات على الأرض تستغيث، تغمر وجوهها الدماء. دماء هرج يختلط فيها الأبيض بالأسود ليستحيلا معًا إلى لون الرماد الكئيب. ما عادت الصفوف صفوفًا أو الأسياف أسيافًا أو الحماة حماة.

الأسياف لا تنفع والصياح لا يفيد، كأنما لا يسمعه أحد، والقمر للمرة الأولى شوهد بارد وموحش وضئيل. اجتمع هدوؤه على وجه الأعور الكذاب يجول بالعرش في قاعة الحكم المظلمة يتحسسه كما تتحسس الأم رضيعها الذي ولدته بعد سني الدعاء، ثم يمسك بين مقبضيه ويجلس عليه منتشيًا بين الظلام المخيم على المكان.

ظلام بدده تقي بالمشعل في يده يجول السراديب حاملًا النور الوحيد تحت أرض خافير، التي تربع فوق رؤوس أهلها الانتظار يحيط بذراعيه الخاملتين ساحة جمعت أبدانًا مرهقة وأرواح مرتقبة افترشت بهمومها الأرض والأقطار.

بينما سار بين الأروقة مهاجر بالرعب والغضب والعجز، يهاجر به من رواق إلى رواق بحثًا بين الممرات عن ضوء خافت يمنحه الرب، ضوء يحمل الدفء بين برودة الأرجاء والإجابة بين أروقة التساؤلات.

برودة هجرت قبو أسمى التي سكنت أعناق مليكة من خلف القضبان في عناق يشتعل بلهيب بكاء شاركهم وحدتهم على الضوء الخافت المنبعث، بينما احترقت صدور البيوت الثاكلة برغم البكاء، تبكي الأم وأولادها فتاهما الضائع الذي عاد دونه أخوه أو زوجها الغائب الذي هجرها والنور معًا.

لا دفءَ يحل أو نور يقاد، في الأعين المغتمة المتكبدة بالألم والخوف أشباح بين الدروب تسير، وآفات تجول بأعتاب الديار تميل، ومناصب الطرقات وأبواب المدرسة والمسجد التي يحتمي فيهما التائه والسائل والمسكين، يجلس بين أركانها المستنيرة باكيًا من فقدٍ وما فقد وسائلًا عمن تردى في ربوع التيه خارجًا.

الخوف على الغلال بات خوفًا على النفس، والخوف على الحياة بات خوفًا منها، وربيع الشمس بات خريفًا موحشًا على ضفاف واد مخيف. ما حذر منه الأمس، وما أقبل به الليل، وما يحمل معه الضحى، هو ما وعدت الصحف وأشارت الرحمة، وتنبأ العرافون في كهوفهم.

موت مريع قادم إلى الجميع.. وبكاء مرير طال حتى الفجر!

***

تجمدت الدماء فجأة في عروق أسمى!

تفجر الخوف في وجهها تنظر في شرود رمقته مليكة على وجهها فتجهمت. نظرت موضع بصرها فإذا ببرودة شديدة تجتاح عروقها كأسمى.

لتشردا كلتاهما في خوف وتسكنان في ألم.

ترمقان الشمعة على الحاوية ترتجف شعلتها، تحتضر على سطحها..

تلفظ أنفاسًا أخيرة توشك بها على الانطفاء!

****

بلغ تقي نهاية السراديب..

تجمدت أقدامه في الأرض تكبح خطاه، وتجمدت دماؤه في عروقها تعيق أنفاسه، اتسعت عيناه محدقتان على ضوء المشعل الحبيس في يده ترمقان الجسد المكبل أمامه بالأصفاد.

وجهه الذي يعرفه جيدًا وجسده الذي رافقه طيلة يومه الأخير، بشحوبه الذي عاد به من الموت القديم، في زي أسود غريب بالٍ مصفد بالسلاسل والأغلال تمتد حتى الجدار.

ليتجهم وجه تقي رامقًا الرشيد على أرض السراديب يجلس جامدًا بلا حياة!

***

بينما عاد صوت الطرقات العنيفة على باب أسمى ما إن انطفأت الشمعة الوحيدة، كأنه صوت طرقات شياطين يملأ أسماع القبو..

تتشبث في ظلمة برداء مليكة المتوجسة خلف القضبان..

تسمع طرقات مرعبة، تلاها صوت أكثر رعبًا لتحطم الباب!

***

البوح الثالث عشر

الأنفاس الأخيرة

حبس مروان أنفاسه كأنما يخشى عليها من الخروج، موقنًا بموته المحتم إذا ما خرجت، موت طارده لساعات، كلما فر منه ازداد خطرًا وجنونًا، واشتعل غضبًا.

القصر بات فجأة حلبة هلاك قاسية، كأنما وقع في بئر بعيدة.

لا يعلم كم من الوقت قد مضى، أو كم بقي حتى بزوغ الشمس، لكنه يتمناها الآن أكثر من أي وقت مضى، يتمناها كما لم يتمنَّ شيئًا من قبل قط.

فيما تردد الجنون من حوله في جسد سليم يدور به في الرواق ممسكًا بسيفه الغارق في دماء جنود مروان وقد فقد السيطرة بأكملها يختنق بالغضب كما يختنق الرواق من حوله بالظلام.

إن سليم مولع بالصيد، ولسوف يصطاده حتى لو اختبأ في أشد الأروقة ظلامًا. راح يدور جنونًا كما تدور الرحى على حصاها. حصى جاء صوته مصداء من نهاية الرواق ينادي بالخوف:

– أراك قد أبحت دمي يا سليم!

خرجت كأنما يصيح بها صاحبها من وادي الهلاك ليتجاهلها مروان ولا يجيبها أو يكترث أن يفعل، فقط انهمك بتتبع مصدر الصوت.

لتتبعها أخرى أكثر جزعًا وخوفًا:

– دع عنك سيفك يا أخي! أستحلفك بالله أن تفعل، فما أمرتهم بقتلك وما كنت لآمرهم وبيننا دماء أبينا.

انفعل صائحًا في ختامها مثيرًا الغضب الكامن حوله بين الظلام ليصيح سليم فوق صياحه:

– أبونا الذي قتلت ما كان ليختارك من بيننا وقد عققت! وإنك لتعلم ألا نصيب لك فيما عهد أبونا حتى بدلته وأخفيته يا مروان واستأثرت بالحكم لنفسك!

– والله ما فعلت!

– كذبت، أين العهد يا مروان؟

أجابه في غضب:

– أقسمت إني لست من بدل العهد ولست من أخفاه! إنما أبوك قد فعل!

قالها فلم يجبه..

لا طائل من الحديث، إن سليم لا يريد عهدًا ولا شيئًا مما يقول، إنه لا يريد إلا الدماء. يعلم أنه إن قتل مروان قبل بزوغ الشمس فسيؤول إليه كل شيء.

مرت آلاف الصور من أمام عينيه في غضون برهة قبل أن يتحسس خنجره على خصره وقد فاض به كيل الهرب يئسًا. ساد بعض الصمت قبل أن تعود إجابة سليم الغائبة تقول:

- لن نريد العهد إذًا.

وهذه المرة كانت عن قرب!

فزع من قربه حتى خرج عن مخبأه مصطدمًا بسيفه الذي خرج بغتة من الظلمة وقد أشهر عن الموت علنًا. علنًا بحقيقة واحدة..

إن سليم قد جن، وجنونه يدفع كل شيء إلى الجنون!

***

أثارت رؤيته للرشيد من أمامه وابل من عظيم الارتباك، اندفع به إليه متفقدًا وجهه الجامد المتجهم، وجسده المتخشب الصلب. انتقل بارتباكه إلى الأغلال وراح يحاول نزعها، بدت تمتد داخل الجدار كأنها جزء من صخوره. تحرك في داخله شيء من الخوف انهمك به في منازعة الأغلال. بدا كل شيء من حوله كأنه يتحرك، لكن ما كان يتحرك بالفعل، كان شيئًا واحدًا من خلفه يدنو منه ويقترب..

***

هبت صِدِّيقة قيامًا في ذعر، لتقف في موضعها أمام حافة البئر.

ليرمقها الشيخ بين الجموع البعيدة فيهب واقفًا في مكانه كما فعلت قافزًا إلى قلبه ما قفز في قلبها. تقدم بخطوات مرتجفة إلى الأمام لاحظها الجميع فعاجلوا بالنهوض من بينهم مروان الذي تقدم واجسًا مشتعلًا في عينيه قلقهما الفريد كالنار في الهشيم. مراقبًا الشيخ وصديقة والبئر ومتسائلًا عما يدور.

***

بلغ حراء وجنوده الوجهة أخيرًا واصلين أبواب الخزائن.

خطوات أخيرة نحو الخزائن تقدم بها حراء على رؤوس الصفوف ممن معه من الجنود، خطوات يعلم يقينًا منذ خرج من القلعة أنها تقوده إلى معركة أكثر ما يعرفه عنها أنها لن تخلف الكثيرين من بعدها. خوف كالظلل في سماء العاصفة يغشاه للمرة الأولى، شهر به سيفه وألهب به السيوف من خلفه..

معركة أخيرة لم يكن وحده من أعد لها الجمع!

وعلى أبواب الخزائن، شهد الضوء الخافت من السماء التقاء الجمعان. وعلى قدر خوف حراء وغضبه وبأسه وجنون ما حوله كانت صيحته، عالية.. قاسية.. تُلهب الأسياف، عاتية تدوي في أنحاء العاصمة كافة!

***

بينما كان الموت يدور فوق رأس أسمى وقبوها، صوت تحركاتهم في كل مكان في البيت عاليًا يكاد يحبس الأنفاس في الصدور من الخوف. هل سيعثرون على القبو؟ هل أخفته من خلفها حين نزلته خائفة أم أنها نسيت؟

لا تعرف.. لا تتذكر.. لا تقوى على التقاط الأنفاس.

***

لم يكن وحده لدى قبر الرشيد..

اجتمعوا جميعًا حوله يرمقونه في لفهة، لقد أتى أخيرًا!

شاهدوه يدلف إلى ضريح القبر، ثم يعكف عليه ويبكي، راقبوه بقدر الشوق الذي انتظروه به، ومنذ الليلة لن يفارقوه، كما لم يفارقوا الضريح. لأنه الشاهد.. وهم كذلك.

شاهد الذي وقف بينهم يتنهد بالرعب منذ رآهم، يرمق به أذرعهم المنبسطة إليه من لدنه تتسع أعينه تحديقًا في كفوفهم الغائبة. سواعد دون أيدٍ وأفواه دون ألسن..

لأنه الشاهد.. وهم كذلك.

***

ارتجفت أسمى بعنف عظيم ما إن تأرجح الصوت لدى فوهة القبو ليعلن عن اكتشافهم وجوده!

بينما تجمد تمامًا تقي عن أي حراك كتجمد الأغلال التي أمسك بها بين يديه، تركها ووقف في مكانه مشدوهًا يحدق في رعب بين السراديب كأنما تتراقص فيها الشياطين من أمامه عراة. لم ينتبه إلا بعد فوات الأوان، حين كان ذلك الشيء الضخم قد أحاط به من كل جانب، رأسه أقصى اليمين وذنبه أقصى اليسرة، يحيطه والرشيد والأغلال والجدار وكل العالم في مرآه.

يتراقص ذنبه الضخم ويتلوى رأسه الكبير مصدرًا فحيحًا كفحيح الثعابين لكنه أعمق وأقوى وأكثر رعبًا من فمه الفتاك الذي يبدو قادرًا على التهام الصخور دون عناء وأرجله الضخمة البطيئة وجسده الممتد، وذنبه الثقيل يبعثون على الارتعاد والرجفة وتحسُّس السيف على الفور!

تحسَّس تقي السيف على خصره في وجس وقد أدركته النهمة التي حذر منها الشيخ. دوَّى فحيحها يموج في الهواء تتلوى به من أمام ناظريه تثير في نفسه رعبًا تصلبت به أطرافه قبل أن تتحرك به نازعة السيف من غمده ثم ملقية بالغمد الفارغ عن خصره هاويًا على الأرض!

كما هوت أبدان سليم ومروان على أرض الرواق يتبادلان النزاع. يجثو سليم على مروان يصارعان كلاهما موت أحدهما الآخر، كلاهما في يده نصل يضع حياة الآخر على كفات ميزان بالٍ تعلو تارة بغتة، وتخر أخرى فجأة. صراع كابوسي نشب بين الظلمة يتجاذب كلاهما الغلبة تشبثا برؤية النور.

النور الذي تلألأ به سيف الخلاص في يد تقي، يركض نحو النهمة بينما انقشع من أعين الجنود عند الخزائن، تتهاوى أسيافهم على الرقاب تدور تنزع الأرواح نزعًا، تارة دونهم وتارة من بينهم، لتتفجر دماء كالأمواج في كل مكان تعلو الأسياف مرة والأعناق مرة وتغمر الأرض كل مرة.

تنصب وتنهال من كل وادٍ، تصرخ بالغضب والألم وتختنق بالهلاك يتردد أصداؤها بحلق حراء يصيح صراخًا فيما حوله. صراخًا انقطع في حلق مليكة خلف قضبان أسرها، واحتبس في صدر أسمى يدمر كل

شيء فيه. بينما يرمق شاهد ما حوله في جنون يحيطه ملازمو الضريح من كل مكان من حوله يتدافعون عليه بالصدمة كأن أرضًا تدور به وبهم وبالضريح وبالعاصمة.

أرض أخذت تنقلب تحت أقدام الجنود تتمايل سماؤها وأرضها بأطراف الآفات المقبلة، ورؤوسها الباسمة المفزعة كشياطين تتمايل في حفل ماجن.

حفل يدب صخبه في جسد النهمة تصارع نصل السيف، لا يثير لديها شيء من الخوف إلا غضب أخذت تطلق له العنان حتى بدت السراديب كأنها تهتز اهتزازًا عنيفًا أصاب جدران قلب تقي الملوح بالسيف كما أصاب جدران السراديب. إنه ليس مقاتلًا أو مبارزًا بالسيف، لطالما كانت معاركه بين أروقة الكتب وجدران الحبارات ليس وحشًا في سراديب خافير.

لكن شيئًا ما كان يدفعه لغضب المقاومة، شيء يترنح بين غريزة البقاء ورغبة الخلاص تلوحان أعلى صورة الرشيد المتجهم المكبل بالأصفاد.

نيران الحريق العظيم، وآلام البكائين، وبكاء الفجر الطويل، وأرضه التي على شفا حفرة الهلاك. شيء واحد جمع كل تلك الأشياء، وطاح بها وبه وبغضبه وسيفه إلى الجدار حين سُدِّدت إليه النهمة ضربة بذنبها أردته إليه!

اصطدم بالجدار بعنف كأنما سقط من أعلى جبل حتى ظن أن عظامه كادت تتهشم وينفجر رأسه بالدماء على الجدار. لكنه ارتد إلى الأرض هاويًا في مكانه إلى جوار السيف. رفع رأسًا يهيم بدوار عنيف يرمق النهمة تموج بغضبها وفحيحها في كل صوب وقد بدأ يتسلل إليه شعور بالضعف والخواء واليأس أمام وحش يمتلئ بالقوة. وإن كان تقي لا أمل له في النجاة باعًا فلحراء مائة، ولمروان ألف باع.

صوت صليل السيوف وانقطاع الحلوق، واكتتام أنفاس الاحتضار يخالطهم صوت التهام مخيف ومثير للغضب والجنون. المكان من حول حراء يقتضب بالدماء والظلمة وضباب الفناء، حتى بدت الخزائن أرض القتال ككأس ضيقة خانقة، والمدينة من حوله كأطراف أحلام بعيدة المنال، وأرض صعبة البلوغ.

كل الاحتمالات المفزعة تجول في خاطره فتدفعه دفعًا نحو جنون بات كل شيء يتدافع سقوطًا عن حافته. كما تدافع نصل مروان على حافة رقاب سليم محدقين إلى بعضهما بعضًا بعينين مهمومتين، لا شيء يثير الخوف مثلهما قط!

أعين تصرخ بالقسوة والجنون كأعين تحترق فيها المياه. قبل لحظة واحدة من حركة خاطفة لسليم قلبت الكفات رأسًا على عقب، أطاحت بخنجر مروان بعيدًا في الظلام كل البعد عن المنال!

بينما أحكمت يد تقي القبض على سيف الخلاص إلى جواره، ثم صارخًا قام به عن الأرض في مثل طغيان النهمة أو يزيد.

ركض نحوها ركضًا بدا كأن أقدامه تلتهم فيها الأرض، أثار شيء من الخوف لدى النهمة حتى تباعدت يسيرًا قبل أن يقفز إليها دابًّا السيف في عنقها دبة خاطفة توقف بها فحيحها على الفور!

سقطت على الأرض نهمة خامدة وجثة راقدة بلا حراك، ليجثم تقي على الأرض يتدارك بعض الأنفاس..

تأمل الهدوء الذي عاد من حوله، ثم هلع إلى الرشيد والأصفاد. ذهب إلى الجدار وحاول نزعها فإذا بالأغلال تخرج عنه وتتحرك عقب موت النهمة كأنها تنسال من بين الصخور، راح ينزعها بكل ما أُوتي من قوة يسحبها بسرعة لم يضاهيها إلا طول الأغلال في الجدار وقد بدت تمتد إلى لا نهاية!

بينما من خلفه تبدل رأس النهمة إلى رأس جديد، وجسدها إلى هيئة مغايرة، هُويَّة أخرى جديدة أكبر حجمًا هذه المرة وأشد فتكًا.. حية سوداء ضخمة التف رأسها نحوه، ودار إليه في غضب يبتغيه!

تمسكت صِدِّيقة بحافة البئر بأصابع كأنها جذور الشجر، رفعت رأسها عاليًا نحو السماء وأطلقت إلى العنان صرخة عاتية كأنها نار مندلعة! جمعت حولها الجميع يتزاحمون على حافة البئر وقد أدركوا ما بلغ المخلص وتقي من الخطر.. يحذرون تقيًّا ويحاذون البئر.. يؤازرون صديقة ويجهشون بالبكاء!

بكاء أخذت تهيج به أسمى تكاد تخلع به قلب مليكة من فرط بكائها وتشبثها بها من خلف القضبان. أخذت تبحث على صدرها عن قلادتها تبحث المفتاح لتدخل إلى قضبان مليكة فتحميها كما تحمي مليكة بينما تزداد الأصوات عاليًا صخبًا واقترابًا. مفتاح ما إن نزعته بارتباكها حتى سقط على الأرض وابتلعه الظلام!

***

دار حراء صارخًا بالجنون، وقد سقط الكثيرون ولم يبق صامد إلا القليل من حوله، حقيقة واحدة تطارد ناظريه أينما وقعا، حقيقة أن لا ليل سوف ينتهي هنا.. ولا ظلام سوف ينقشع ولا نهار سوف يطلع من جديد. حقيقة شرد بها للحظة انقضت عليه فيها إحداهن فاغرة عينيها وفاها.

ثم بدأ كل شيء يفقد الاتزان!

العالم يترنح كأنما تغمره المياه من كل جانب، يتصارع مروان على الأرض تحت وطأة سليم لا يرى في الظلام إلا سيفه أينما نظر، بينما غاب عن يده خنجره البعيد. نزاعًا خاصه حراء بعينه يدفع الآفة الجاثمة عليه بكل ما أوتي من قوة، بعقل غاب عنه الوعي في ظلام الخوف بين جنباته. يتشبثون جميعًا بالحياة، بينما تشبث تقي بالغلال يسحبها وما أوتي منها، تشبث صديقة الباكية بالبئر حتى أشرفت على السقوط في غياهبه التي دوت فيها أصوات البكاء تريد النهاية.. النهاية قبل فوات الأوان!

الأوان الذي وضعته الحية المتقدمة تزحف أرض السراديب نحو تقي الأعزل وسيفه الملقى بعيدًا يناديه بالفرار، بينما ينادي هو بالمزيد من الأصفاد المتغلغلة في الجدار. وبينما يجلس الرشيد جامدًا بلا حراك وتتقدم الحية زاحفة، أخذت المياه تنهمر من كل صوب بالفعل!

تخرج من كل الجدران تطفئ المشاعل وتجلب الظلام وتغمر السراديب بالمياه.

الجميع يتشبث، الجميع يصيح في غضب، الجميع مختنقًا قد سئم الظلام!

حينها أقدمت الآفة الجاثمة فوق صدر حراء على ضربة خاطفة هشمت بها ذراعه وأطاحت بسيفه بعيدًا، في اللحظة التي اقترب فيها نصل سليم من رقاب مروان يهدد بالذبح يقاومه كأنه شيطان يركض منه مهاجر من رواق إلى رواق، وأنياب الآفات وجهًا إلى وجه أمام درجات قبو أسمى تتبسم في نهم!

رعب وغضب وتشبث جمعهم تقي في قبضتيه كاتمًا أنفاسه وصارخًا يسحب الأصفاد بكل ما أوتي من قوة حين بلغت جذعه من الخلف رأس الحية وقد أخذ يرتفع من خلفه!

وقبل أن يرفع سليم سيفه إلى الهواء دفعة واحدة رافعًا ذراعه عاليًا مبتعدًا بالنصل عن رقبة مروان في حركة خاطفة خرت بها مقاومته بغتة واتسعت لها أعين الذهول بينما يراه يتأهب للزج بالسيف في رقبته بلغت أنياب الآفة رقبة حراء ليغمض عينيه يقينًا بأنه بات في عداد الموتى لا محالة في لحظة صاحت فيها أسمى ذعرًا في ظلام القبو صيحة أظلم بها كل شيء وأفل أفول الختام!

***

سكن كل شيء في هدوء مباغت.. ثم ارتجف في ارتجاف أكثر مباغتة!

تزلزلت الأرض فارتجف خافير وارتجت أرجاء العاصمة. البيوت والقصور والقلاع والخزائن، ترنحت كل الأجساد وارتعدت الأقدام وسقطت القلوب. ثم سكن كل شيء من جديد!

فتح تقي ببطء عينين أغلقهما ليجد الرؤية من أمامه مشوشة غير واضحة، لا يرى إلا ظلالًا تتحرك من حوله، مد إليها يده يتبينها لكنه لم يدركها كأنها سراب، لم يدرك إلا يده ترتطم بقوة بأرض السراديب هاوية إلى جواره.

ثم هالة من الدفء تحيط به قبل أن تنعدم الرؤية كاملة!

هالة بلغت حراء ليفتح على إثرها عينيه المغمضتين ليجد أمامه فراغًا تحيطه غيوم السماء ومن حوله هدوء غريب. استغرق لحظات حتى أدرك الأمر.

لقد ذهب كل شيء كأنه ضباب وانقشع!

استجمع قواه متألمًا حتى وقف في مكانه مرتبكَ الحركة، مضطرب الأقدام ممسكًا بذراعه المهشم يتأمل الجيف المترامية من حوله، والعدد المحدود من الجنود ممن لا يزالون ينبضون بالحياة تحت ثوب الدماء الطاغي على أجسادهم يتلفتون في تعب وعجب واضطراب تام.

اتخذ بضع خطوات يخشى السقوط قبل أن يدرك في النهاية أنه لا يقوى حتى على الوقوف ليهوي على ركبته ثم ساقطًا برأسه على الأرض رامقًا الأفق.

***

رفعت مليكة رأسها وقد انقطع صوت كل شيء في أذنها. الحركة المرعبة خارجًا، والأقدام على سقف القبو، وبكاء أسمى!

تخطف النور الذي عاد إلى قنديلها ببصرها قبل أن تعاجل بالنظر إلى أسمى ثم سرعان ما دبت في عروقها الرهبة فور أن شهدتها وقد حدثتها نفسها بأمر سوء. مدت يدًا تقشعر وترتجف من بين القضبان تهزها برفق فإذا بها لا تستجيب. أعادت الكرة دون استجابة. هزتها برفق مرة، وبقسوة مرة، وبعنف أخرى فإذا بيدها على صدرها تطيح على الأرض ثم يلحق بها بدنها هاويًا!

لقد ماتت أسمى بخوفها!

أطلقت صرخة عاتية زاحمت حروف الرعب في حلقها تصطدم بجدران القبو. وما أوتيت إلا الرعب يظلم على قلبها المنفطر الوحيد الواهن.. يفتك بما تبقى منه..

***

قطعًا ذلك لا يحدث.. محال أن يكون قد جُنَّ!

ابتعد الجميع عن شاهد رعبًا بينما تسمر هو في مكانه جامدًا بلا حراك، تتسع عيناه محدقة في ذهول كأنهما ستخرجان عن تجاويفهما. لا يساوره شك في أن ما يراه ليس بحقيقة.

قطعًا إن ذلك لا يحدث.. محال أن تعود الدماء.

لا يتهشم قبر من تلقاء نفسه، ويخرج منه صاحبه!

إنه بالفعل قد جن!

لحظة باردة فقد فيها شاهد آخر ما تبقى من عقله، ارتسمت على وجهه ابتسامة واسعة، لم تعد تشي بالحزن، أو بالألم، أو الحنين أو الانتشاء أو الغضب.

لا تشي إلا بالجنون التام، والاختلال الكامل!

بينما خارجًا اجتمعت الأقدام بعد الشتات تتكاتل خلف الأبواب المؤصدة والحواجز المانعة والنوافذ المغمضة، بعد أن اهتزت الأرض وردت الحياة إلى المشاعل. فُتحت الأبواب في تساؤل، وتقدمت الخطوات بين الطرقات في حذر، تتبادل الأنظار البكماء والأعين المرتبكة والأنفاس العالقة، تدور في صمت رهيب!

لماذا سكت كل شيء فجأة؟

***

عاد صوت احتراق المشاعل إلى أذنيه، لا تزال صورة سليم رافعًا سيفه إلى الهواء آخر ما أغمض عليه عينيه تلازم مخيلته، ظن أنه ميت لا محالة لكن شيئًا لم يحدث.. أو أن شيئًا غير مفهوم قد حدث!

فتح عينيه فإذا بالنور قد عاد إلى الرواق، وأمكنه الشعور بدماء تلطخ وجهه وجبينه. وقع في قلبه بأس جلل. اتضحت به الصورة أمامه بعد لحظات، دقق النظر جيدًا فإذا بالذي وقع في قلبه يقبع أمام ناظريه.

عن اليسار يقف مهاجر يحدق إلى شيء ما على الأرض مذهولًا كالمجنون في يده خنجر قد تلوث بالدماء. بينما على اليمين موضع تحديقه به جثمان سليم يرقد على الأرض غارقًا في الدماء ذاتها التي لطخت جبينه ولوثت خنجر مهاجر. الخنجر الذي لم يلبث أن ارتجف وسقط على الأرض!

ومرتعدًا على الأرض مروان تراجع محدقًا إلى مرآه في سكون مهيب غشى مهاجر المذهول وغمر الرواق بأكمله. مختنق بالصدمة والصمت ودوِيُّ الأنفاس يتخلص مما بقي لديه من الخوف.

مرت لحظات ثقيلة من صمت رهيب تتردد فيه الكلمات في جوف مهاجر تأبى الخروج. جاهد إخراجها، فخرجت متقطعة محترقة:

- لقد أفسدت كل شيء!

التفت إليه مروان ببطء بوجه متعرق يتحاشى النظر ولا يجد منه ملاذًا. اختنقت بعض الكلمات في صدره ولم تخرج..

ثم تتابعت خروجًا من حلقه في كمد:

- الرشيد.. شاهد.. بدور.. وسليم!

ثم تبدلت التعابير في وجهه إلى شيء من الجنون:

- أنت تريد قتلنا جميعًا!

قالها ليتخطف بها الذعر وجه مروان..

تجمد بصره به يتحرك ببطء ملتقطًا خنجره من الأرض مردِّدًا: أنت سوف تقتلنا جميعًا!

عاد الرعب يدب في مروان من جديد يبتعد عنه مرتعدًا بينما يتقدم إليه مهاجر مردِّدًا في أسى رعب جنَّ به جنونه هذا المرة. اصطدمت يده بخنجره على الأرض، ليأخذه على الفور ويثور به في أحشاء مهاجر!

أخذت الدماء تتدفق من أحشاء مهاجر قبل أن يتهاوى بها ساقطًا على الأرض في أنين مكتوم.

صاح به حنقًا:

- صهٍ أيها الغبي!

ثم مستشيطًا بالغضب:

- ما كنت أريد أن أقتل أحدًا!

ثارت كل خلية حية فيه مكررًا طعنه من جديد، طعنة تلو طعنة تلو أخرى حتى تناثرت الدماء في كل مكان، على وجهه الذاعر الغاضب، على يديه وملابسه، وعلى الأرض والجدران.

تصيح مثل صياحه: ما كنت أريد لأحد أن يموت!

حتى انقطعت أنفاس مهاجر بعد أنفاس أخيرة تنفسها في ذعر لتجتاح جسد مروان برودة قارصة رامقًا الجيفتين من حوله في رعب.

عاد وعيه إليه فجأة مدركًا النور، النور الذي كشف عن رعب المكان من حوله.

ثارت ثائرته من جديد يدور طعنًا بجيفتي مهاجر ومروان صائحًا بكل غضب الأرض:

- ما كنت أريد أن أقتل أحدًا!

حتى غرسه في مرة بكل قوته ولم يقدر نزعه من جديد.

تمتم ببضع كلمات غير مفهومة كأنها خرجت رغمًا عنه، تحدث ببعضها جليًّا فقال: لقد كنت أحميكم!

ارتفع حاجباه..

- كنت أنتزع لكم الحق!

ارتعش فمه ووجهه وارتجفت كلمته..

- القوة!

حدق بعينيه متجهمًا..

- النور!

ثم جالسًا مكانه في صمت، شعر كأنه سقط في واد عميق مظلم برغم ما يحيط به من نور. وادٍ لا مفر منه ولا خروج.

جاهد الوقوف فيه وراح ينادي في أرجائه ويغلو في النداء:

- أبي!

ينادي في الرواق ولا يسمع نداءه أحد. سار بضع خطوات متلعثمة لم يلبث أن تعثر فيها وخر مُكِبًّا على وجهه.

قام من جديد وعاد يتابع النداء غضبًا: أبي!

يتوسل ثم يغضب ثم يثور ثم يعود للتوسل من جديد!

يسير من مشعل إلى مشعل تاركًا بيديه دماء مهاجر وسليم على الجدران حتى دلف إلى ممر عن اليسار طويل. ممر نظر نهايته فإذا به الأعور المحتال عند آخره واقفًا دون حراك بينما يعلو وجهه غضبًا جمًّا انعكس عليه ضوء المشعل إلى جواره.

أخذت وحشة تغمره في داخله كأنه خواء المكان بأكمله انتقل إلى صدره. ثم أخذته خطى شاردة متخبطة سرعان ما توقفت وقد أدركها شعور غريب.. شعور بدا مصدره من خلفه.

تجمد في مكانه للحظات كأنما يخشى الالتفات، قبل أن يلتفت ببطء ليتجهم وجهه من فرط الذهول!

إنه يقف مباشرة في وجهه، بقميصه الأبيض وثيابه التي سجي بها إلى مثواه، يرمقه بالوجه ذاته والأنظار ذاتها كأنما لم تمر ساعة واحدة منذ آخر مرة رآه فيها.

الرشيد بعينه خرج من قبره ويقف عند النهاية المقابلة للأعور في الممر. توسطهما بجسد يرتجف بالهزات كأنها الساعة.

لتسود هالة من الصمت المهيب جمعت ثلاثتهم في ممر واحد وجهًا إلى وجه!

***

انطلق الفجر البازغ في أفق السماء يمنح الساحة زرقة هادئة، ونورًا ممتدًا خافتًا، اجتمع عليه الخافيريون أمام صِدِّيقة التي تَمَلَّكَ منها الوصب حتى هوت عند حافة البئر وقد غادرها بعد طول عهدها به أنين صدرها وبكائها المرير.

استدارت عن البئر وأسندت جذعها إلى الحافة قبل أن يترنح رأسها يسيرًا أمام حركة الجمع البطيئة من حولها. تنهدت تنهيدة أخيرة سكنت بعدها تمامًا عن الحراك وشيئًا فشيئًا تحجرت أطرافها ثم جذعها ورأسها لتتحول بالكامل إلى صخرة التصقت بجدار الحافة متشبثة بأكفها عليه. حافة كانت حفنة من الصخور غريبة الشكل، كأنها مجموعة من الحراس يحيطون بفوهة البئر في دائرة تتطلع في شرود إلى خافير.

تراص الجميع أمام صديقة المتحجرة يتوسطهم الشيخ المدمع في رفق، والهائم في لين تجتذب أطراف ردائه بأناملها الفتاة الحانية تعلوها ابتسامة كأنها إشراق الشمس البعيد أشرقت على وجه مروان فأنار بها وأضاء. وعن أيمانهم وشمائلهم ومن حولهم اجتمع الجميع وتآزر متواسيًا بالاقتراب ثم الالتحام ثم السكون.

في مشهد أزرق، يلقون إلى صديقة وداعها الأخير!

***

قبو أسمى ..

تصلبت صهارة شمعة الليل الوحيدة على سطح حاويتها في برودة رقد بها إلى جوارها جثمان أسمى.

ومن خلفها السجن، سجن فارغ قد خوى من مليكة أو غيرها!

في بابه المفتوح مفتاح حر..

وبينما غابت مليكة، وُجد في الركن البعيد رداء الرشيد الذي كان قد تركه حين أتى قبل ثلاثين يومًا.

رداء ظهر على الضوء الأخير يحمل بين دفتيه عهدًا أُخفي بذكاء، بحث عنه البعض كثيرًا لثلاثين يومًا كاملًا.

عهد ذكر فيه اسم أحد أبناء الرشيد لا يزال -على الأرجح- على قيد الحياة.

****

البوح الرابع عشر

العهد القديم

أشرقت الأرض بنور شمس قطعت أواصل الظلمة.

الجو دافئ، بل إنه حار، شديد الحرارة..

لا يدرك أين هو الآن بالتحديد، الشمس تسقط على عينيه، وملمس الرمال الساخنة كأنها تشتعل يخترق جسده، ورائحتها تغمر صدره اليابس. ذلك الشعور بالعطش والحرارة، إنها رائحة الصحراء.

فتح عينيه فور أن تسلل الوعي إليه رويدًا، لينظر حوله فإذا به نور الصبح يكسو صحراء الخيزران برمالها البيضاء اللامعة تحت لفيح الشمس.

تحسس خصره؛ فإذا به دون خنجر أو غيره.

لا يتذكر ما الذي حدث ليلة البارحة بالضبط؟ كيف خرج من السراديب؟ ومتى سار حتى بلغ هنا؟ وكم بَعُد عن خافير؟ لا بد أنه سقط مغشيًّا عليه من التعب، لا يدري أين دابته ومتاعه اللذين تركهما على أبواب خافير. والأهم من ذلك، لا يدري ما الذي عليه فعله الآن. مكث في موضعه للحظات مفكرًا يحاول أن يتحاشى النظر إلى الشمس لكنها توجد أينما فر منها.

حتى بدأ ظل كبير ضخم يتحرك نحوه يتوسط قرص الشمس.

ظل يتضاخم أكثر كلما اقترب منه، يشبه جيفة ضخمة محترقة كأنها سقطت من الشمس، من هذا الذي قد يأتي إلى صحراء الخيزران؟

اقترب حتى كاد أن يحجب الظل الشمس بالكلية، اتضح شيء من ملامحه، فإذا بها غليظة كالجبل، عنيفة كجدول المياه المضطرب، ملامح صرخت في وجهه بهوية مفزعة!

إنه أشهر مرتزق يتقفى الأثر في كل العاصمة. ابن الغربي! إنه ابن الغربي بلا شك.

وفجأة خرج من الظل الكبير ظل أصغر له نهاية مدببة، بدا وجهها البعيد المواجه للشمس يلتمع تحت نورها!

تمكن من اللوذ من نصله في اللحظة الأخيرة ملقيًا بجسده بعيدًا في حركة سريعة نجا بها من اختراق السيف جسده. اندلعت آلاف الأشياء تتزاحم في رأسه فجأة، كان أولها: ما الذي يحدث؟ وثانيها: كان لماذا؟ وثالثا: تلك الأعجوبة لن تنجيه كل مرة! ثم سرعان ما زاحمتهم الرابعة: أن ماذا عليه فعله الآن؟

لتطيح بهم جميعًا أُخراهم، إنه قطعًا ميت لا محالة!

قام على الفور وراح يركض هلعًا دون التفات، لا يرى لقدمه موضع ولا يهتم لطريقه وجهة، الفرار ولا شيء إلا الفرار. بينما ابن الغربي من خلفه يتبعه، يركض كما يركض ويلهث كما يلهث، ويتوق لقتله

توقه للنجاة.

لا بد وأنه قد تبعه خروجًا من العاصمة، وعبر من خلفه النهر، لكنه خشي دخول خافير وانتظر على أبوابها حتى الصباح لقبض روحه. لا بد أن أحد الأمراء من أرسله في إثره. لقد ظن أنه فَرَّ قبل فوات الأوان.

لكن لماذا قتله؟ أليس من المفترض أن يعود به إلى العاصمة أسيرًا مقيدًا بالأغلال؟ لماذا يأمره بقتله هنا بمثل هذه الطريقة القاسية؟ وحيدًا في صحراء الخيزران.

أما ابن الغربي، فقد جاهد لحاقًا به بين الربوع لا يرى إلا الشمس والرمال ووجه مروان، يأمره بنسيان ما أمره به سليم بشأن تقي الدين الخازندار وقتله أينما وجده!

ركض تقي حتى التعب، حتى تملك الجهد من جسده وباتت الخطوة الواحدة حرب ضارية يخوضها أمامه، وأدرك في النهاية ألا خلاص في الفرار.

بدت الصحراء من أمامه كأنها فرار لا ينتهي أو موت يمتد في كل اتجاه. تباطأت أقدامه بعد تسارعها حتى توقفت تمامًا ملتفة نحو المطارد المقبل إليه بالسيف والقوة والشراهة. استجمع ما بقي من قواه، لينتصب بجذعه أمام بِنْيَةِ ابن الغربي الضخمة بينما احتدت الشمس كأنها تزاحمهم في أمرهم حتى بدت الأرض كلها كأنها قطعة من جمر تحترق في جذور اللهب. الظلال جميعها اختفت والرفق صار صديقًا أحمق يجر إلى المهالك، والعالم بأكمله بدا كأنه لم يعد به مكان للين أو لشفقة.

كان عليه أن يبادر بالحركة الأولى كونه الأضعف والأهوى والمجرد عن القوة، فشرع يسدد إليه ضربة يتحاشى بها السيف في يده الملتمع كعدو خبيث، هادئ لكنه لا يرحم. حركة تخاذلت في هوان وضربة لم تجدِ نفعها؛ فباءت بالفشل، حين ردها ابن الغربي عن نفسه بدفعة قوية تقهقر بها تقي إلى الخلف وهوى أرضًا على الرمال.

رمال رددت في مسامعه ما إن بلغها بانعدام فرصه للنجاة، وصاحت صحراؤها عاليًا تدوي بترحاب ربوعها لجيفته مثوى لها.

رأى النهاية بين تلك الحبات البيضاء نصب عينيه المنكب عليها وجهه، وشعر بها تلامسه في الحرارة المنبعثة من الرمال. نهاية غير مرتبة، لم يحبها ولم يكن شغوفًا بها يومًا، لكنها تفرض نفسها كقاطع طريق باغٍ. لحظة تملك فيها منه كل شيء أسود، مخزٍ وسرمدي، حتى لم يعد يقوى على الحراك. ارتفع فيها سيف ابن الغربي عاليًا نحو السماء تأهبًا لطعنه بكل قوة!

بعض النهايات قد تكون غير عادلة، لكنها لن تخلو من الحكمة أبدًا.

هوى السيف..

هوى ليجد تقيًّا قد تحاشاه في اللحظة الأخيرة!

ويجد العدل كَامِنًا بين حبات الرمال التي احتجزت السيف فيما بينها، فأبت خروجه لوهلة صرخت فيها حبات أخر في وجه ابن الغربي نثرها تقي، واستقرت في عينيه، ثم تبعه بضربات قوية في قدميه

أفقدتهما اتزانهما.

اشتعلت القوى في جسده اشتعال الحر في الصحراء فقام عن الأرض قافزًا فوقه قبل أن يتمكن من انتزاع السيف. لينشب بينهما عراك مضطرب تنازعت فيه قواهما، انهمك فيه تقي يريد خنقه بكل ما وجد في بدنه من قوة، لكنه يعلم أن ابن الغربي يفوقه قوة مئات المرات وأن الأمر لن يستغرق دقائق حتى تشتعل غريزة البقاء في جسده كما اشتعلت فيه من قبله ليرديه عن صدره أرضًا، ثم قتيلًا على الرمال بلا شك.

دقائق عليه الإسراع فيها نحو السيف المنغمس في الرمال، سبيل نجاته الملتمع ببريق الحياة والموت معًا كعدوان متناحران يجتمعان معًا على طاولة واحدة. لكن العراك كان يأخذهما بعيدًا، ينقلب بعضهما فوق بعض تتأرجح بينهما كفوف الغلبة وتترنح بهما ميادين القتال.

وفي خضم هذا العراك لم يبد السيف هو سبيل نجاته الوحيد، إذ ثمة نجاة أخرى نسجت على هيئة عمامة ابن الغربي التي تفككت ليهبط بها تقي على رقبته ويحكم قبضته عليها، قبضة محكمة الخنق بدت لا فرار منها لابن الغربي. لكنها نجاة تلاشت كالسراب حين اشتعلت غريزة البقاء في جسده ليسدي بها إليه ضربة أطاحته بعيدًا تسيل الدماء من وجهه.

زحف خطوات سريعة على الأرض متأذيًا بينما انهمك ابن الغربي يتدارك أنفاسه الحبيسة وعينيه المزدحمتين بالرمال مستغرقًا القليل من الوقت قبل أن يدرك موضعه من القتال ويدرك معه أن تقيًّا يسبقه إلى السيف!

نازع كل آلام العراك وأثقاله في جسده وأسرع إلى تقي يلاحقه يستبقان السيف رائيًا في ردائه المسرع إلى السيف من أمامه ألواح نهاية تتلوها عليه الشمس تصطدم بها خطواته المرتبكة فتضطرب.

خطوات تنازعه حقيقة أنها قد تكون الأخيرة إذا لم يلحق به ويسبقه إلى السيف الذي كلما اقترب منه تقي اقتربت إلى عينيه فاجعة مقيتة.

صمت رهيب خيم على المكان من حولهما كأنه ينذر بهبوب عاصفة، والرمال تحت أقدامه كأنها تعرقله..

عاصفة دارت بربوع رأسه محدثة دوارًا عنيفًا فور أن رأى تقيًّا يبلغ السيف وهو على بعد خطوات منه، لتمتد يده في ثوبه مقبلة بخنجر عظيم ركض به بسرعة جنونية نحو تقي الذي التفت إليه فجأة بوجه يموج بالذعر وأطراف لم يدرك بصره أكانت تحمل شيئًا أم لا تحمل؟ قبل أن يتصادما في لحظة خاطفة!

وهلة لم يدرك فيها أي منهما إلا ارتطامًا عنيفًا بالأرض أظلم به نور الشمس!

***

كانت الأعين التي تحركت هي أعين تقي، تفتحت لتبصر جسد ابن الغربي الضخم هاويًا على بدنه تنهمر بين أثوابهما الدماء بعد أن اخترق السيف جذعه، لا تزال به بقايا أنفاس تختنق لصدر يحتضر

بسكراته. أقامه عن جسده بصعوبة بالغة أزاحه بها من فوقه؛ ليسقط إلى جواره مصارعًا الموت.

لحظات مهيبة تلوى بها ابن الغربي على الرمال، أمام ناظريه يرتعد جسده بالخوف بينما تنفجر الدماء من أحشائه، تذهبان أكفه وتغدو، تريد وقف ذلك السيل من الدماء لكنه خائف مضطرب تائه كأنه فقد السبيل إلى موضع السيف من بطنه. ألم شديد غزاه فور أن انقلب على ظهره ولامس السيف الأرض ليتحرك بداخله فيطلق منه آهات مخيفة واهنة رمقها تقي في مهابة.

لحظات مقبضة ثقيلة مرت في غير هوان حتى انقضت الساعة، وسكن الجسد وقد فارقته الروح.

بضع سويعات مرت دون حراك. جلس فيها تقي متجهمًا كوثن قديم، حتى امتدت أخيرًا يداه الواهنتان الملطختان بالدماء تنغمس بين الرمال تزيحها، يرتقي غبارها إلى وجهه الدامي وعينيه المجهدتين المجتمع فيهما الحزن والشقاء والجهد والمهابة لتغمرهما كأنه يردمهما بما يحفر.

أتم حفر اللحد ثم نزع السيف من جيفة ابن الغربي قبل أن يجرها إليه في وصب، ويلقي بها فيما حفر ثم يعود رادمًا له من جديد.

فرغ من دفنه وقام محملًا بالغبار والثياب الباهتة بالدماء والرمال وجسدًا متعبًا تترنح أقدامه كأنها تهوي في كل خطوة يسير نحو الشمس، يتكبد العطش والجوع والألم أقدامًا تلو أقدام، يتيه لمسافة بعيدة حتى ظن أنه قد فر من هلاك إلى هلاك.

وحين ضاقت عليه الأرض بما رحبت واختنقت أنفاسه باليأس في صدره والجهد في جسده، ظهر ظل بعيد لدابة معقود رباطها مثقلة بالأحمال.

تكبد عناء بلوغها ممنيًا نفسه بالماء والزاد والراحة حتى فعل. عبث بما تحمل حتى أسقطه أرضًا ثم عكف يشرب قربة الماء حتى أفرغها وأكل ناهمًا كل ما ألفت نفسه من الطعام والثمار وما لم تألفه.

كان من اليسير أن يدرك أنها دابة ابن الغربي في السفر، تحمل القوت والسلاح والذهب وبضع ثمرات. دابة حل رباطها ثم ركبها وراح يقودها في الربوع منهكًا شاقًا طريق الشمس، ثم مكبًّا على وجهه عليها راح يسلك السبيل نحو النهر.

نحو العودة.. إلى العاصمة.

***

مرت الأيام بعد عبوره النهر يتوق وصولًا إلى أرض الأمصار، شوقًا إلى أخبار العاصمة، وسعيًا لتجديد المؤن. وصل ليجد الجميع يتناول النبأ العظيم، نبأ عودة الرشيد إلى الحياة من جديد. في تلك الليلة الطويلة المظلمة وما سبقها من أحداث مفزعة حول مصير الأبناء الأربعة وما يحيط به من غموض رواه كل منهم رواية مختلفة. عن تلك المرأة المجهولة التي قلب الرشيد العاصمة رأسًا على عقب، بحثًا عنها منذ عاد. وكما هو الحال دائمًا كان هنالك تلك الطائفة المفرِطة المؤوِّلة التي تصرف الأمور إلى غير ظاهرها عادة، وتلك المفرطة المغالية التي تختلق التفاصيل دومًا.

وتمر الأيام وتتبدل الأمصار وتتغير الحكايات، كلما اقترب أكثر من العاصمة سمع حكاية أخرى لما حدث تلك الليلة ذات حقيقة مغايرة تقترب أكثر مما وقع بالفعل، حتى كان على مشارف وصوله العاصمة، عرف من الناس أن الرشيد لم يبرح قصره منذ خرجه، يعتزل فيه الناس كافة في انتظار وصول أحدهم من أرض بعيدة. عرف أن شمس الدين قد مات مقتولًا في السوق، والأميران مهاجر وسليم قتلا بوحشية في أروقة القصر، وأن زرع العاصمة قد ذهب، وآبارها قد جفت وخزائن المنجاة نُهبت ثم احترقت بالدم. أخبار تشعل في نفسه حديثًا لا ينقطع، ولم يفعل حتى وصوله أبواب العاصمة..

***

كانت شمس نهار باكر تسطع بعد صلاة الفجر أرسلت الدفء إلى الأفق البارد البعيد، بينما تجمع الناس في ساحة القلعة يشهدون الجنود ينصبون نصبًا خشبيًا ضخمًا.

أيدٍ قوية تدق بالمطارق على الأركان، وسواعد متآخية تتحرك في حركة سريعة، والجمع يتزايد لحظة بعد لحظة، لقد انتظروا ذلك النهار وطال انتظارهم النهار حيث يخرج عليهم الرشيد من عزلته في القصر.

كان على كرسيه ذاته أمام النافذة ذاتها جالسًا الجلسة عينها لم تتغير كأنه لم يبرحها منذ العهد الأول به تعبث في شروده مزيج من الأفكار والهموم والحماسة جيئة وذهابًا حين أتاه الجند بخبر الوصول الذي كان ينتظره، بشراهم له أن تقيًّا قد شارف على المدينة وبلغ أبوابها، حتى كأن بعض الحياة قد دبت فيه حين سمع وأمر بإقامة النصب في القلعة يتحدث من عليه إلى جموع الناس، ثم أسرع بطلب الأمين يأمره بجلب ما أودعه من أمانة قبل أيام عدة..

أمانة آن أوان ردها إلى الناس وأصحابها، لتُكتب سطور النهاية لحكاية طالت وطالت صحيفتها، وينقضي عهد قديم أثقل القلب وأضاق الصدر، عهد قطعه قول قبل سنين وسطره حروف من الإرث وأسانيد من الولاية!

دخل على راحلته إلى المدينة، وقد بلغ قلقه مما ينتظره فيها ذروته، خاصة وهو يرمق الطرقات من حوله خاوية باردة يكسوها ضوء نهاري باهت لشمس باكرة عدا من قلة من الناس أخذت تتعجل الخطى المتأخرة، توجه نحو الوجهة ذاتها ليدرك أنها ساعة جمع حافلة.

هدوء شديد التهمته حوافر جياد القلعة تقودها الجنود قبل أن تتوقف عند راحلة تقي الذي أوجس منهم خيفة أبصرهم بها في ارتباك.

***

قبل أن يصعد الرشيد خطواته على النصب متكئًا على عصاه يرتدي زيًّا كتانيًّا زاهدًا وقلنسوة لها الحال ذاتها.

صمت تام خيم على الجميع بينما يتعالى صوت خطواته على الدرجات الخشبية يتبعه أمينه حاملًا الصندوق بينما تصطف الجنود أعلى النصب. لا يرفع بصره عن الأرض ولا يلتفت إلى الأعين المتعلقة به

والمنصبة عليه من جموع الناس.

وقف على النصب ثم رفع بصره أخيرًا رامقًا الجمع من حوله بعلامات الحسرة وبعض الشفقة. أسند راحتيه إلى رأس العصا ثم أشار إلى الأمين ليفتح الصندوق ويبدأ بالحديث:

- بسم الله الرحمن الرحيم، وخير صلاة وسلام على خير الخلق أجمعين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين المحسنين..

كلمات يتلوها الأمين على الأسماع المنصتة، والأفواه الصامتة، والوجوه المتعجبة من صمت الرشيد وحديث الأمين بدلًا عنه.

تعجبات ثم تساؤلات ثم تخاذلات لم يحتملها البعض حتى صاح:

- ما الذي يحدث؟ حدثنا يا مولاي!

لم يعر الرشيد لصياحه أي اكتراث بل تجلت عليه علامات التحاشي والمباغضة. بينما يقول الأمين مردفًا: فإنا وفي يومنا المبين وجمعنا الكريم ..

قبل أن يصيح آخر محزون صاخب:

- أقسمت عليك بالله يا مولاي أنك تحدثنا!

اشتعل الصخب بحديثه فَهَّم الجنود بالحركة لإخمادها قبل أن يقطع الرشيد قول كل خطيب صائحًا: لا تحلفنَّ بالله وأنتم خائنون عهده!

صيحة صمت لها الجميع حتى الأمين ذاته. خلع عمامة الصمت ليردف: تعلمون ما لكم من ذنب وما كان لي عليكم من عهد!

ثم مرتجفة الحروف في حلقه وقد تكدست عيناه بالدموع: قد نقضتموه!

ثم متمالكًا لها: عهدت إليكم ألا تأكلوا المنجاة ولا تمنعوها، ولا تسفكوا الدماء فيكم بغير حق حتى ينقضي الوعد ويذهب الشر وتخمد الفتنة، حذرتكم من موت عظيم قادم إليكم متوغل فيكم وقد سمعتم وأطعتم، حتى إن مت انقلبتم على أعقابكم، وخنتم كالذين خانوا، وعثتم في الأرض جبارين، قتلتم شمس الدين وأكل بعضكم حق بعض! كان عهد الله بيني وبينكم في مثل يومنا هذا ومثل جمعنا هذا! أفتنقضونه ثم تستحلفونني به؟!

والله لا بررتكم ولا بررت يمينكم ولا صدقت دعواكم.

كان الجميع يقف منصتًا ممتنعًا عن الحراك، كانت حركة واحدة تضطرب بين الصفوف مقتربة من النصب.

بينما يردف في أسى: ما رأيتم في ليلكم المظلم، كان الموت الذي آتيكم.. وكنتم أنتم الموت الذي أتاني!

ساد بعض من الصمت قبل أن يشير إلى حامل الصندوق بإخراج العهد منه. بزغ العهد من دفتي الصندوق يذكر بنظير خرج من قبل، لكن هذه المرة يخرجه الرشيد بنفسه عهدًا أصليًّا على مرأى من الجميع.

نظر بين الصفوف باحثًا، ثم إلى الأبواب متفقدًا.. لماذا تأخر؟

أشار إلى المنادي على مضض، ليبدأ في قراءة متن العهد بلسان فصيح وصوت جهوري تردد في كل الأصداء:

- بسم الله الرحمن الرحيم: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ» صدق الله العظيم.

من عبد الله بن رشيد بن يزيد الرمادي، إلى المسلمين في كل الأرض، من حقول قرطان الغائرة في الوادي السحيق، والبروج المشيدة إلى نهر الخيزران البعيد.

إني جاعل خليفة لحكمي، ووليًّا لعهدي..

تجمد لسان المنادي حين ختمت الحركة بين الصفوف خطاها على قمة النصب، لتقف حانية الظهر عند أطرافها تختبئ في زي عظيم انسدل على رأسها بستار طويل بلغ أطراف أقدامها الواهية التي التفت الجنود إلى حركتها على النصب لتنسل أسيافهم جاذبة أنظار الجميع في كل مكان بمن فيهم الرشيد الذي طالع الجسد المتسلل بعينين متحيرتين، وفم مرتبك ثم لم يلبث أن أشار بيده إلى الجنود لتغمد أسيافها فور أن أدرك الضعف فيه، والأذى من حصار الجنود له. جسد أخذ يزحف خطواته الأخيرة مقتربًا من الرشيد الذي راح يزداد التساؤل على وجهه كلما ازداد الجسد خطى حتى وقع في نفسه ما اتسعت له عيناه حين بات على مقربة واهتزت له أركانه وارتجف قلبه، ثم سرعان ما ذهلت وجوه الجميع في كل مكان فور أن نزعت الستار ليظهر أمام الناس كافة وجه أخذت بمسماه تصيح بعض النسوة مرددة في صدمة بعد لحظات من التأمل:

- مليكة!

- إنها مولاتي مليكة!

سار الذهول كأنه الريح بين الناس تتبادل الوجوه العجب، والأفواه التساؤل، من يصدق أن ملكية قد عادت؟ أين كانت كل تلك السنوات؟ ولماذا خرجت إلى الناس الآن؟

بينما راح يرمقها الرشيد بجنون في عينيه وانقباضات ظاهرة في قلبه، ثم لم يلبث أن اشتعلت رجفة في القلوب كافة كأنها رقصة على حافة هاوية حين أخرجت مليكة من ملابسها خنجرًا عظيمًا أحكمت قبضتها عليه بيدٍ، وأحكمت بالأخرى على قلبها.

اندلعت أنفاس الجمع كأنها تتقاتل فيما بينها، بينما رفع الرشيد يده مانعًا الجنود من المساس بها.

لم ترفع بصرها عنه برغم كل ما يحيط بها من قلق وما يحدث حولها من جلبة كأن الزمن متوقف لديها وعيناها متحجرتان في وجه الرشيد الناظر إليها في غير تصديق تكتظ عيناهما بحمرة شديدة.

إنه لا يصدق ما تفعله، ويأسى على حالها في آن واحد، أسًى طبع على ملامح مليكة كأنه ختمٌ خُتِمَ على قلبها، بينما يموج صدرها يعجُّ بالكثير من الكلمات لا تهتدي طريقًا للبوح بها والافصاح عنها حتى ذابت في جوفها وأذبلت روحها.

ضعف يختلط بالقوة في مزيج غريب، الأول هوان استقته عذابًا لسنوات، والأخير كمد وقسوة غمرتها حتى النخاع.

إنها ليست مليكة بكل تأكيد، إنما هي صدمة حية على النصب، أذهلت الجمع العظيم حتى اضطرب وأخرجت دمعات قلب الرشيد الباردة. من تلك الماثلة أمامه تلوح له بالموت وتشبه مليكة؟

أهي حقًّا مليكة التي عرفها وتزوجها قبل سنوات؟ أم أنها عجوز تقدم بها العمر وتتابعت عليها نوائبه حتى أفقدتها عقلها؟ لكن الحقيقة الأشد قسوة أنها بالفعل مليكة، مليكة التي غفل عنها كغافل عن وعاء يغلي حتى جف واحترق.

وفي هذه الآونة وصل تقي بآثار الترحال على ملابسه بين الصفوف تحيطه الجنود التي قادته من الأبواب حتى القلعة ليتعجب قليلًا مما يحدث حوله من اضطراب لكنه سرعان ما ذاب فيه الاضطراب حين توقفت أقدامه، وتعلق بصره بالنصب البعيد من أمامه قاطب الحاجبين متعجبًا قبل أن يدرك ما أدركه الجنود حوله وهلعت منه على الفور نحو النصب، ليقف وحيدًا بين الجموع يشاهد على عجب تلك العجوز التي تتقدم بالخنجر متباطئة صوب الرشيد، بينما تجمد الأخير في مكانه محدقًا إليها كما تحدق إليه، ظهرت بعض الدمعات المتمردة في مقلتيها قبل أن تقفز خطى ترفع يدها بالنصل عاليًا إلى الهواء مطلقة خنجرها ودمعاتها إلى العنان.

وعلى مرأى من تقي والحضور والجميع..

أحكم الجنود القبض على يدها ليهوي خنجرها إلى الأرض. اشتعلت عيناها بالشرر تعالى لهيبه في جوف الرشيد يطالعها في كمد لم يخفَ عن عيون أحد. هَمَّ الجنود بأخذها لولا أنه أشار إليهم بالانتظار..

رمق الجموع المرتقبة والجنود المتأهبة وحطام مليكة عن الشمال، ثم أشار إلى المنادي وسط تعجب الجميع بتلاوة ما بقي من العهد.

سطر أخير: إني جاعل خليفة لحكمي ووليًّا لعهدي.. الرشيد بن مروان بن يزيد الحاكم!

تجلت على الجميع معالم الصدمة كصاعقة حلت من السماء، تسمرت لها مليكة في مكانها بلا حراك وقد بدت أنفاسها كأنها ذهبت مع دوي الريح. أغمض لها الرشيد عينيه متحاشيًا النظر إلى أي شيء بينما تلفت الجميع باضطراب بلغ أوجه لدى تقي بين الصفوف. ولوهلة بدا كأن المنادي قد حدثهم بلغة غير مفهومة وقف أمامها الجميع عاجزًا.

أي نهار هذا؟ خرجت لهم مليكة من العدم تريد قتل الرشيد، ونُودي باسم أمير ولد منذ ماض بعيد كحكاية قديمة خرجت فجأة من قبر دفين طواه النسيان، فتى ولد باكرًا، ثم رحل باكرًا كذلك. أفيعود اليوم؟

أخذ الجميع يدور بحثًا عن هذا الرشيد كما نُودي!

نظر الجنود الذين أقبلوا من لدن الأبواب إلى الرشيد فبادلهم النظرة ذاتها..

ثم موجة من النظرات أخذت تلوح بين الصفوف. حاول تقي تتبعها بحاجبين قاطبين، وقلب مرتجف محاولًا تخمين إلى أيهم تصب؟ حتى بُهِتَ حين أفضت إليه!

فجأة باتت العيون من حوله جميعًا ترمقه وزيه بآثار السفر الطاغية عليه بينما يحدق مشدوهًا في غير استيعاب.

وقف به في مكانه متسمرًا. الدماء كأنها تتدفق إلى صدره حتى يمتلئ بها فيضيق ولا يبلغ رأسه شيء من الدماء. بعض دوار وبعض رجفة والكثير من الارتباك!

ارتباك تسمر به في مكانه للحظات قبل أن تزحف به أقدامه رغمًا عنه يتقدم هائمًا.. يخطو شرودًا بين الجموع، ثم صعودًا بطيئًا إلى النُصب، وتحديق غائر في وجه مليكة. ثم في وجه الرشيد من خلفه.

أدمع راحت تستبق الشرود وأطراف تموج في تردد كموج الريح..

ثم حدث كل شيء فجأة وقف أمامها عاجزًا عن ملاحقته..

استرسل الرشيد في البكاء، وسقطت مليكة في أبحر شرودها كأنها قطعة خشبية من أخشاب النصب ثم همس صوت ارتطام خافت بالأرض فوق النصب. قطب حاجبا الرشيد متوقفًا بكاؤه لقارورة فارغة تدحرجت أرضًا عند أقدام مليكة صرخت بها قبضتها الجامدة على الأرض.

طالعها الجميع تفقدًا قبل أن تنتبه أنظارهم إلى الشحوب في وجه مليكة إلى جوار أدمعها المنهمرة من عينيها. تصرخ الصدور، هولًا بحقيقة مفزعة واحدة، إنها قارورة موت، سُمٌّ أقدمت به على قتل نفسها قبل شروعها في قتل الرشيد.

ثم سقوط لمليكة عن هاوية الحياة!

ارتجفت جوارح الرشيد فجعًا كأن الأرض قد زلزلت من تحت قدميه هالعًا للامساك ببدنها الذي راح يهوي مفجرًا أسماع المنصة بصراخ النساء.

كما هلع الرشيد وتقي يحيط كلاهما بجسدها الراقد على أرض النصب.

ثم كأن السماء أخذت تبتعد من فوقهم، والأرض تميد من تحتهم، والنصب العريض يضيق بهم. تختفي الأصوات، وتصم الأسماع، وتتشتت الأذهان، ويهلع الجنود. قبل أن يصيح بها الرشيد عاليًا يحترق بفاجعة قلبه: مليكة!

آخذًا بها وبأنفاسها المتهدمة في صدره، راح يصيح ويستغيث بمن حوله حتى لم يعد ليسمع صوت نفسه بينما يحدق تقي ذعرًا إلى مليكة والرشيد والجموع من حولهما متفجرًا الفجع في وجهه.

ولوهلة بدت القلعة كلها كأنها أرض تختنق بالعويل والآلام!

***

أشرق القصر بنور الشمس الذي بدا عليه غريبًا كأنه اعتاد الظلمة حتى باتت تناسبه أكثر وقد سيطر عليه الكثير من الهدوء عن المعتاد. يكفيه أن أكثر نوافذه وغرفه مغلقة عدا النوافذ في الممرات والأروقة

التي بدت فسيحة شديدة الاتساع في فراغه الرهيب بضوء الشمس المتسلل إلى رحابها، من يروح أو يغدو يتحرك في صمت تام، تعج رؤوسهم بآلاف الأحاديث والهموم، على قلوبهم آثار برودة وحزن وأسف.

لكنه قصر اعتاد على أيام كهذه بين السنوات والأخر، تمر به النوائب والأحزان صعودًا وهبوطًا على أدراجه، وتسلقًا على جدرانه وأسقفه وحول مشاعله.

ساعات من نهار، لكنه نهار بارد ثقيل يمر بين أرجاء قصر أغلق أبوابه على النسيان، أبواب غرف أفرغت عن قاطنيها فأوصدت كأنما لم يقطنها أحد يومًا!

حتى انفتح أحدها..

دلفت أقدام تقترب في حذر رقدت عليه مليكة الغائبة عن الوعي وقد طببها الحكماء بترياق للسموم؛ عساه أن ينقذها، لم تكن بالقوة لتحتمل ولم يكن مفعول السم بعد الترياق بالقوة ليقتلها؛ فرقدت على الفراش بين الموت والنجاة كأنها قد ماتت، رقود من لم يعرف النوم لسنوات.

مرت ساعات منذ حدث كل شيء، تتأرجح فيها بين الحياة والموت. هذان العدوان المتناحران كل منهما يسعى لإعلاء كلمته التي ما إن تقع حتى لا يكون لرفعها سبيل.

وقف الدالف بعيدًا يرمقها للحظات، لم تجف دموع عينيه بعد ولم يتوقف الأنين في صدره. جلس بعيدًا للكثير من الوقت ثم قام واقترب أكثر حتى بلغ مرقدها وجلس إلى جوارها فيه، أخذ بكفها بين يديه وراح يربت عليه كأنه يربت على قلبه، لتتداعى الدموع في عينيه ثانية وتنهمر حارة ساخنة.

لا يحتمل هذه اللحظة ويعلم أنها حين تفيق وتراه أمامها قد لا تحتمل، ثم كأن ما جال بخاطره قد وقع بالفعل حين أخذت تتمتم بأصوات أنينيَّة غير واضحة، ثم بدأت أجفانها المستسلمة منذ ساعات تتماسك وترتفع.

لم يسبق له وأن رآها من كثب قبل الآن حتى يدرك قدر هذه المعاناة المنبعثة من وجهها، ولم يسبق أن رآها قط حتى يدرك ذلك الشبه الكبير بينهما. انتفضت لوهلة فور أن رأته غريبًا ممسكًا بيدها ويبكي لكنها سرعان ما تجهمت. تحرك في نفسها شيء، حدقت إلى وجهه جامدة، ثم مكذبة!

ثم مرتجفًا حلقها بكلمات جرت فيه لأول مرة منذ سنوات حتى بالكاد سمعها تقي الجالس إليها:

- رشيد!

ثم جاهشة ببكاء مرير: بُني!

ثم فاضت عيناها آخذة برأسه الباكي إلى صدرها لتبكي فوق بكائه، بينما لا يزال الأخير مرتعدًا من هول الصدمة. صدمة زفت الكلمات إلى حلق مليكة، وأعادت إليه حروفه كما أعادت الدماء إلى قلبها والبسمة إلى وجهها الذي أذبله البكاء الطويل وأذهب هويته.

إنها مليكة بنت الأعيان، وهو ابنها الذي انفطر عليه قلبها لسنوات تحترق حيرة إن كان قد مات أم ما زال حيًّا. عاد إليها شابًا يافعًا، في ذات القصر الذي ولدته فيه، القصر الذي دخلته جارية وعاشت فيه زوجة الأمير ثم زوجة الخليفة، ثم اختفت لسنوات وعادت إليه أُمًّا للخليفة!

الخليفة الذي سطر اسمه في عهد غائب، أخفي بدهاء في قبو سيدة عجوز عاشت وحيدة وماتت كذلك.

حكاية الخليفة رشيد بن مروان بن يزيد الحاكم!

***

صوت صرير الباب الحديدي الضخم للسجن ينذر بدخول أحدهم.. لا ليس أحدهم.. بل مجموعة من الجنود!

لم يعتد أن يأتيه زائرون أبدًا. أن يهرب ظلام السجن في مواجهة ضوء الشمس الدخيل فيبصر بها الأصفاد في يديه والأغلال حول رقبته ومدى قسوة المكان الماكث فيه. لكنه كان يتوقع، يعلم منذ الفجر أن هذا الصباح صباح غير عادي، لقد همست إليه جدران السجن بذلك، إنها رغم قسوتها وتوتر الحديث بينهما في الآونة الأخيرة، لكنها لا تخفي شيئًا.

أي صباح هذا؟ إنهم ينزعون الأغلال ويحلون القيود!

يغمرون وجهه بساتر أسود عاد به الظلام حوله من جديد تبعه شعور بسوق على الأرض..

ثم صوت انغلاق باب السجن الوقح قادم من خلفه هذه المرة، وصوت وداع بارد ثقيل لجدرانه الثرثارة.

***

لم يترك مليكة أو يبرح فراشها منذ عادت إلى نومها إلا حين جاء الجند في خبر أربكه فراح يتقدمهم يهرول نحو قاعة الحكم الفسيحة حتى دلفها، بينما التزم الجند الباب.

استبق الخطى حتى بلغ الرشيد عند نهايتها يقف في ثبات متكئًا على عصاه، في ملابسه الكتانية البسيطة ذاتها إلى جوار قدميه حاوية قماشية لم تمتلئ بالكثير.

يقف في حياء لم يخلُ من الحزن وانتظار لم يتنزه عن الألم، تجلا وضوحًا حين اقترب منه.

قطب حاجبيه واستبق لسانه قائلًا: هل سترحل؟

التفت الرشيد إليه، ثم أومأ برأس متثاقلة، وقال بصوت حَسِر: أجل.. جئت أطلب الإذن في ذلك.

كان خبره عليه كالفاجعة، خبر يحمل الوحدة بين حروفه تستبقها وشعورها إلى قلبه. سأله مغتمًا: إلى أين؟

ليجيبه: إلى حيث بدأ كل شيء.

كلماته غامضة لكنه لم يعجز عن الفهم. سأله السؤال ذاته في حلية جديدة كمحاولة يائسة لتغيير حالها فقال: لماذا لا تبقى؟ هل عليك الرحيل؟

فأفصح إليه قائلًا: لم يعد للبقاء حاجة.. أما العهد فقد انقضى، وأما الشر فقد زال، والنفس في مصابها عظيم، لا تسألها الروح إلا الراحة.

سكت لبرهة ثم أردف: ولمهمتي جزء أخير.

سأله قائلًا: أي جزء؟

فأجاب: سوف آخذه معي.

اختنقت بعض الكلمات في حلق تقي لا يقوى على النطق بها والوداع لكن عينيه أخذت تؤازره وتبوح بما يكتم في صدره.

إنه لا يريده أن يرحل، لا يريده أن يتركه وحيدًا في مواجهة كل شيء قد حدث وسوف يحدث. تنهد غير آمل فيما تتمناه نفسه وقال: هل تنتهي الحكاية هنا؟

أومأ له نفيًا ثم أجاب: هنا ينتهي ما نعرفه، من قد علم يومًا بما يجول في الانتظار؟ العدو قد رحل، لكنه قد يعود ثانية، ربما في أرض أخرى أو في زمان آخر، بعد شهور أو سنوات أو ربما قرون، لكنه لن ينتهي، حتى يقع الوعد ويرث الله الأرض وما عليها. ذلك عهد الأرض به وعهده بها.

- ولكني يشق عليَّ فراقك وشمس الدين؟

- الشمس تغيب لكنها لا تنقطع، إنما تشرق على جانب آخر، تمامًا كما غاب العرافون، لكنهم تركوا من خلفهم نبوءة ترشد الأرض لما يغفلونه عن العالم البعيد خلف النهر.

- لماذا كنت تعلم والعرافون كل شيء ولم تبوحوا به؟

- بعض الأسرار في بوحها فناء، فرار من أرض المعركة يتبعه هلاك للجميع.

- من قتل شمس الدين؟ أهو مروان؟ أم أنه الأعور الكذاب والموت الذي قدم؟

- ما قتل شمس الدين إلا الخلاف ربيب الطمع، قد يكون مروان وقد يكون الموت، قد يكون المكذبون وقد يكون المدافعون عنه في السوق، في النهاية قد مات بين يدي الجميع.

اغتم تقي غمًّا شديدًا، حمله على الاضطراب، وحمله اضطرابه أن يقول:

- أوصني يا عَمَّاه!

- أوصيك بما عهد به النبي محمد والصالحون من بعده، ألا تعبد إلا الله ولا تشرك به شيئًا فيما تقول أو تفعل، لا تشرك به دنيا أو تطيع دونه رغبة، ألا تظلمنَّ ضعيفًا ولا تنصرنَّ ظالمًا ولا تُكَذِّبنَّ إلا ببينة، ولا تأكلنَّ الحقوق، وأن تأخذنَّ بالناس حسنًا، ولا تنقضنَّ عهدًا أنت آخذه، ولا تبرمنَّ ميثاقًا إلا من أمنت، لا تسعينَّ إلى حرب أنت على ردعها قادر، ولا تيأسنَّ في سلام أنت سائله، ولا تحكمنَّ إلا بالعدل، عدل فيما ترى لا فيما تسمع، فيما تسأل وتجتهد لا فيما تحدثك به نفسك، أوصيتك بالأخذ بالقوة والفضل بالرحمة، وأن تجتهد حتى تعلم، ثم تجتهد فيما لا علم لك به وقد أدركت فيه صوابًا يخلو من شائبة رياء أو طمع. الله الله في الدين فإنه لأهل الأرض من خالق الأرض، به يستقيم أمرها وأمر من فيها. الله الله في الناس، فإنهم قد جلبوا إلى دار بلاء وحرب لا قبل لهم بها، كن أنت النور في لياليهم الظلماء حتى إذا أتى ليلك هداك هداهم، وأشرقت عليك شمسهم. الله الله في الدنيا فلا تترك فيها إلا ما يصلح به حالها وحال التابعين من بعدك.

سكت لبرهة ثم أردف: اترك أثرًا في سراديب عمرك يعود به الخلاص.

ختم حديثه ليومئ تقي متبسمًا في إيجاب ثم يشرد فيه للحظات متأملًا.

ثم انعقد حاجباه متسائلًا يقول: حين حدثوني عنك، حدثوني عن عودة لم يحدثوني عن ميلاد، قالوا: كان على المخلص أن يعود، عن سر سقط في تلك البئر فيه الخلاص والنجاة والحماية.

ثم استطرد: فهل لي بسؤال أخير؟

قال: نعم.

قال: من هو المخلص؟ أذلك السر؟ من أنت؟

***

أخذ الرشيد يتحرك هائمًا بين الممرات..

كان يودع كل شيء من حوله، كل صخر على الأرض وكل حجر في الجدار، يتساءل هل ستتذكره تلك الأحجار كما سيتذكرها؟

يودع كل خطوة أخيرة في موضع من القصر كأنه يودع ساعة من عمره، وإن لم يعد القصر كما كان عليه.

سار متأملًا كل ظل شارد وكل نور خافت، يبعثان في نفسه بالكثير من الذكريات وساعات قد خلت، بكل فرح فيها وحزن وألم وإنجاز صغير. الغرف المغلقة تشبه الصناديق الدفينة، مؤلمة كأنها خناجر غائرة.

تلك غرفته في الصغر، لا يزال يذكر ليلة الحمى الأولى التي لازمه فيها الحاكم، لا يزال يذكر ذلك الخوف على وجهه حين رآه بأمِّ عينيه يعود إلى الحياة بعد الموت، ذلك الخوف الذي لم يفارقه منذ ذلك الحين كلما رآه. الخوف، إنه سر بغض أبيه له الذي لا يعلم به أحد. وتلك غرفة صِدِّيقة المخيفة لدى الجميع عداه، غرفة أمه التي عاشت فيها واحترقت فيها وأيضًا لا يعلم بحقيقة أمرها أحد، وهذه غرفة مروان، كم كان مثيرًا التسلل إليها دون أن تدرك أمه بالأمر، بل أكثر الأوقات إثارة في يومه، غرفة الحاكم مظلمة كما تركها، والتي عاش حياته جاهدًا ألا ينطفئ نورها أبدًا.

ذلك الدرج الضيق على اليمين، الذي يقود إلى السجن السفلي للقلعة، حيث قضى شهورًا مديدة، تلك غرف الطعام الواسعة، كانت تعج بالرماديين والأعيان في يوم من الأيام.

من سوف يذكر كل تلك الأشياء من بعده؟ من سوف يحفظ كل هذا من الضياع؟ من سيفتح هذه الأبواب المؤصدة، ليتسلل منها نورها الغائب؟

غريب إنها ساعات انتظرها طويلًا، وحين وصلت كره وصولها. عبر بالردهة ليكسوه ظلام الظل، خرج منه إلى النور في ساحة القصر ليغمره ضوء الشمس الساطع المُسلَّط عليه من كل مكان. دار في موضعه ثاكلًا ينظر في رمق أخير بينما يطالعه تقي من إحدى النوافذ مطبقًا فمه عاجزًا عن التبسم.. بدا غريبًا!

أخذ الرشيد خطواته مبتعدًا، يقترب إلى قفص له عجلات كالعربة يمتد منه ذراعان خشبيان مخصوصان لجر القفص. قفص قبع في داخله جسد بشري ساكن يجلس دون حراك، غطى رأسه قماش

أسود كبير، ملابسه ملابس مروان في تلك الليلة بدمائها التي لطخت، وزهوها الذي ذهب، رثة عظيمة الاتساخ، تجمع يديه سلاسل ضُمت إلى رقبته كما ضُمت إلى أقدامه.

عربة أمسك الرشيد بذراعها ثم راح يجرها خروجًا بها. فُتحت له أبواب القصر ليعبرها تباعًا لأبواب القلعة لا يرتفع بصره عن الأرض تاركًا من ورائه كل شيء.

لم يتبعه جنود ولم تحيطه رعية، الجميع يخجل من الاقتراب منه. رحل يحزنه ما بدر من مليكة، يتمنى لو كان لقاؤهما الأخير أفضل مما كان عليه، لكن لا لوم عليها في هذا، يُحدِّث تقيًّا في نفسه يوصيه بمليكة خيرًا، يرجو لها أن تكون بأمان من القصر والناس ومن نفسها!

سار مغتمًّا وقد حانت ساعة الخروج، حري به أن يسعد، وحري به أن يغتمَّ كذلك، سار يئسًا خطاه مرتجفة في منتصف الطرقات، متسائلًا ما بال قلبه يرتجف. وهو غريب عن هنا، غريب عن هذه الأرض، وعن تلك الحياة وحتى عن ذلك الجسد، ولطالما كان كذلك...

غريب شريد يخرج وحيدًا بلا عودة.

***

لم يفارق تقي الشرود عند النافذة، وبدا لن يفارقه قريبًا. التفت ناظرًا إلى مليكة النائمة على الفراش تغط في نوم عميق حين غاب الرشيد عن بصره.

وفي مليكة أطال الشرود.. لقد انتهى الآن كل شيء يعرفه، وبدأ الكثير مما لا يعرفه، من تلك الأطياف التي مرت أسفل أجفان مليكة تصيبها بالاضطراب في نومها.

كأنه كابوس..

كابوس قديم!

***

كابوس كان إحدى الليالي التي وُجدت فيها مليكة بالقصر زوجة للأمير مروان، القصر في حال يرثى له بعد أن مات الرشيد بالحمى وعصف الطاعون بالجيش حتى أهلكه، وُجد نافع مقتولًا، وأصاب الحاكم مرضٌ شديدٌ ألزمه الفراش.

ليلة مظلمة لا يعلم أحد ما قد يحدث فيها، أو ماذا يختبئ في الانتظار.

وفي زي أكثر بهاءً، وجسد أكثر حيوية وشبابًا، ووجه عابس مليء بالحسرة وبطن كبير في شهور حملها الأخير تقدمت مليكة ببعض من رافقها من الخادمات باب غرفة الحاكم شديدة الحراسة بطبيعتها.

قالت مقتضبة في حزم: دواء الخليفة!

ليسمح لها الحراس بالدخول ومن رافقها، الذين أوقفتهم عند الباب قائلة: انتظروني ها هنا!

ثم دلفت إلى الغرفة في هدوء..

******

البوح الخامس عشر والأخير

عهود وخطايا: السر

أصوات النهاية يتردد صداها في كل حوب..

تسقط من النوافذ العالية، وترتفع عن الأرض القريبة، وتنطلق من الشقوق بين صخور الجدران..

مليكة على فراش الموت!

منذ خرج الرشيد قبل أربعين ليلة ما زاد حالها إلا سوءًا. الآن هي على الفراش في غرفتها تحتضر. إلى جوارها يجلس رشيد الثاني أمام المصحف المفتوح.. على زيه وقار شديد وعلى وجهه ذبول قاسٍ، ليجتمعا في هيئة هزيلة جلس يتلو بها الآيات على الأرض إلى جوار فراش مليكة.

وفي الركن القريب ترتجف أطراف القارئ يتلو بصوت جهور آيات سورة يس. يرتعد صوته كلما تعالت إلى مسامعه هذه الأصوات المتسللة من الخارج. أصوات الحرب الضارية والنيران التي تلتهم كل أخضر ويابس، كل حي وميت، كل ساكن وصارخ بالهول!

عاصمة على فراش الموت هي الأخرى مثل مليكة المحدقة سقفًا في ثبات. الغرفة ضيقة خانقة مهما تباعدت جدرانها، كئيبة مهما توغل فيها ضوء الشمس، مخيفة مهما تكاثفت الحراسة على بابها، وكل أبواب القصر. كل شيء صغير ومخزٍ وغير مفيد.

اليمام خارجًا يفر في السماوات العاليات من بطش الجنون الذي يلتهم الأرض.

إنها الغلال المسروقة، الأقاصيص الملتبسة، والحقوق الضائعة، الجوعى من قحط العيش والمحترقون بلهيب مرارة الفقدان لعائل أو لغياب ابن منذ الليلة الطويلة، والماكرون المختزنون ما سرقوا المانعوه عن الناس.

منذ تولي الخلافة، وفجوة كبيرة تفسد كل شيء، سبيل غائب إلى فض النزاع، كان في أمرها بين السعي ساعة والخوف سنوات، الخوف من تبعات ما يحدث.. حتى حدث.

إنه يعرف التاريخ جيدًا، صفحاته كانت كأنها تنقلب من أمام ناظريه وتتلى سطورها على أسماعه كلما واجه تلك الحقيقة، حقيقة أن هكذا كانت البداية منذ قرون خلت، بمثل تلك الطريقة وذات تلك الأفاعيل. هكذا.. بدأت عائلات الأعيان.

لكن هذه المرة، اختار الجميع فض النزاع باكرًا، والتعجيل بالنهاية قبل مشاهدة الماضي يتكرر من جديد أمام أنظارهم. اختاروا أن على طائفة واحدة أن تبقى، وتفنى لها كل الطوائف الأخر. هذه المرة ذهب الجوع بالصبر والكمد بالحلم والظلام بالعقول. حتى راحوا يلتهمون بعضهم بعضًا، في وضح النهار، كلٌّ لناظره آفة!

بينما تختنق الأنفاس في صدر مليكة المتخم اختناق الذكريات المتناوبة على رأسها.. قاسية، ومؤلمة..

ذكريات من زمن بعيد..

***

في جسد لا يعرف الحراك.. رقد الحاكم على فراشه مبعثر الشعر، رثَّ الهيئة، مهمل الثوب، شديد الجحوظ، يطالع سقف غرفته متصببًا بالعرق.

ساعات لا يعلم عددها يقضيها وحيدًا عاجزًا مستمرًا بالتحديق في السقف متأملًا كيف أنهما متشابهان. كلاهما ساكنان كالأرض لا يعرفان للحركة سبيل.

منذ استيقظ قبل أيام ليجد الداء المتوغل في جسده قد أصاب بدنه بالعجز الكامل عن القيام والحركة والحديث، لا يفعل إلا أن يحدق إلى سماء الغرفة يفترسه التفكير في عقله، يفكر في ملكه الذي زال بين ليلة وضحاها، قوته التي ضمرت ونعيمه الذي رحل.. تفكير حتى الجنون!

ساعة يومه الأخيرة التي يغشى عليه فيها من التعب. مُلك عظيم ووجهة بعيدة دائمًا، يتطلع إليها كما يتطلع الظمآن إلى بئر المياه، حتى يغطُّ في نوم عنيد يمر كثوانٍ قليلة ثم لا يلبث أن يبدأ جحيم اليقظة من جديد.

طقس الليلة حار تلهبه مشاعل غرفته المرصعة في كل مكان فتبتليه بعرق بطيء مزعج على وجهه، يتمنى أن يزيله ولا يستطيع أن يفعل فيمكث منتظرًا اكتمالها البطيء ثم سقوطها من تلقاء نفسها، نوع آخر من العجز أكثر قسوة!

لكن ضوء المشاعل راح يخفت شيئًا فشيئًا، وتنخفض من خلفه حرارة الغرفة، حتى اختفى تمامًا ورحل كالظل، وحل ظلام دامس عدا من ضوء خافت للقمر المتسلل من النوافذ ليدب هاجسه المعتاد بالظلام يتقافز بالرعب في عينيه. ضوء القمر جميل لكنه غامض ومخيف.. ومرعب لديه.

شعر بالحركة على الفراش لتلتهب الدماء في عروقه كالحمم باذلًا قصارى جهده في تتبع هوية زائره والنظر إلى فضاء الفراش.

قبل أن يسبقه صوت مليكة:

- شششش، لم الفزع؟ إنها أنا.

وقبل أن تنهيها كانت عيناه قد أبصرتا وجهها تجلس إلى جواره في هدوء ليحدق إليها في رعبه.

تناولت منديلًا قماشيًّا مجاورًا، راحت تمسح به عرقه المتصبب قائلة:

- الطقس حار اليوم، لقد أطفأت المشاعل حتى تنعم ببعض البرودة في المكان، أعرف أنك تخشى الظلام، لكن من المخزي أن تموت بالاختناق حرًا كذلك.

وضعت المنديل ثم عادت تتنهد مستقبلة الرعب على وجهه بابتسامة أكثر برودة من الغرفة.

قالت في هدوء: ها نحن أولاء، نختلي معًا من جديد.

اتسعت ابتسامتها وقد تبدلت طبيعتها، ثم أردفت شاردة:

– تلك الأقدار ملتوية، قد تكون قاسية في بعض الأحيان لكنها عادلة في نهاية المطاف، أو على الأقل هي تمنح الفرصة للعدل.

بدا مختنقًا من شدة الخوف، غريبًا تمسكه بالحياة على هذه الحال، ربما لم يفكر بعد بالقدر الكافي طيلة أيام تحديقه في سماء الغرفة، فيدرك حقيقة الأمور بعد!

تراجعت مليكة عن حافة الضحك من التعابير على وجهه وقالت:

– لا تقلق، بالطبع لن أقتلك، مع أنك قتلت جميع من أعرف، وجميع من أحب، حتى ابنك الذي أنجبت، ومع أن بإمكاني فعل ذلك الآن، ولن يكترث لأمرك أحد أو يرتاب في موتك، لكني لن أفعل، فالعدل لا يعني التعادل دائمًا، العدل الإلهي أكثر عمقًا مما قد تظنه عليه أن يكون، لقد باتت حياتك بلا قيمة الآن لا تستحق أن ألطخ يديَّ لأجلها.

سكتت لبرهة ازدادت فيها رهبة الحاكم مترقبًا يتدبر صمتها المخيف أكثر من حديثها. ثم عادت تردف:

– أعرف سر خوفك من الظلام، إنه خوف المواجهة، أنت لا تريد أن تواجه نفسك، فلا تخشى الظلام قط نفس قد واجهت نفسها، لكني لا أفهم خوفك من الوحدة، أنت لست وحيدًا، ففي أعناقك أرواح كثر، ترافقك أينما حللت وتلعنك أينما رقدت، لا بد أنك تراهم في السقف كل ليلة، ربما أسقطوه عليك مرارًا.

تحركت في عينيه قطرات دمع احتجزت بفعل وضع جسده، أبصرتها مليكة عيانًا برغم شحوب الضوء فسكتت.

أشاحت بنظرها عنه ثم قالت متنهدة: ما جئت للشماتة أو الأذى، إنما جئت لأخبرك أمرًا من المهم أن تعرفه قبل أن تموت.

عمَّ المكان هدوء شديد حين احتبست أنفاس يزيد ترقبًا بينما تحركت أصابعها على بطنها ناظرة إليها تقول:

– إن في بطني حياة جديدة قاربت على الخروج، إنه فتى، أنا أعرف هذا، لا ينجب الرماديون إلا الذكور، سوف يكون أميرًا ابن أمير، إنه آخر الرماديين، وآخر الأعيان، إنه مستقبل هذه الأرض، سوف يكون فيه خلاصهم، رحمتهم منك وممن قبلك، تلك الحياة الجديدة في أحشائي، هي أكبر مخاوفك، ثمرة العدل الإلهي!

أردفت:

– حين عدت من العاصفة، ووجدت الرشيد قد خرج إلى ما وراء النهر، كانت الوثيقة الوحيدة لعتق الرشيد رقبتي من الإماء وزواجه مني قد ذهبت أدراج العاصفة، ولولا أنه قد أخبرك ومروان بالزواج قبل رحيله لما صدقني مروان وأبقاني في القصر، إلى أن جاء الخبر بوفاة الرشيد بعد أن قتلته الحمى، وحتى كان ذلك، كنت قد علمت بأمر أبقيته سرًّا، سر ما إن علم به مروان حتى تزوج مني، ذلك السر هو..

ولد من الرشيد بين أحشائي!

نظرت إليه لتجد رعبه قد تبدل صدمة غير مصدق، محدقًا في شحوب بينما تستطرد:

– وحين يأتي ليلك سوف يخلفك مروان في حكمك وسوف يخلف الابن عمه من بعده باسم الرشيد الذي أجمعنا على أن نسميه به، اسم أبيه!

سكتت مليكة، وبهت يزيد مشدوهًا من الصدمة، ظنه نهاية حديثها، لكنه لم يكن.

– ولكن.. ساورت نافع الشكوك، هو يعرف أخاه، يعرف مقدار حبه للرشيد، ما كان ليتزوج من زوجه وقد مات، لو تيقن من الأمر لما تردد في إخبارك، وكنت لتتخلص مني ومن الفتى.

ما سأخبرك به لا يعرف مروان بأمره ولكن..

ثم اقتربت من أذنه ببطء وهمست فيها: لقد كنت أنا من قتله!

ارتج صدر الحاكم فجأة وأخذ يخرج أنينًا غاضبًا فجر الدموع من بين أجفانه حتى راحت تنهمر. تبسمت مليكة في أسى وابتعدت تتظاهر بالانتصار والانتقام، لكنها تعلم يقينًا أن أحدًا غيرها لم ينهزم! ودائمًا كانت كذلك.

قامت من مكانها وراحت تبتعد عن الفراش متعلقة أبصارها بالحاكم في نوبته الكتوم القاسية، إنها لا تشفي غليلها فقط.. بل تقضي عليه حتى الفناء.

استدارت منصرفة وأخذت بضع خطوات مرتبكة، لكنها توقفت حين عَمَّ يزيد هدوء شديد فجأة، وإن لم يخل من بعض الأنين.

التفتت ناظرة إليه ثم سرعان ما عادت إلى خطواتها المرتبكة من جديد، لكنها سرعان ما توقفت ثانية!

– كان.. هو!

خرجت كلماته بلسان ثقيل في صوت محشرج اخترق أسماعها كالصاعقة!

تسمرت في مكانها محدقة في صدمة، هل كان هذا صوته الذي سمعته؟ محال! إنه لا يتحدث!

أرسل لها تأكيدًا مفزعًا لشكوكها فخرجت حروفه ثانية في تخبط لكنها فهمتها.

– الأعيان.. الحريق.. لقد كان هو.. الرشيد!

تحطم قلبها وسقط حطامه في جوفها ذعرًا من قدرته على الحديث، وصدمة بما أخبره بها في آن واحد!

الرشيد؟ الرشيد هو وراء ما حدث لأهلها؟! لهذا طرده يزيد..

سارت كلماته بالنصال تهتك بأوصال روحها فجعًا وتهشمًا، والأهم من كلماته خروجها!

إنه يتحدث.. وبما أخبرته قبل لحظات، هذا لا يعني إلا مقتلها!

التفتت إليه ببطء وراحت خطاها تسوق أقدامها إلى رأس الفراش في رعب لم تعهد مثله من قبل، لم تبصر أي نور من حولها، لم تبصر الفراش أو الكمد على وجه يزيد الراقد عليه، ولم تبصر شيئًا إلا المنديل القماشي في الجوار، تأخذه بيد مرتجفة ووجه متجهم ثم تنقض مسرعة بوضعه في فمه حتى آخره، ثم

تجثم عليه متشبثة برقبته تعتصرها بين يديها في صمت، مشحونة بصراخ قلب دفين ووجوه شاحبة تغزوها الحمرة على وجه يزيد صارخة عيناه بالفزع، صراخ اخترق روحها كسهم مارق.

لم تبرح رقبته إلا وقد تجمدت عيناه في تجاويفها بالفزع فيهما وفارقت روحه جسده العاجز. نزعت المنديل من فمه على الفور ثم أسرعت تبتعد في ارتباك!

أخذت تشعر بالبرودة والخواء والهلاك، راح يتنامى في داخلها بكاء حاد هشم أضلعها، ثم صعد إلى صدرها، ثم سيطر على كل شيء في داخلها، حتى فقدت السيطرة على نفسها..

تصرخ وتبكي.. تلتصق بالجدار.. ثم تصرخ ثم تبكي...

وهنالك جاءها المخاض إلى جذع الجدار، جلست به على الأرض ألمًا، لم تعد ترى من أمامها أي شيء، لا تلك الخادمات اللاتي أسرعن إليها في ذعر ولا الجنود الذين ملؤوا الغرفة عن آخرها.

كأنما الأرض من تحتها تتمدد والجدران تموج وتهوي، وكل شيء بعيد يتلاشى، كل شيء مظلم ومخيف وخانق!

***

الآن هي تحدق إلى ذات السقف البعيد بالطريقة ذاتها، الألم ذاته، والخوف ذاته. تلك النظرات الأخيرة الضيقة، المحطمة واليابسة.

السقف الذي سترنو إليه روحها حين ييأس قلبها العابث في صدرها بلا جدوى.

من سيصلي عليك صلاة الميت يا مليكة؟ من سينجو من هذا الجنون الغاضب؟

- هه!

تَنَهَّدَتْها بعمق أنفاس أخيرة!

***

وهناك -على أبواب خافير- اشتد لهيب الشمس ساقطًا على جسده، وأخذت خطاه تتثاقل ماضيًا فيها، يجر العربة من خلفه بصعوبة بالغة ووصب عظيم، لقد نال منه التعب، أخذت ترتفع حرارته ويحمر وجهه كجمرة تلتهب في لب الشمس.

صحراء الخيزران أرض صلبة ثقيلة لكنها سرعان ما تنتهي إلى خافير، ليصلها المسافر بالغًا أبوابها.

دبت الحركة في سجين العربة ما إن بلغها، راح يتلفت بغطاء رأسه إلى اليمين واليسرة كأنه يرى، وأن هذا الغطاء على رأسه لا يمنعه من الرؤية قدر ما يمنع الآخرين من رؤيته هو.

لقد مضى عهد طويل، وها قد صار كل شيء إلى صيرورته!

على الأبواب كان بانتظاره جمع خافير العظيم، يتراصون في كل مكان، وعلى كل جانب، بصمتهم وسكونهم وثيابهم البسيطة المشابهة لثوب الرشيد، يتعالى بين صمتهم صوت الرياح تتطاير لها الثياب وحبات الرمال وترق لها القلوب.

إنها خافير بهدوئها وسكونها وصمتها، وقدر الراحة فيها الذي يداعب قلبه وروحه المرهقة. راح يرمقهم في سعادة لا يضاهيها إلا الجهد والتعب، بظهر قد انحنى، وثياب قد تلوثت من نوائب السفر، بينما يرمقونه في حنين، وشوق من انتظر لقرون!

ثم يرمقون من خلفه من حبسته العربة المجرورة ولا تبرحه أعينهم بعد حتى أن يمر الرشيد ماضيًا قدمًا نحو الأمام.

الشيخ الكبير والفتاة الصغيرة، النساء والفتيات والصبية، الجميع هنا ممن مكثوا في الانتظار.

تباطأت خطواته أكثر حين مَرَّ بأحدهم.. ازدحمت عيناه بالدموع ونطقت تعابيره بالحنين والأسف، كان مروان بن الحاكم على الجوار، والذي أخذ يذرف الأدمع قبل أن ينضم إلى الحشد التابع في المسير من خلفه.

حشد عبر بأكمله من أمام شمس الدين الذي وقف متبسمًا ضحوكًا مبتهج الأسارير مستنير الوجه كما كان، بين صفوف العرافين المجتمعة، كل العرافين.

جمع راح يبتعد مكملًا المسير نحو الوجهة. وجهة وصلها الرشيد هائم الخطى، تتباعد به أركان الساحة ممتدة كأنها لا تنتهي، حتى كان أمام البئر وقد استقر كل شيء.

الأقدام، والعجلات، والرياح، والأنفاس، كل نابض وقابض، كل رائح وغاد. هنا ينتهي كل شيء، لقد أتى به حتى فوهة البئر، وأتم مهمته على وجه الكمال.

اقترب من الحافة عند صخرة صديقة المتحجرة وسكن شاردًا في غياهبه. شعر بتغيرات شتى تحدث في جوف جسده كأن أحشاءه تتلاشى، أحكم قبضته على السور، متداركًا أنفاسًا شرعت في الاختناق بوجه اكتظ بالشحوب.

داعب الهواء جذعه يرمق ضوء الشمس يتباعد عن ناظريه شيئًا فشيئًا، قبل لحظة من أن تغمر مياه البئر جسده بالكامل. ذلك الجسد الذي ظل حبيسه لسنوات.

وقبل أن يتلاشى كما تلاشى كل شيء، تردد آخر ما تردد في مسمعه، هاجس تلك الحادثة! قبل قرون عدة، حين سقط في البئر لأول مرة، والتي صار بها البئر مأواه الأبدي، حتى يشاء الله غير ذلك.

يهجره كلما هجره، عند كل خروج جديد، ثم يعود إليه مجددًا في النهاية، ويبقى ذلك الهاجس حاضرًا كلما عاد. تلك الحادثة.. حين سقط من يد الخليفة الطيب!

انقطعت أنفاس الرشيد وسكن نبض قلبه ثم راح يتهاوى ساقطًا في قاع المياه. صوت المياه، وصوت الخليفة الهامس بالذكر، هناك عند حافة السراديب يتوضأ بماء البئر بينما لا ينقطع الذكر عن لسانه قط. يغمر بالمياه وجهه الأبيض ذو حمرة الحياء فيه إذا ما وقعت عليه الشمس.

قبل أن يتلاشى صوت خرير المياه وصوت لسان الخليفة العامر بالذكر ويتبادر إلى ما بقي من سمعه صوتان يتبادلان الحديث خارجًا من أعلى البئر.

أحدهما يقول في عجالة:

- أين أمير المؤمنين؟

قبل أن يجيبه صوت آخر أكثر ثباتًا منه وهدوءًا:

- على رسلك فإنه في البئر يتوضأ.. ماذا هنالك؟

- بأس عظيم! على الخليفة أن يعر...(الصوت يتضاءل) لقد..(مسمعه يضطرب)...

أخذ الصوت يخفت شيئًا فشيئًا، بينما ينفعل الرجلان أعلى البئر حتى اختفى تمامًا!

وهنا، كانت يد الخليفة تمسح ذراعه إلى المرفق قبل أن يُسقط مرفقه خاتمًا كان في إصبعه، هلع إلى الخاتم يحاول التقاطه قبل أن يسقط في المياه محاولًا الإمساك به بين قبضته في جزع، لكنه كان قد سقط في المياه التي أربكتها محاولاته حتى ابتلعت الخاتم في جوفها وفقده تمامًا.

وهنالك ابتلي الخليفة وزلزل زلزالًا شديدًا!

***

الزمان: اليوم الثامن عشر من ذي الحجة في العام 35 من الهجرة.

المكان: مدينة رسول الله – بيت الخلافة.

بلغ الحصار أيامًا..

ويح لأبناء المسلمين ماذا يريدون؟!

لقد ظن أنهم يطلبونه وحده لكنهم حاصروا كل المدينة، نشروا فيها الذعر والخوف والبلاء، وأي بلاء هذا؟ أصواتهم المقيتة الموحشة المنادية في الخارج لا تتوقف تردد:

- الخلع أو الدماء يا عثمان!

بطنه يتلوى من شدة الجوع في الحصار، وحلقه تتحشرج به الآيات التي جلس يتلوها من شدة العطش، لا يفارق المصحف المفتوح من أمام ناظريه، يهرب إليه من وحشة الحصار وضيق صدره به.

بينما زوجته نائلة ترافقه في غرفته هذه الليلة، فيم أذنبت تلك المسكينة كي تعاني من شر قد دنا حتى الأبواب؟ وفيم افتتن المسلمون حتى جاؤوا من كل الأرض يستبيحون الدماء ويحاصرون بيت الخلافة كأنما وُلِّي عليهم شيطان؟

جلس مغتمًّا متربعًا الأرض أمام مصحفه يقرأ..

«فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ»

أما يشفع له عندهم أنه من صحف ذلك الذكر الحكيم في مصحف يتلونه منه؟

تلك الهواجس تعيث بصدره دون توقف، يحياها كأنه يحيا كابوسًا في يقظة ويومًا في البارحة.

يتذكر كل العلامات، الإشارات التي تلقاها وكانت تثير مخاوفه، الآن بانت حقيقتها وظهرت جلية واضحة تصرخ بصوت جهور.

الصوت في الخارج: الدماء يا عثمان!

هي أشد الفتن على المسلمين!

كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من نجا من ثلاث فقد نجا، من نجا من ثلاث فقد نجا، من نجا من ثلاث فقد نجا، موتي والدجال وقتل خليفة مصطبر بالحق معطيه، أول العلامات.

وقول ابن عمر عما سمعه من رسول الله أنه ذكر فتنة فمَرَّ رجل فقال: يقتل فيها هذا المقنع يومئذ مظلومًا، فنظر فإذا به عثمان، ثاني العلامات.

«فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ»

وذلك اليوم، حين كان صلى الله عليه وسلم جالسا على بئر آريس فجاءه أبو بكر يطلب من الأشعري -وقد كان ملازمًا رسول الله يومها- الإذن في الدخول فدخل الأشعري إلى رسول الله وأخبره أن أبا بكر يستأذن في الدخول فقال: ائذن له وبشره بالجنة.

ثم جاء بعده عمر فقال: ائذن له وبشره بالجنة.

ثم جاء هو ثالثًا..

لا يزال يذكر جيدًا كيف كان الأشعري يرتبك بالقلق يخبره بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

- ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه!

علامة ثالثة.

«فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ»

وتلك الساعة، التي أخذ فيها الخاتم بعد عُمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة، والذي أخذه من أبي بكر، وقد لازم أصابعهم بعد أن لازم إصبع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وآخر ذلك، حديث زياد بن خارجة، حين مات في سنة خلافته الثانية قبل عشرة أعوام، وكيف تكلم بعد الموت!

قال:

- خلت ليلتان وبقيت أربع.. بئر آريس!

وبعدها بأربع سنوات في سنة خلافته السادسة، كان ذلك اليوم الذي سقط فيه الخاتم من يده في بئر آريس بينما كان يتوضأ.

لا يزال يتذكر كيف اغتم لأيام، كيف أمر الجنود بالبحث عنه في كل البئر حتى أخرجوا منه ماءه ولم يجدوه! كيف أن ذلك الخاتم منذ ذهب وريح الفتن تقبل ولا تدبر ساعة. منذ ضاع خاتم رسول الله غابت شمس النبي عن أرض أتباعه.

كيف لم ينتبه لكل تلك العلامات؟

بالتأكيد لن يذكره التاريخ بأنه الخليفة الذي أضاع خاتم رسول الله، الذي دارت في عهده الفتن إعصار يعصف بصفوف المسلمين، إعصار شديد سوف تتابع من بعده الأعاصير. هل سيفعل؟

« فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ»

هوت صرخة نائلة على مسمعه كالصاعقة ذعرًا بأولئك الثلاثة من المحاصرين الذين اقتحموا عليه الغرفة يستلون أسيافهم!

رفع يدًا ترتعد يوقفهما في يقين بعدم الجدوى سامعًا صوت نائلة وصراخها يقتربان منه حتى وثبت أمامه تقيه الخطر، ثم رامقًا أصابعها المبتورة بحد السيف تطيح في الهواء قبل أن يدفع بها أحدهم جانبًا.

ثم إقبال عليه عنيف واعتماد أسياف جسده النحيل!

لتصرخ الدماء في كل مكان ملطخة وجه المصحف في الجوار موضع الآية التي كان يقرأ..

«فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»

***

تطاير وشاح مليكة الأسود تسير في الصحراء، لها وجه أكثر شبابًا من أي وقت مضى وجسد أقل خفة وأكثر حركة. متكئة على عصا داكنة كردائها راحت تسبر الأغوار الممتدة حولها متبسمة الوجه هادئة الرمق. تنصب عيناها على الرمال البيضاء من أمامها تطلع إلى وجهتها في فضول.

توقفت بعد خطوات حين أدركت أنها على شفا الوصول ثم التفتت تطالع النهر من خلفها برزخ ما بين الجانبين يمنحها وروحها السلام!

يقف أمامه العراف نفسه الذي أغاثها بشربة مياه أحيتها بعدما كاد يقتلها التيه بعد العاصفة، تتدلى من يده قربة المياه وترتفع على وجهه ابتسامته الطيبة.

في المرة الأولى أعادتها المياه من قربته حية إلى أرض العاصمة، وهذه المرة حين سألته عن الوجهة لم يفعل إلا أنه أشار إليها لتسير..

عادت تكمل مسيرها حتى رأتهم على حافة تل قريب!

إنهم جميعًا، بهيئاتهم كما ودعوها ورحلوا..

تسمع نداءهم لها يتعالى إلى مسامعها بينما يتخافت صوت بكاء قادم من بعيد لرشيد ابنها إلى جواره صوت صراخ واشتعال نيران وضجيج صياح، يا لصخب الشديد خلف النهر!

ثم سرعان ما تجاهلت كل شيء وأطلقت أقدامها للريح وراحت تعدو نحو قومها من نساء الأعيان.

توقف القارئ عن التلاوة!

وسكن جسد مليكة على الفراش..

قام رشيد عن مصحفه وأقبل عليها هائمًا يجر أقدامه.

بدت تتمتم بكلمات غير مفهومة، وعيناها كأنها تناديه..

وضع أذنه على مقربة ينتزع من فمها السمع، ليسمع ما لم ينسَه حتى آخر عمره الطويل وكتب عليه حيرة الأبد..

- أنت..ابنـــه.

ابتعد ثاكلًا بينما هلعت الوصيفة والمطببة وتكدست الأقدام لدى الفراش، ثم سرعان ما تجهمت الوجوه! ثم هوت تتحاشى النظر.

لقد ماتت مليكة! لقد غادر سرها الجسد.

ابتعد بالكمد في صدره عائدًا كأنما يجر الجدران..

ثم عكف من جديد على مصحفه يتلو باكيًا، فارًا إليه...

يتلو ويتلو ولا تنقطع تراتيله أبدًا.

***

صرخت النيران في كل أفق، ولاح الموت في كل مكان، في قصر الرماد زخرت الأبواب بالأوصاد، والغرف بالأقفال والسراديب بالحديد.

وخارجًا احترق كل شيء على تراتيل النار. ما كان آفة دخيلة تلتهم بالأمس، أضحى اليوم نيران صديقة تلتهم الجميع، من سمع عن الحريق العظيم ومن لم يسمع، من قرأ ومن شاهد ضبابه العابر كل حين، عاش ليراها ذكرى حية تعود أمامه من أرض الموت إلى رحاب العاصمة، حريق عظيم، ثانٍ ينادي بالهلاك كل من أدرك السر، من عاش به أو مات دونه. نيران عظيمة تلتهم الأجساد مرة والقلوب ألف مرة!

صياح أخير للعاصمة، يعجُّ بالأسماع، حتى أسفل أرضها المشتعلة!

حيث تجمد العرافون مجتمعون في سراديبها الباردة، يصمون أسماعهم بأكفهم، ويمسكون رؤوسهم خشية الانفجار من الهول على وجوههم!

على حالهم جمود، بدوا كأنهم عليه منذ دهر!

بينما أحاط نعيق الغربان بجسد بعيد روحه أبعد، أمام شاهد القبر المنصوب، أحاطت به أجساد لا تختلف عنه بالكثير، يتلون تراتيل غريبة، تسمعها الغربان وتطير فزعًا!

هو جالس يترنح وهم من حوله وقوف، ينظر في كل مكان في رعب كأنه يرى الهول على وجوه العرافين في السراديب!

يتلفت حوله محكمًا القبض على الكتاب بين صدره وساعده وقد غابت يداه كما غاب عن وجهه السلام، وجه حاد منفعل غريب، كأنه وجه أحدهم يرى النار بعينيه ولا يمكنه حديث أحد.

لقد فقد عقله كما فقد لسانه، يرى ما يرى ولا يستطيع أن يحدث به أحد. يمسك بين صدر وساعد بكتاب ثقيل غابت كل ملامحه عدا من اسمه الذي سطر على وجهه بخط فج، تجتمع حروفه فيه اجتماعهم حول القبر الشاحب كأنهم باتوا له عابدين.

تلك التراتيل هي دعاء القبر الطويل، وذاك المترنح هو شاهد ذلك القبر، شاهد بن الرشيد الرمادي، وأولئك هم الشاهدون..

وحروف الكتاب بين أضلعه، تجتمع في سر عظيم!

***

وفي جوف البئر آريس، رقد في أعماق المياه الخاتم المعهود تفوقه المياه ذراع، تلو ذراع، حتى تتشعب السراديب خارجها مدويًا فيها صوت عميق غريب، كأنه فراغ يتسلل في كل اتجاه بعيدًا عن الشمس.

صوت راح يتعالى شيئًا فشيئًا كالطيف الخفي، حتى كشف عن كنه في ركن مظلم بعيد، انفجر خارجًا منه إلى ضوء الشمس صارخًا بحقيقته! وجه مروان وقد استحدثه ندب غريب في عينه اليمنى مكبلًا بالأصفاد الممتدة إلى داخل الجدران تتغلغل فيها بينما يصارعها يريد الفكاك.

صارخًا عابثًا يكاد من الضحك أن يُسقط الجدران. صياح ملأ به جوف البئر وأسماعه على الحافة خارجًا. حافة وحيدة التصقت بها صخرة صِدِّيقة الباكية.

وأسماع الساحة وبيوتها وربوع خافير الخاوية تمامًا..

وحيدًا في كل الخيزران!

النهاية

.. اطرد الشيطان عنا لننعم بسلام..

.. لأنه ليس لنا سواك في ضيقنا وشدائدنا..

.. لأننا نحن شعبك وخراف قطيعك..

.. تجاوز عن آثامنا..

ترنيمة: أونيشتى إميستيريون

(بالعربية: سر عظيم)

ـ تمت بفضل الله ـ

25 رمضان 1441هـ

12:56 م